

ولهذا الامتناع عن الزيادة وعزو ذلك الى القرآن الكريم ، انه نظم حواشي العربية ، وأخصمها لقانون بياني ثابت وأمات ما هو متراوح الفوص فيها، وانعشها بحيوية أخرى جديدة .

على ان ابن اسحاق لم يفهم السر الصحيح لهذا الانجرار وقد صرحت به لغير مرة من المقدمة. وهو توزع العرب في الانحاء ، وتناول المدرسة اللغوية العربية على وجه خرج جدا من النطاق اللغوي .

فالقرآن هو الذي اعتمد لغة قریش في افصح محتوياته ، والذي أمات منها القسم الغوضوي وقد رجع بعض اللغويين الى امتداد تجديد هذه الغوضى .

وخلاصة القول بان التطور عمل عمله في مادة اللغة كما عمل في صورتها ، وكان من ابرز ما قام به من اعمال منتجة في حروف الاعلال .

— من ابرز القوانين التي وقفت على تاريخ ماهية اللغة هي :

ا — ان لقانون منع الانتقال من الكسر الى الضم اقدم من تمام تحلل اللغة من الصوتية الى اللغوية .

ب — كان لاببدال حرف اللين الهمزة تخلصا من الصوتية ، ولابد ضرورة وهو متأخر عن قانون منع الانتقال .

ج — ان قانون الاتباع بالحركة متأخر جدا .

ان لكل قبيلة نطقا خاصا ولهجة خاصة بها، وكلمات تختلف عن كلمات الاخرى ، فمنهن من نطقت بـ نثدلان، وكذلك اخرى تقول زئبر ، فهذه الكلمات متخلفة تمام التخلف عن الارتقاء والتطور اللغوي واللهجي . اذن فالاستناد الى معرفة التطور من خلال قبيلة واحدة او من خلال قبائل خطأ ، فيجب على من نصبوا انفسهم لهذه الدراسات ان يجعلوا معلوماتهم صحيحة ويقارنوها الى محيطات متطورة ومتحضرة وليس الى محيط خاص بجماعة معينة بل ان يعرفوا المحيط المتطور ثقافيا ، واجتماعيا ، ولغويا ويلجوا بابه لمعرفة مدى تطور لغته ، وان يقارنوا هذا التطور مع تطورات اخرى من جهات اخرى لمعرفة النسبة التي سوف تكون نتائج حاسمة بالنسبة لهذه الدراسات .

ج — تطور الافعال :

لقد سبق لنا ان بينا قاعدة الافعال في الاثريات المحفوظة من بقايا اللغة وبسطنا معقول العربي في

ضروب دراستنا ، وما يتبعهما من تشعبات وافضان يستندان الاهمية التي امتروضتنا في الفصلين السابقين فمن ذلك ادوار اللغات ونشوء العربية ثم التطور في اللهجة وقد طبقنا كل شيء على العربية ، وقد عيننا باللهجة شكل اللغة المتطور من الصوتي الى اللفظي ، وهنا نصوغ الفكرة .

ا — نظرية التطور :

لقد مرت اللغة العربية كغيرها من اللغات في ثلاثة ادوار كما افصحنا سابقا ، دور المقطع ، والمقطمين ، والمقاطع وهذا يعني انها جابهت تطورا من الاحادي الذي كان مجموعة حروف الجدول الهجائي التي تمثل لغة الانسان الاول المعرض في القدم .

ومنها صارت الى الثاني والثلاثي حيث استقرت فيه ونشطت في حلقات خمس ومن هذه النشاطات كان الرباعي والخماسي والسداسي .

فاللغة كانت كما اسلفنا بتطورها صوتية ، ثم لفظية لكنها في تطورها الصوتي احتفظت بعدة وجوه صوتية بسبب مفادرة العربي لجزيئته من جهة وبسبب الذين تناولوا اللغة ، وكان طابع مدرستهم الجمع فقط، ثم الوقوف في وجه كل اجتهاد يرمي الى تحرير اللغة من الاثريات القلقة في الافعال والموازين ، والجموع الا ان خلاصة قولنا ان اللغة العربية تطورت لغة ولهجة ، ولكنها توقفت قبل بلوغ ما كان يقصده العربي منها .

ب — اللغويون الاولون :

للمعنى التطور من قبل اللغويين الاولين صفة ذات اهمية ، ولرايهم الخاص بهم ، كذلك اهمية نعلق عليها املا كبيرا اذ ان الذين يبذون اراءهم بتطور اللغة ليسوا ممن نبتهم الحياة ، بل من اولئك الذين عرفوا كيف يبذون رايهم وفي هذه الراء زبدة دسمة نحن بحاجة ماسة اليها والى معرفتها والاطلاع عليها .

قال ابن اسحاق: وان الزيادة في اللغة العربية امتنع العرب منها بعد بمث الرسول العربي (ص) لاجل القرآن . وان معنى هذه العبارة صريح وواضح ، وهي ان العربية كانت خاضعة للتغيير المستمر ، فاللغة بين الزيادة والتنقيح على سنة غير متخلفة ، وهذا هو الغرض المقصود من التطور .

نسوية الاختلاف بين ابواب الماضي والمضارع ، ونحن نتناول الان الفكرة بشكل اوسع من خلال الكلمات واليك بعض النماذج :

1 - دراك ، هيهات ، وى واننا نقول بان دراك اسم فعل امر بمعنى ادرك وهيهات اسم فعل ماضي بمعنى بعد ، ووى بمعنى اصعب بكذا

وان كلمة دراك وامثالها بقايا تمثل الفعل الامري قبل تهذيبه على الشكل الذي وصل الينا .

2 - براع ، ينبوع وهذان يعبران عن صورة الافعال فى العهد الصوتي .

- براع : فعل ماضي متخلف ...

- ينبوع : فعل مضارع متخلف ... ايضا ، ولكنهما ليسا على خلاف مع الوضع الذي استقر عليه الفعلان مما يدل على ان ترتيب الافعال على وضع مهذب سبق تمام التحلل الصوتية ، ولكن ما زالت الخلافات بين الافعال الماضية والمضارعة ، وقلنا بان هذه الافعال هي افعال اثرية ، والواقع ان اختلافها كان له مفهوم فى طبع العرب الاقدمين ، لان شكلية الحروف كان لها تأثير فى تمام له مفهوم فى طبع العرب الاقدمين لان هذه الشكلية كان لها تأثير فى المعنى واتمامه .

لقد ادركت اللغة العربية عهد الاصلاح والتهذيب ، وحاولت التخفص من الاختلافات المذكورة التي لم تعد لها اى معنى فى الوضع الاخير .

3 - وهل ويوهل : ومن معانيه الوهم والخطا والضعف والخوف .

- واول وهلة : اول شيء والمثال يلي ما قدمنا ويظهر فيه عمل التطور بنقله الى باب : فعل ، يفعل وامتبارها اصلية فيه ، وعلى قلة وشاذة فى باب فعل يفعل ، وهذا المثال متخلف لوجهين :

1 - التصحيح مع موجب الاعلال .

ب - الدوران بين بابي طرب يطرب ، وحسب يحسب ، ويظهر من هذا ان العربي فكر بتوحيد الابواب قبل تمام عمل الاعلام ولذا تقدم المثال الاخير والارقي

4 - وثق يثق : ومصدر هذا الفعل هو الثقة ، والوثوق ، والموثق ، ومعناه الائتمان ، وهذا المثال ارقى من سابقه لانه جاء من باب موات مع الاعلال الذي

هو تمام العمل الارتقائي ، كما تشهد مباراة الفيومي فى كتابه المصباح ، وتصديق كل ما رايناه وجئنا به .

وخلاصة القول فى هذا الموضوع اننا نستنتج مما تقدم :

- ان الصور التي عليها الفعل على اختلافه مهذبة سبقت بصور اميتت وآخرها ارتقاء الامر ، ثم استقر فى انه يتبع المضارع .

- ان تهذيب الافعال سبق التحلل من الصوتية .

- ان توحيد ابواب الافعال متأخر عن التحلل من الصوتية .

- الاعلال متأخر فى الطبع العربي .

تطور اسم الفاعل

وجدنا مما تقدم فى بحثنا عن تطور اللهجة ان صيغ اسم الفاعل ، فاعل ، فعيل ، فعل ، تنوي كلها فى اصل الدلالة ، وانها ارتقاءات عن فاعيل المات قصد ببعضها التنوع وبالمعنى الاخر الامانة .

ونرى بان الفرد العربي كان قصده طرد الفاعل فى كل ثلاثي مجرد بدون نظر الى الاسباب ، واذن لا حاجة لاختلاف اللغويين فى ابحاثهم حول صيغة (ايها القياسي) وحول ابحاثهم فى اسم الفاعل من الثلاثي المجرد .

فصيغ اسم الفاعل تطورات تفيد افادة واحدة ، وقد قصد العربي ان يعرض بها على كل المواد اللغوية ، فحال بينه وبين قصده ما ذكرناه من مفادرة الجزيرة ، وعمل اللغويين المحافظ ، فاكتفى بما وصل اليه وامر الاكتفاء معروف عند اللغويين الاولين فقد قالوا فى المصدر من الفعل ان العرب استغنوا فى بعضه باسماء وقعت موقع المصادر كما فى وصاة مكان توصية وزكاة فاضاف تزكية وصلاة مكان تصلية .

تطور الاعلال :

الاعلال وسيلة لبقة وسامية ، والاعلال يفيد المعنى الطبيعي ، كما فى طال : فانه يفيد الطول بنمو طبيعي ، واما التصحيح مع موجب الاعلال ليفيد المعنى بتكلف او باضطراب ، كما فى طول فانه يفيد التكلف فى الطول .

الارتقاء فى تطور الاعلال فيعود الى الامثال :

واضحة في منطقتي القبائل المختلفة ، ومنطق القبيلة الواحدة وبالتالي نقف موقفا مخالفا من علماء البيان فهم يبتدعون لها وجوها من التعليل ، كاختلاف القبيلة ، تداخل اللغات ، والفرائر والشذوذ والغلط ، وغير ذلك من حيل المتحيل .

ان التطور الذي قلنا عنه في المفردات يصدق عمله في الاسلوب والبيان على شتى اوضاعهما ، فكتاب (المجاز) لمحمد بن المثنى المعروف بابي عبدة يعالج التطورات المختلفة في هذه الناحية التي سماها مجازات اي اساليب ، والحق انها ابدا ما تكون عن معنى التسمية ، وما هي عند البحث الا تطورات وبقايا من مجازات انقرضت .

2 - أثر التطور في النظم والشعر :

حتى تطور الاوزان الشعرية لم تفلت من الانعزال والتشذيب ، ولكي يتسنى للباحث ان يربط بين بحور الشعر العربي القديم ، فهناك ابهر اميتت ، ان الشعر انتهى الى نتيجة خطيرة وهي ان البيان العربي ابتداء نظما وتطور كذلك اخذ نحو التحلل ، وكان من آخر البحور المرتقية ، الخفيف وما اليه ، والرجز المرصع الذي منه تحللت الاسجاع ويبدل على التحام الترصيع الشعري والسجع عند الشعراء وعليه فيكون السجع بين الشعر والنثر .

فمن هنا انبثقت القصيدة النثرية ، وهي التي تأخذ طريقا نحو الارتقاء في عالم التصاليد .

اثر القرآن الكريم في التطور :

ان القرآن تناول العربية ولما تستقر ، بحيث كان سببا قويا في تهيئة الاستقرار على اكمل وجوهه :

ويوجد في النص القرآني شتى التطورات النثرية ، حتى يكاد يحتك النثرية ، حتى يكاد يحتك النثر بالنظم في بعض السور « انا اعطيناك الكوثر » ، وهذا يعني بان القرآن يجمع بين مختلف السور البيانية ويأتي بها على نحو معجز جدا ثم يسوق اسلوبا جديدا لا ينتسب الى بيان العربية بحال ، وربما كان في اجتماع هذه السور الشتى من الاساليب في القرآن على مسحة متسامية ، سر اعجاز القرآن الصحيح .

وان الروح القرآنية والاسلوب القرآني ، فقولنا في ذلك ان روح البيان فيه مختلفة واجدر بنا ان ندرس

1 - هوية وتعني صوت الدنب ، وتمتبر اقدم الامثلة .

2 - الاتمام : منها ما هو مكسور ومنها ما هو مضموم ، فالاتمام ليس حركة كانت في اللسان العربي كما توهم اللغوي عبد القاهر الجرجاني ، في كتاب الايضاح ، ويظهر ان الاتمام اعلال بين ايدي التطور ، فمثلا نطق اول مرة شوق .

- ثم اعلت باتباع الواو للحركة فقيل : شيق وفي ذلك اتمام فالاتمام يعني نطق الضمة قبل الياء مع خفة المتكلم .

- وخلاصة قولنا في تطور الاملال هو : ان الممل كان على التصحيح اقدم عهد اللغة .

- ان قانون الاتباع هو قانون الاملال الصحيح .

- ان الاتمام الى الضم اعلال اولي وليس بحركة زائدة اميتت .

- ان الاتباع يميل في الاملال على التناسب ولو لادنى ملاسة .

والخلاصة ان التطور اللغوي يرجع الى شعبتين اساسيتين : يتفرع عنهما كل شيء يتعلق بالعربية مادة وصورة ، وهاتان الشعبتان هما :

1 - اثر التطور في الاسلوب البياني .

2 - اثر التطور في الشعر .

1 - فالتطور الاول وهو الاسلوب والبيان - فهو معين تاريخ النشوء اللغوي وتطور اللهجة : فالدراسة العميقة في البيان والاسلوب البياني قادنا الى :

1 - كان الجدول الهجائي بحركاته لفة للانسان القديم .

ب - نشأت العربية نشوا تطوريا من الجدول ، فالاحادي اصل الثنائي وهذا اصل الثلاثي .

ج - تطورت العربية اللفظية من اصلها الصوتي على ادوار متعاقبة .

وعلى هذه النتيجة ومراقبتها نتائج النظرية : فالبيان ، يساعدنا على مراقبة مقدار المسافات التي عملها التطور في اللغة على مختلف الانماء سواء في الاشتقاق ، والاهراب والموازين والاملال والاعمال والمصادر وتطلعنا على تلك المسافات التي بقيت

بيان القرآن لانه الوثيقة السامية في البيان والاسلوب العربي حتى نطبع به على الدوام فأشد الكتاب طرفنا منه أشدهم تعلقا به على الحقيقة ، لان البيان غلدي القرآن والغاية، ان القرآن امارات الفوضى في اللغة وأجبرها للانصياع لقانون بياني ثابت ، ودل فيما دل على تطورها ، كما أوضحنا في الفصول الاولى لنظرية التطور اللغوي :

ونستخلص من استعراض التطور في اللغة وجوه التخلف اللغوي الذي رافقنا خلال دراستنا .

فالعربية لم تزل على فوضى من الافعال والمصادر والجموع والموازن ، ولن تستقر على ما كان ما يريده العربي من لفته ، ولن تطمئن بين أشياء المستقبل الباقية .

الا بازالة ما بقي متشبها بها من علائق الفوضى بسبب ظروف العربي ومغادرته لجزيرته .

وبسبب اللغويين وتشددهم في السماع وفي ما يكتم العربية ، ويمنعها من الانفتاح على الحياة اللغوية المصرية والمستقبلية .

التنقيح في اللغة العربية

في الفصول السابقة التي أوضحنا فيها تطور اللغات ونشوء العربية في المقدمة ، رأينا عمل التطور في الغربية خلال هذه الفصول ، ان العربية تجاوزت حدا بعيدا دون أن تنتهي ، ولكنها مع ذلك أخذت بالاستقرار شيئا فشيئا واستمدت في سيرها ما تدعو اليه الحاجة من موازين دخلتها الزيادة الصرفية كافتعل وما اليه ، ولقد يكون الإخذ الجديد الذي تدل عليه العربية ، من اقرار الموازين بدلالات ثابتة، وأقرار الافعال على باب واحد ، وكذلك المصادر والجموع وهذا يعني الوصول بالعربية الى المستوى الذي كادت تبلغه لو بقيت في محيطها بدون براح .

ولكن الامر الذي يضع اللغة في مواضع قلقة وبصورة تكاد تجعل منها لغتين :

1 - لغة القرآن الكريم :

ب - اللغة التي تبدأ بالقرن العشرين .

وقد تفاوتت كلتا اللغتين تفاوتاً يكون لا أقل في أساليبه ومفرداته من اللاتينية والفرنسية هذا هو موقف اللغويين التقليدي وهذا هو رأيهم في

امر اللغة العربية ، وهذا الامر المتناقض ، وتهمهم على اللغة العربية تهجماً يجيزه هذا الدرغ الذي يأخذون الناس به ، وأعني به جمع لغات الجزيرة ، وبكلمة أدق تعبيرا لهجات الجزيرة ، والمداخلة بينها ، مداخلة مطلقة ، بغير تمييز ولا تنبيه ، بالاستنتاج منها مجتمعة قواعد اللغة في حين أنهم شهدوا بالاختلاف فيما بينها بصورة مؤكدة ، وهذا الموقف التقليدي لم يلج بأبه المحدثون .

- ولا تكون على مقربة اذا قلنا بان موقف اللغويين المتفاوت بأسباب أهمها ، عدم تفاهم لغويي البصرة والكوفة واتخاذ الخلاف بينهم صفة تعصبية صرفا .

فنقد تشددوا بمنطق الاستماع وهدم الحفظ اخذا على مذاهب الخصوم ، ان هذا الاغراق الشديد فيه هو من جراء التعصب القائم والتحامل البالغ ... وهذا ماخذ شعروا به ، ولكنهم دعوه تنقيحا .

وينتظم التنقيح للغة العربية بأربعة ادوار :

1 - كان بما قدمته قبيلة يعرب بن قطحان .

2 - كان بفضل اسماعيل لما اصهر الى جرحم .

3 - بمعونة قريش بالتدريج انتخابا من لغات قبائل العرب التي كانت تفد عليهم في كل عام .

4 - كان بعمل علماء المصريين ، الكوفة، البصرة، اذ قصروا اختيارهم على لغة قريش وست قبائل من صميم العرب ، لم تحتك بغيرها ...

- التنقيح الجديد :

ان الظروف التي رافقت العربي بعد هجرته من جزيرة ، وبعد مواقف اللغويين الذين خرجوا مما كان يقصد من لفته، في هذين السببين يكمن مرض العربية الذي قصر بها مطالب العصر ، ناهيك عن مطالب المستقبل ولا شفاء لها الا بمعاودة الدرس مرة ثانية وتنقيحها تنقيحا جديدا لا يخرج عليها بالاساس ولا يقصر بها عن مطالب العصر ، وتطور المستقبل . ولا بأس بتسمية ما نحاوله تنقيحا كان يكشف وحده حقيقة الماضي وينير طريق المستقبل ومن ثمة أصبح ضروريا أن نقول ما هي الاهداف الاساسية التي تلخص التنقيح الجديد .

أهداف التنقيح الجديد :

ان من أهداف التنقيح الجديد ان :

1 - نحذف السماع من اللغة العربية الا بالمعنى الذي سنقرره فيما يلي : وهذا يعني ان نخلص العربية من هوائق الفوضى في افعالها ونقرها على باب واحد هو باب ضرب يضرب : وفاقا لما اوضحناه فيما قبل .

كذلك يجب ان نأخذ بعين الاعتبار بان التنقيح يجب ان يجارى معقول العربي في لغته ، ان في قواعد الأهلل أو في كل ما يتفرع من بحث الأفعال : ثلاثية وغير ثلاثية من اشتقاق وغيره ...

2 - يجب ان يسمح بصوغ موازين الثلاثي كان ، وكذلك الرباعي وموازينه ، لان التزايد المستمر في اللغات السامية يخضع لقانون الاشتقاق أي الموازين أو قل التحرك من الداخل ، لان العربية غنية في موازينها التي تبلغ الثلاثمائة للثلاثي الواحد ، كما اعطانا اياها سيبويه في كتابه النحو الضخم .

3 - تخصيص هذه الموازين مفردة أو مجموعة بدلالات قارة ثابتة لا تختلف على اختلاف المواد، ففعال يخص بما يدل على الزائدة الاجنبية auto وفعالية يخص بما يلاقي في الاجنبية ism وبذلك تسهل مهمة الوضع الجديد ويكون اكثر علمية ، كما رأينا في وجوه التخلف .

4 - توحيد المعاني في المادة الواحدة ... ونمضي بذلك جعل كل معاني المشتقات من مادة ما معاني لها سواء اكانت مجردة أم مزيدة ، مما يصحح معه اشتقاق المجرود من المزيد وبهذا تزيد الوحدات المادية للمادة الواحدة .

5 - الاستفادة من قاعدة الدوائر أو القاعدة الدائرية ، بوضع مواد جديدة لم يسبق للعرب انهم وضعوها أو وضعوها وأميتت ...

6 - الاستفادة من سنة الرباعي وما اليه بزيادة الحرف على الاخر بعد تحرير معاني الحروف الهجائية

7 - المعاقبة أو الإبدال .

ان الهدف الخامس والسادس والسابع هي ذات أهمية خطيرة في نتائجها .

ومن مجموع هذه الأهداف التي جاء بها تنقيحنا الجديد للغة العربية : وضع المعجم العربي بطريقة

تلبى متطلبات وحاجات العصر وتمد المستقبل بما يحتاج اليه ، وعلى تفصيل هذه الحاجة المزدوجة ، وايضاح الشكليات اللغوية من خط واملاء ، وبيان ومعان ، وعروض ، وبديع وصرف ، ونحو وسجع وغير ذلك من التابيعات ، كالأعجاز والتضمين ، والفك ، في حمل الإدغام للدلالة والتصحيح في موجه الامتثال لغرض ما .

مستقبل اللغة العربية

1 - داء العربية ودواؤها :

ان الفن كله قضية تعبير . والانسان الخالد كله قضية تعبير .

وقد قيل ان العربية لا تتناول من شؤون الحياة ما نحسه ونشعر به ، وتفقدون البيان عنه بأي الفاظ من اية لغة فهي جديرة بان لا تكون الا في متحف يكتفي الناس منها بالنظر اليها . واني غير مطمئن الى ان الجماعة تقر فكرتها على هذا النحو ، ولكنها تعني معنى آخر هو ما سبق لنا ان ما تكمنه وهو ان الجدير بكلمة العربية هي : مجموعة الكلمات التي تضمنها المعاجم بالنقل من لسان العرب قبل ان يراه ما يراه ، وهذا الوضع الحرج الذي وضعوا فيه العربية ، الحق بها فيما ارى نتائج كاسواء ما تكون نتائج ومن أهمها :

1 - فصور العربية من تناول مقتضيات الفكر ، ولا ادل على هذا من عرض مجموعة كلمات الاصطلاح في اللغة العربية (المادة والجهة والموجهة) وقد ذكر في تعريفها ان كيفية النسبة في التضايب (مادة) واللفظ الدال عليها (جهة) والتضحية الواقع فيها هذا اللفظ (موجهة) .

2 - جمود اللفظ في معناه فلا تجد فيه شيئا من المرونة والبساطة كما يجب ان يكون ، بل تشعر بأنه ينكمش في طبيعته حتى يعود اشبه شيء بالحصاة مهما تقاذفتها السيول تبقى كما هي حصاة غير متحولة شكلا ولا اعتبارا ، ومن هنا اتهم بعض مستشرقة الاورنج ، اللفظ العربي بأنه (كليشة) لا اكثر وسمي العربية (لغة الاكليشات) .

- نشوء العامية : وقد يرى عجيبا ان يمد تشدد اللغويين للغة هذا التشدد جر الى نشوء العامية ، أو كان الاثر الفعال اليها ، ولكنني على ما يرى من عجيب اؤكد بصورة لا تقبل الريب وذلك لان الوقفة المترتبة

بهذا الشكل الذي لا يكفل حاجة الناس ولا يمير من
أفراضهم اليومية وهي لا تنفصل منهم بحال أو لا يثاني
لهم أن ينفصلوا بأى وجه ، جعل العامة يهجرون تباعا
هذه اللغة التي للخاصة رغم انها لغة التشريع
والإبتهالات ورغم أن العامة لا تهجر عادة اللغة التي
يتميز بها الخاصة إلا لاسباب ماسة لها حدثها ولها
منها .

فالانصراف الذي نلمسه في العامية قد كان اذن
لاسباب لا يحقر ابدا شأنها .

وكيف تحقر وقد سببت انصرافا عاما ، ولقد
أوخد بأن هذه النتائج التي لرتبها اذا سلم بأن العامية
نجمت عن الانصراف المذكور ، ولم تكن لاسباب اكثر
وضوحا مثل الدخيل والامتزاج .

الا ان الاعراب ليس وحده فارقة اللغة وميزتها
وربما كان أقرب الى الظاهرة بمعناها الصحيح ،
والمفردات المتميزة المنتقاة ، التي تشمل عليها لغة
الخطاب .

— ان الفوارق في اللغة قد حملت الواضع على
اختصاصها الا اذا ان الفوارق هذه تلبدت على مد التطور
وغابت عن متناول الرواة ، وقد يقوى هذا الظن ان
تكون آخذة شكلا تقنيا ، اذا ما تفحصنا هذه الكلمة
نراها رجعت الى تقن العربية التي جاءت بمعنى الطبيعة
والمواقف من كل الجهات ، على منحنى موزون خذ مثلا ،
(فمفعيل) الذي يظهر ان أصله (فيعمل) (وفعليت)
الذي يرجع الى (فعل) و (فعلين) كذلك وهكذا مما
سنأتي على ابداء الراي به جميعه ، باعتماد المقارنة
التشاكلية ، وان كنت اقطع بانني مع هذا لا امثل تمام
معقول العربي فيها ولكنني اطمئن اليها على اي الاحوال .

الا ان الملاحظة التي لازمتنا في دراسة الموازين ،
ان العربية كانت تصدر عن لواحق تزداد على الوزن اذا
كان المراد الافادة من معنى اللاحقة زيادة على معناه ،
بدليل السوابق وما لها من المعنى المعتبر في العربية
كسابقة (است) في استفعل التي تفيد الطلب او
الصيرورة او المد . واظن بان هذا يقطع هرق النزاع
كما يقولون من انه كان في العربية سوابق ولواحق لم
تتوضح تماما عند قدامى اللغويين .

واننا لا نريد ان نفوس في اشياء نحن بغنى عنها
لاسباب وجاهية .

1 — انها خطوة واسعة تشبه الطفرة التي لا
تخلو من البعثرة والفوضى ، وليس ذلك من عدم
صدق النظر وانما من عدم سلامة التطبيق من وجه ،
ولندرة الامثال المحفوظة على هذه موازين العربية التي
تحتفظ باللواحق من وجه آخر .

2 — حرمة موازين العربية التي هي شخصية
اللغة ، ان يضاف اليها ما لم يكن منها ومعنى هذا
بعيدا عن الميزان ثم اضافتها على الوزن لتحصيل
المعنى المطلوب يؤدي الى تزايد كبير في الموازين
الجديدة على اشكال لم تعرفها العربية المريقة ، وان
كانت ظواهر الدرس تقتضي بان العربي كان يعتمد
لواحق بعينها للدلالات بعينها ، ومن يشك في هذا اذا
تناولنا بعينين عن تشبيه الدهشة من استنفار هابت
مثل فعلوت ، وفعلوت ، وتفعلوت ، وفعلان ، فلم
وفعلين ، وفعلن ، وفعليت .

وانما خصصت هذه الموازين بالذكر الخاص لانه
يظهر فيها صورة قاطعة للتردد في أن العربية كانت
خاضعة لما يدعونه باللواحق في مذهب زيادتها ، ولكن
تشدبت هذه اللواحق حتى عادت وهي جزء من الوزن
لا تنفصل عنه وكان هذا بفعل الصقل اللغوي المستمر .

ان هذه الموازين هي اصطناع للمربية بخلاف ما
اذا كان التفريع على مقتضى ما حفظ من الموازين فقط
فانه يكون في فايته اشتقاقا متوسعا . وقد تدرك
فرقا واضحا بينهما وان كنت اهود فأقرر بان ظواهر
الدرس الذي اخذت بأسبابه على الموازين يعطي هذا
وانه مذهب العرب ، ودليله ان لاحق (وت) لم
تختص بوزن ما ، له طابع يميزه كما رأيت في مفعولت ،
وتفعلوت ، ولكنه كان مع ذلك خاضعا لشروط من
أهمها :

1 — ان لا تزيد الكلمة باللاحقة على اكثر العدد
الذي تكون منه كلمة في العربية . ان لاجتمع فيها
لاحتقان (كفعلان) مثلا فلا يجيء منه (فعلاتين)
(وكفمفعيل) لا يجيء منه فمفعيلين) وهكذا من مثل
هذه الانماط .

من الظاهر بان اللاحقة تعتبر في اكثر من
حرف ، فكل ما كانت الزيادة فيه حرفا فقط كان وزنا
أصليا يمكن أن تسيره اللاحقة . وتنضاف عليه ونحن
رغم انا نظن بأنه مذهب العرب على صورة مؤكدة
فلاخذ به فقط على شكلية المحافظة للعربية لا يقدر ان

مفعلاء : وهي تدل على الذي يوجد في المكان ويميز عنه حين نقول (مفعلاء) للذي يوجد في مكان العفن النتن ولا يكاد يتميز عنه مما يصلح ان يسمى به مكروب العفونة .
مفعل : وهو يدل على الآلة ، وكذلك مفعال وفعلية .

مفعلان : وهو يدل على اسباب الوصف فنقول للمكان الذي نستظل به الجلوس فيه في ضوء القمر مقمران .

وكذلك مشمسان لحمام الشمس ، ويدل ايضا على مضامفة خصوصية (مفعل) فنقول (منظران) للمجهر المضامف ...

وهناك زيادة اخرى الا وهي زيادة النون .

فنهال : فنهال : فنعلى ، فنعلاء ، فنعلال ، فنعنلوه ، فنعنل ، فنعنلة ، فنعنل .

الزيادة بالسواو .

هفعولة : وتدل على اشامة الوصف بحيث ينتسب الى كل جزء على انفراد اذ نقول (هرمول) للارض التي تشيع الرمال ، في كل مكان من انحائها ، ونقول كذلك هركولة ، ولقد اتى في هذا المعنى عند الشاعر الجاهلي الامشي ، بقوله :

هركولة فسق درم مرافقهـ

تمشي الهويئا كما يمشي الوجي الوجلي

وهذا في وصف امرأة في احد ابياته الشهيرة في وصف النساء ، فهناك كلمة هر كولة في المعنى المناسب .

فهركولة اذن هي المرأة السمينة ذات الارداق

— وهناك الزيادة لبعض الافعال من مثل :

فموال ، فموال ، فموال ، فموال ، فموال ، فموال .

الاوزان الكيماوية

فعليل ، وهو يعني في علم الكيمياء الاوكسيجين ، الذي يعرف في اللغة العربية بكلمة اكسيد . قبل

يعطينا الموازين المحفوظة مغنية من احياء اللواحق والاشتقاق فيها .

اما اذا ما تأملنا في لائحة الافعال فنرى .

فعل : انه يختص بالدلالة على الاتصاف بوحدة المادة نقول (رنج) للشيء فيه الغلق .

فعلل : وهو يختص بالدلالة على ما تعددت فيه الوحدات من الوصف نقول (زبدد) للمتعدد الزبد .

فعملاء : وخصوصية الدلالة على المكان الذي يوجد فيه الشيء وعلى معنى التميز وعلى تعدد الشيء في غير انفصال ، نقول حرجاء لمكان الغابات الكثيرة وصنعاء للمكان الذي تكثر فيه المصانع .

فعلان : وهو يختص بالدلالة على تكامل الوصف في الشيء تكاملا من كل الجهات نقول (رونان) أي صوت متكامل وآلة ذات روناق .

فعلت : وهذا الفعل يختص على سرعة التاثر او الانفصال وعلى سرعة الاحتراق نقول (عصبت) لتأثر الاعصاب السريع .

فعلن : ويقال هذا النفوذ الوصف الى غاية الباطن ومن ثم يوضع منه لظواهر الباطن ، نقول (نفسن) للرجل المختص بالاعمال النفسية كالممنوم المختطبي .

وهناك ضرور شتى من انواع الفعل يتعذر علينا ان نوردنا هنا .

وهناك الزيادة بالتاء ، مثل :

تفعال : وهو يتم على تجسيم المعنى ، مثل تمثال اي صورة شاخصة نقول (تظلال) للظل يتجسم فيصير صورة .

وتفعل : وهذا يدل على المتفعل من الوصف باسباب مشتركة من نفسه ومن الغير نقول (تنور) للحشرة التي تضيء في الليل .

— وكذلك الزيادة بالميم :

مفامل : وتدل على المتصرف بالمفاعلة بين منفصلين نقول (مداور) للذي يدبر شيئا آخر في حركة دورانه كما في الدواليب المتعاشقة .

الاسم المتزج ، ولكن للدلالة عليه يضاف اليه التساء المتحركة وبصير الوزن فعلية .

فعلت : وتعني في علم الكيمياء الهيدروجين وقد يحوي خواص الاسيد الحقيقي ويميز باسم ادراسيد ويسمونها في الاجنبية بزيادة اسيد ، على الاسم المتحد مثل (اسيد كلوريدريك)

الاوزان العديسة :

فعل وهو مخصوص للدلالة على الاحادي نقول فقد لما فيه عقدة واحدة الى عشرة .

فعلان : وهو يدل على المشوى نقول (فعدان) لما فيه المائة الى الالف مقدة .

مفعل : خصوصيته الدلالة على الربح نقول (مشهر) اى ربح شهر يقال (مجلة مشهوية) للمجلة الاسبوعية ولكنها لا تستعمل لانها صعبة اللفظ .

وهكذا تكون قد انتهينا من اعداد بعض الافعال والاوزان ، التي كانت داء في العربية ومرضنا كذلك الدواء لذلك وهو الذي يعالج الامراض التي رافقت اللغة العربية طوال مهبها .

اللغة العربية غاية لا وسيلة :

ان ما نبوح به في هذا القسم من الفصل الخامس هو ان اللغة العربية الفاظ يعبر بها كل قوم عن افراضهم ، وهما يحتاجون اليه ، فاذن هي غاية كي يجعلها دون الغرض تتناوله للكشف منه ، ومشاركته عندما نتجه بنظرنا الى اللغة في دورها النشوي، واما هي بعده فمجموعة من الانكار ، والتقاليد، والمواطف، والاحاسيس ، والنزوات وشتى المشاعر والاعتبارات تنتظمها الالفاظ انتظاما أصبح منها كما يكون الشيء من الطبيعة .

اذن أصبح للالفاظ وجود معنوي على مقدارها لا تزال دونه في الاعتبارات كما لا يقع دونها كذلك .

والزيادة التي يتاتي لنا ان نصفها بالطفيلية لا يسهل تعليلها اذا كانت اللغة وسيلة ، فقط تكيفها المعاني المتجددة على مقاديرها ، وانما تكون اقرب قصدا من التعليل حينما نجعل للالفاظ وجودها اشخاص او الشاهد قيمة معنوية ، وبعبارة اخرى كيانا معنويا ، تقصه افكارنا ، وقصته هذه تتوسل به

الى الكشف عنها بالقياس على كون الالفاظ ، وهذا راى لا نفرده به قيل من قبل ، والعربية هي غاية دون الابعاد والامتدادات ، وان كان بالنظر الى ما يفيدنا منها تكون غاية بملحظ من الوسيلة ، واكثر الغايات يكون لها هذا النصاب من الملحظ فهي غايات غير استقلالية يفرض فيها التعاون مما يتاتي لنا تسميتها بالغاية المطاوعة ، والمقصود من هذا التنحي في اسلوب الشرح بيان انه دلالة الالفاظ على المعاني المتجددة لا المستقرة دلالة مقايسة فلذا اردنا ان نؤدي صورة ما فانما نؤديها بضرب من المقايسة المحضبة بين ما هو حاصل في خيالنا وبين معاني الالفاظ المستقرة .

فكان لالفاظ اللغة اية لغة ، التي تستخدم للتعبير عن مختلف الصور زوائد احيانا تفرغ على الصورة ما يزيد في معناها بحيث لا يظن انها كانت كذلك على كمالها في خيال الاديب او العالم .

وهذا غير المجال التعبيري الذي يتاثر كل من يتدوق البيان لان ما نعني به نقص وزيادة على الصورة لا اشراق الديباجة ورونة الالفاظ ورصاعة التعبير .

وهذا موضوع على ما فيه من جلاء غموضا ، ولذا عبر وهو محل للاخذ والرد بين ادباء الجيل . ان في الادب لا بل في محيط البيان العربي عموما ، وجد يربي وحرى بكل عربي ، ان ينطوي على حفيظة مفرضة من هذا النوع واسميها ، مفرضة لاني ابتغيها غير قابلة للتفهم ابدا ولا تسمح باية مناقشة دون رعاية اساسها .

ولهذا نقصد ان نهدم بتحقيق اللغة غاية كما يكون الحساب ، والهندسة ، وما اليهما من انواع الرياضيات والعلوم ، وقرر مالم يكن في معرفة الكثيرين الذين يفرعون اذا ما قالوا العربية قالوها عن عبث .

وان دلالة مفردات اللغة على المعاني المتجددة دلالة مقايسة وموازنه ، والا لو دلت بالنفس لكان لها وجوات متعددة بتعدد الاشخاص اللاهين .

لنقول شيئا عن بيان ابيات الشعر لندل فيها على ما يجدر بالناقد البصير ان يميزه ، امني به تحقيق الفرق بين اشراق اللفظ وبين زائدة اللفظ وينبني عليه في درس الادب والاديب كثير من التصحيح فقد قال تيس بن الملوح في ليلى :

بعيشك هل ضمنت اليك ليلى
قبيل الصبح او قبلت فاهها

هذا داء العربية تنفثه جهات خارجية من طبيعتها .

اما دواؤها فتخليصا من التزوير عليها ، الا زورا عما تريد هي وصما كان يريد اصحابها منها .

هذا الدواء الشافي لقد افصحنا عنه وهو حذف السماع من اللفظة وتحكيم القياس فمفنى العربية انما يجيبها من غنى قواعدها وانتظامها لا من اي شيء آخر وفي تحديد معاني الموازين وصوغها من اي ثلاثي كان وكذلك موازين الرباعي وفي توحيد معاني المشتقات جميعا للمادة ومن التنسيق لشكلياتها المختلفة ، الخارجية كالخط والاملاء ، والداخلية كالبيان والمعاني والمروض والصرف والنحو .

في الفصل الاول كان نشوء اللغة والتطور في اللهجة واللفظة . وادراك المعقول العربي من خلال ادوارها النشوئية ويرجع هذا التأخير في اللفظة لسببين :

خروج العربي من جزيرته .

وتزمت اللغويين القدامى وتمسكهم بالسماع ، ومتابعة اللغويين المحدثين لهم رغم ضرورات العصر الجديدة . . .

ولقد كانت اهداف التنقيح الجديد الذي اوردناه في احدي الفصول بالسير بالعربية بمدد توقفها ، ولدفعها نحو المستقبل اللامحدود لتكون خالدة بين اسيائه الباقية .

وفي سبيل ذلك المستقبل المنشود لفتنا المزيدة وشعبها العظيم تنادي اخوة لنا في المغرب الى اخراج مثل هذه الدراسات والابحاث .

وفي هذا السبيل افتتم الفرصة لابداء بعض الملاحظات .

1 - ضرورة اعتماد الفكرة التطورية لانها وحدها الفكرة الجدية والحقيقية التي بها تزال مشكلات حياتنا اللغوية .

2 - الانطلاق بثورة صحيحة في اللفظة العربية وكتابة قواعدها واساليب تدريسها وتفجير المزيد من طاقاتها اللغوية .

3 - نتمنى ونحلم ، وهاتان قدرتان معجزتان ، فاذا ترجمنا عملا نحقق كل تطور وابداع .

ونتمنى على حكومات ومجامع الدول العربية ان تسير بالعربية وتمد يد المساعدة الى اللغويين ونحلم بذلك .

وهل رفت عليك نروع ليلي
رثيف الاقحوانة في مداها
ويكاد يكون هذا الجزء عاما على لسان الشعراء
العرب جميعا .

وهو لا يريد في اعتبارهم على (بريك) او لمعرك وما يتبعهما وهذا ما يدلنا على ان قيس كان يقول هذه العبارات ليس اكثر من الحنف والتأكيد . وهذا ما يسمى مزاحمة تعبيراً في محل تعبير .

كل هذا من زائدة الالفاظ وذلك حين نرى بان المجنون يرى العيب في ظل التي يهوى ويحب سعادة دونها السعادات الاخرى . وهو من نشدانها بقي يبيكها ابدا في انشودة الحزن المرة . بهذا النظر الطالع للقسمة حين يستفهمه من شكل من الاشكال تلك السعادة ولون ثرى من الوانها مرسوما بضمه السحر وقبلة في عين الصباح .

ومهما يكن من امر فان غاية كل لغوي خدمة العربية وانقاذها والخروج بها من قوتتها الضيقة فاذا لم تكن للفرد غاية تامة صحيحة فلن يكون للجماعة فكر تام صحيح ، وفرض انسان بدون لغة معناه فرض انسان بدون فكر .

وبهذا نقدر ان نجد القول بان اللغة العربية هي لغة غاية لا لغة وسيلة .

والخلاصة ان قصة العربية هي قصة الحرية ، وان الفكر العربي مغلول بعبوديات كثيرة اهمها عبودية العادة والتاريخ ويتجلى هذا الامر في الجانب اللغوي منها .

فاللغة هي بيت الكائن الحي ومرآة فكره ، بل قد تكون اللغة هي وحدها الوسيلة للابداع والخلق ومرادف الانسان ، فالانسان لغة لا انسان بلا لغة ، واللغة غاية لا وسيلة ، منذ كان الانسان نهاية سخر له كل شيء .

من هنا كان الاهتمام بالعربية اهتماما بالانسان العربي ، ليست كما يزعمون اصعب اللغات ان لم تكن اسهلها وامرنا والينها ، هي اصلح من اثربها من اللغات للحياة والتطور والنمو والترقي .

كل ذلك اثبت الفوضى في تاريخنا واستجلاء بداية العربية ثم مسيرتها في ادوار رقيها وحلقات تطورها حتى خروج اصحابها من جزيرتهم وتوقفها المفاجيء قبل اتمام دورها التطورية ، مما حملها بعض الفلاقي المتخلفة في الافعال والمصادر والجموع ، والاوزان ومما زاد في عمر هذه المتخلفات تزمت اللغويين القدامى ، ومتابعة المحدثين لهم .

تعريب العلم

بترجمة الإنتاج الفكري والتقني الإنساني

أصدرت الامانة العامة لجامعة الدول العربية مذكرة أكدت فيها ان مجلس الجامعة قد اتخذ في دور انعقاده العادي الثالث والخمسين (مارس 1970) بشأن تعريب العلم في الدول العربية القرار التالي :

3 - ان تعمل الادارة الثقافية وبالانفاق مع الدول الاعضاء على تكوين لجنة تمثل فيها جميع الدول العربية (ما أمكن) بعلماء متخصصين ممتازين ، تكون مهمتها :

ا) الاشراف على وضع خطة للترجمة واختيار الكتب والمترجمين من البلاد العربية .

ب) المساعدة (1) في اصدار المعجم العلمي العربي الموحد الذي باشرت العمل فيه وزارة البحث العلمي في الجمهورية العربية المتحدة .

ج) وضع الميزانية المناسبة للانفاق على هذا المشروع الضخم لشراء الكتب والمراجع والدوريات في اللغات المختلفة من البلاد المختلفة ، مع توصية الامانة العامة بان تدرج بمشروع ميزانيتها للسنة القادمة 70 - 1971 اعتمادا قدره خمسة آلاف جنيه حتى يمكن تنفيذ المشروع على أساس سليم .

ايمانا من اللجنة بقيمة الترجمة العلمية باعتبارها حجر الاساس في النهضة العلمية العربية الشاملة .
وتقديرنا منها لضرورة التنسيق بين الدول الاعضاء في هذا المجال الخطير في حياة امتنا ومنما للازدواج أو التكرار ، وحتى تكون الترجمة على هدى من المعرفة والتجربة والخبرة بموضوع الترجمة فانها توصي بما يلي :

1 - ان تواصل الادارة الثقافية اتصالاتها مع الدول الاعضاء من اجل استكشاف حال الترجمة العلمية في الوطن العربي .

2 - وبعد ذلك تدعو الادارة الثقافية المكتب الدائم للجنة للنظر فيما انتهت اليه اتصالات الادارة الثقافية من مسح هام للترجمة العلمية في البلاد العربية يستخلص المكتب منها عددا من امهات كتب العلوم يوصي بترجمتها .

1) من المعلوم ان المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي يعمل الآن ضمن اختصاصاته وفي نطاق جامعة الدول العربية على اعداد معجم علمي وتقني عام موحد بعدة لغات .

اساسية لا غنى عنها للباحث او طالب العلم المتخصص الى اللغة العربية .

ولى ضوء اجابات الجهات المختصة فى الدول الاعضاء يمكن الوقوف على حال الترجمة العلمية فى البلاد العربية ثم دعوة المكتب الدائم للجنة الثقافية « للنظر فيما انتهت اليه اتصالات الادارة الثقافية من مسح عام للترجمة العلمية فى البلاد العربية يستخلص المكتب منها عددا من امهات كتب العلوم يوصى بترجمتها » .

2 - اما فيما يختص بتكوين لجنة تمثل فيها جميع الدول العربية (ما امكن) وهي المشار اليها فى البند (2) من قرار المجلس المشار اليه فان الامانة العامة ترى ان يتم ذلك عند انعقاد المكتب الدائم وبعد ان تكون الدول الاعضاء قد امدت الادارة الثقافية بالامانة العامة بالصورة الحقيقية لحال الترجمة فى البلاد العربية .

3 - وعلى ذلك ، وحتى تكون نقطة البداية فى هذا العمل القومي العلمي الجليل قائمة على اساس سليم ، فان الامانة العامة (الادارة الثقافية) للجامعة ، تكرر رجاءها الدول الاعضاء ان تزودها بما سبق لها طلبه منها فى هذا الخصوص من اجل ان تستفيد من الفترة (ج) من البند (3) من قرار مجلس الجامعة المشار اليه والخاص باعتماد مبلغ خمسة آلاف جنيه فى ميزانية 70 - 1971 ، فتبادر الى تكوين اللجنة المشار اليها لاختيار عدد من المصادر الهامة فى مختلف فروع العلم الاساسية والتطبيقية لنقلها الى العربية

هذا والامانة العامة (الادارة الثقافية) للجامعة الدول العربية تأمل فى ان تتلقى فى وقت قريب مناسب البيانات المطلوبة لتمكين من تنفيذ قرار مجلس الجامعة ترحو التفصيل بأن تراهي جهات الاختصاص الجديدة 70 - 1971 للامانة العامة تبدأ اول يوليو (تموز) 1970 .

وتنهر الامانة العامة هذه الفرصة لتصير من فائق تقديرها واحترامها . . .

4 - تعمل على ترجمة عدد من الكتب كل عام توزع على فروع العلوم الاساسية والتطبيقية المختلفة من كيمياء وطبيعة ورياضيات ونبات وحيوان وحشرات وجيولوجيا وفلك وارصاد واحصاء بالإضافة الى العلوم الطبية والفسولوجية والهندسية والزرامية والصيدلية والبيطرية . الخ .

5 - متابعة كل ما ينشر من الكتب والمطبوعات والدوريات فى اللغات المختلفة من انجليزية وفرنسية والمانية وروسية واختيار ما ترى نقله الى العربية .

ولما كان هذا القرار يشتمل على عدة نقاط هامة فان الامانة العامة (الادارة الثقافية) للجامعة تشرف بذكر ما يلي :

1 ان الادارة الثقافية بالامانة العامة للجامعة سبق لها ان كتبت الى الدول الاعضاء الموقرة من اجل :

1 (تزويد الادارة الثقافية بالامانة العامة لجامعة الدول العربية ببيان عما تم تعريبه حتى الآن من الكتب العلمية التي تعد مراجع اساسية ومصادر لا غنى عنها للباحث فى ميدان تخصصه .

ب) ان تفضل الجهات المختصة فى حكومتكم الموقرة بتزويد الادارة الثقافية ايضا باقتراح ما ترتضى تعريبه من امهات كتب العلوم العالمية (بكافة الفروع) التي لم تعرب حتى الآن ، واذا كانت هناك بعض الدوريات التي ترتفع فى مستواها وبما تعالج من موضوعات وابحاث الى مستوى المصادر الاساسية وترى تعريبها فلا بأس من ذكرها ايضا ، بين ما يجب تعريبه .

ج) ان تفضل الوزارة الموقرة ايضا بالايصال الى جهات الاختصاص فى حكومتها الجلييلة من اجل تزويد الادارة الثقافية ، كل ستة شهور او كلما دعت الحاجة الى ذلك ببيان بما يتم تعريبه مفضلا من الكتب العلمية

لذلك فان الامانة العامة (الادارة الثقافية) للجامعة ترحو التفضل بأن تراهي جهات الاختصاص فى الحكومات العربية الجلييلة ان الترجمة العلمية مقصود بها نقل امهات الكتب العلمية (فى العلوم الاساسية - البحتة - او التطبيقية) التي تعد مصادر

تعريب التعليم في الجزائر ومساكله

الأستاذ عبد الحميد المهيبي - الجزائر

لقى الأستاذ عبد الحميد المهيبي رئيس اللجنة المصغرة للتعريب في الجزائر محاضرة قيمة في مقر الجامعة الجزائرية حول تعريب التعليم ، تعطي صورة عما يتخبط فيه تعريب التعليم في المغرب العربي من مشاكل ، ونحن نلخصها فيما يلي :

ولن نستطيع أن نوفي جميع جوانب المشكل حتما من الدرس في محاضرة واحدة . ولكن نكتفي بآثار القضايا التي يتكون من مجموعها ما نسميه قضية « تعريب التعليم » .

وأول الاعتبارات التي ينبغي اثارها قضية اللغة العربية نفسها . فهي ليست اللغة الام لجميع الجزائريين ولكنها اللغة الوطنية لجميع الجزائريين .

واختيار هذه اللغة لم يات ارتجالا ولا بصفة اصطلاحية ولكنه تم عبر القرون والتجربة التاريخية الطويلة . وكانت لغة التعليم في الجزائر قبل الاستعمار الفرنسي هي اللغة العربية في جميع مراحل الدراسة . وهذه حقيقة تجعلنا نقرر أولا بأن هذه المشكلة تهم سائر الجزائريين وبأن حلها ينبغي أن يشارك فيه جميع الجزائريين بدون استثناء .

الحقيقة الثانية أن العربية كلفة ظهرت فجأة على المسرح العالمي وهي مكتملة من جميع النواحي . ولم يستطع اللغويون على ما أمرف إيجاد تحليل كاف لهذه الظاهرة .

ذكر المحاضر بتاريخ اللغة العربية الطويل وتطورها واضطلاعها ابان العصر العباسي بدور ضخم

ذكر المحاضر في البداية أنه لا يريد القاء محاضرة بالمعنى المتعارف وإنما اثاره المناقشة حول الموضوع . ثم قال ان ما سيعرضه من افكار ليست افكاره ، وإنما آراء نضجت مع الزمن عند المهتمين بالتربية في الجزائر .

وقال ان تعريف المشكل يضمننا في نهاية التحليل وجها لوجه ، أما ضرورة تحديد اختيار لغة أو لغات التعليم ، وهو اختيار لم تتم به بعد ، ذلك لان على الجزائر أن تضع سياسة بعيدة المدى للتعليم ، وهنا يلقي السؤال : هل يحسن بنا أن نتخذ لغة واحدة للتعليم ؟ ، وأن الاجابة على هذا السؤال ليست سهلة كما يتبادر الى الذهن ، فهذه القضايا تثير مجموعة من المشاكل منها ما له صبغة لغوية بحث ، ومنها ما له اتصال بالجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية في نفس الوقت .

ولهذا فان معالجة المشكل لا يمكن ان تتم الا عن طريق الدراسة الكاملة لكل هذه الجوانب ، والاقترار على جانب واحد يؤدي بنا الى حلول ناقصة .

وقال ان هذا التعقيد الناجم من طبيعة القضية قد يتخذ ذريعة لابقائها دائما تحت الدرس والمناقشة .

هو تمثل مختلف ألوان الحضارات ونقل هذا التراث إلى الأجيال اللاحقة .

ثم أصاب العربية انتكاس نتيجة تخلف المجتمع العربي نفسه . وفي الوقت الحاضر تعرف هذه اللغة نهضة جديدة .

وأشار المحاضر إلى ظهور لهجات التخاطب في البلدان العربية ، مبينا أن هذه اللهجات على اختلافها تكون وحدة تمكن المتكلمين بها من التفاهم بجهد بسيط

وخلص المحاضر من ذلك إلى القول :

باننا أمام لغة قديمة قامت بدور أساسي وأمام لغة خطاب مختلفة احتفظت بوحدتها . ثم أمام ظاهرة ثالثة وهي ظهور ما يسمى باللغة المشتركة أو العربية المعربة التي تجمع الإصالة ونوعا من التبسيط في منتهى وتراكيبها بجملها قادرة ومتفتحة على التيارات اللغوية المتصلة بها بشتى طرق الاتصال .

ثم أشار إلى أن الاستعمار جعل ظل اللغة العربية يتقلص تدريجيا في المدرسة الجزائرية إلى أن تفردت بها اللغة الفرنسية ، وهذا جعل المدرسة أداة لمسح الشعب الجزائري وفرنسته .

ومند الاستقلال ، كان لا بد من تغيير هذه الوضعية ، وأدخل في البداية وكخطوة أولى قدر أدنى من اللغة العربية كمادة درس أساسية في كل فصل .

وهنا وضعت مشكلة الاختيار أينصب على لغة واحدة للتعليم أم ينبغي الاحتفاظ بالازدواجية ؟ .

وقد رأينا كيف أن هذا السؤال صعب الجواب نظرا لتشعب الموضوع ، وكيف أن طبيعة التشعب هذه تتخذ ذريعة لإبقاء المشكل دائما تحت الدرس والمناقشة .

وقبل أن نتخذ الجزائر حلا جذريا ، حاولت ألا يكون مجهودها المدرسي استمرارا لنشر الفرنسية في المدارس . فحريت مواد التاريخ والتربية الدينية والخطبة والمدنية والجغرافية مع كثير من التحفظ وحررت السنتان الأولى والثانية من التعليم الابتدائي وأهدت بعض الثانوية المعربة في أوائل الاستقلال . وكان هذا ما يمكن أن نسميه بالتجربة الجزائرية في حقل التعريب .

هل تكفي هذه الإجراءات لإخراج المدرسة الجزائرية من طبيعتها الموروثة وجعلها تعمل وفق الاختيارات الأساسية للجزائر ؟

امتقادي الخاص وكثير من الإخوان في لجنة إصلاح التعليم أن ذلك لا يكفي وإنما إن كانت خفت من هذه الطبيعة الموروثة ، فإن المدرسة الجزائرية ما زالت وسيلة لنشر نوع من الفرنسية غير منظور . وهي لهذا السبب أخطر من المدرسة الفرنسية التي كانت تجابه الجزائريين بما يكرهون كاشفة القناع عن وجهها .

والسبب الرئيسي لهذه الوضعية هو أن المدرسة الجزائرية لا من اختيار بل لتوقفها على اختيار طريقة ناجمة للتعريب ، انتهت إلى الازدواجية : العربية في الدراسات الأدبية (النظريات) والفرنسية في العلوم

هذا الوضع يقدم للطفل الجزائري صوريين ، صورة الماضي متمثلا في اللغة العربية ، وصورة المستقبل وبالتالي للفعالية متمثلا في اللغة الفرنسية .

وإذا استمر الوضع على هذه الحال فإنه يوشك أن يحدث اختلال في شخصية المواطن الذي تكونه وإن امتنا لا نريد أن نزيل ماضيها من الأذهان بعيدا عن الفعالية وقد يرتبط هذا الماضي منها باللغة العربية .

وبعد ما أشار المحاضر إلى الحجج التي يقدمها البعض من قصد حسن نية إصلاح جهاز التعليم وجعله ملائما لتوفير العدد الكافي من الأطارات لمقاومة التخلف ، وتولهم أن المهم أن يكون في البلاد مثل هذه الأطارات وأن اللغة شبه ثانوي . هذا التيار في نظر المحاضر يمتد على نظرة ليس فيها همق ، لأن التعريب لا يمكن أن يكون منافيا لهدف التنمية .

مقدرة اللغة العربية :

ويبدو من الوضع الحالي للتعليم بالجزائر أن هناك تعارضا ظاهريا بين تعريب التعليم وتلقيته . قد ينجم منه الشك في مقدرة اللغة العربية كما قد يكون نتيجة نظرة سطحية إلى واقع العالم العربي .

فمن حيث الشك في مقدرة اللغة العربية ، يمكن أن يرجع إلى أن هناك دولة عربية تستعمل اللغة العربية كأداة لتعليم جميع الصواد ، هي سوريا .

والمختصون بالدراسات اللغوية يؤكدون بان اللغة العربية قطعت شوطا بعيدا في تطوير نفسها ، واصبحت مرشحة لان تكون لغة عالمية .

نعم هناك مشكل المصطلحات ما زال قائما لكون الجهود الفردية بشانه مبشرة غير منسقة . ولكن المشكل حاصل في مستوى معين . هو غير حاصل في مستوى التعليم الابتدائي ولا الثانوي ولا حتى بعض الدراسات الجامعية . وانما يوجد في مستوى الاختصاص الفيق - والبحث العلمي ، والتبادل مع الغير .

فما يقال عن عجز اللغة العربية انما يقال بدون تمحيص . فهي صالحة كل الصلاحية بدون ادنى عائق في مستوى الثانوي على الاقل .

على ان هناك الادعاء القائل بان اللغة العربية صالحة كأداة في تلقين الدراسات الادبية والانسانية ، وغير صالحة لتلقين التقنيات .

اولا : مصطلحات العلوم الصحيحة قليلة ومحدودة .

ثانيا : الصفة التي تمتاز بها المصطلحات هي الدقة والوحدة .

وهذه مطالب غير عسير تحقيقها على جهود العاملين في هذا المجال .

على ان هناك حقيقة يجهلها الكثير ، وهي ان مشكلة المصطلحات في الدراسات الادبية والانسانية ، اكبر منها بكثير في العلوم الصحيحة . وذلك لشعب تلك الدراسات وصعوبة وضع المصطلح الدقيق بشأنها وامتقانا ان هذا الامر الممكوس للغاية . وان القصد من ذلك تبرير الوضع القائم واكثر منه تعبير عن حقائق علمية .

الجانب الثاني : النظرة السطحية الى واقع العالم العربي .

تجارب العالم العربي في ميدان التعريب :

اعتبر المحاضر ثلاث تجارب اساسية

(1) تجربة سماها شاملة ، هي تجربة سوريا .

ليست جديدة، ابتدأت أثناء الحرب العالمية الاولى تمت بتشجيع الخبراء الفرنسيين الذين كانوا يصنعون

التقارير تلو التقارير يؤكدون ان العربية صالحة في جميع مراحل التعليم . وكان حائزهم الى الرغبة في وقف انتشار اللغة الانجليزية في المشرق العربي .

امتت هذه التجربة نتائج يمكن ان تعتبر حجة كافية على صلاحية اللغة العربية . لكنها تصطبغ بنقص عاب السوريون أنفسهم هو عدم اهتمامها بتدريس اللغات الاخرى .

هذا جعل التخرجين ، وخاصة المختصين والمشاركين في البحث العلمي يجدون بعض العمومة في ميادين الاختصاص نظرا لضعفهم في اللغات الاجنبية .

لكن هذا يمثل مرحلة هي الآن في طريق الزوال.

(2) تجربة ولقت في نصف الطريق ، تمثلها ، مصر والعراق

وقفت عند الابتدائي والثانوي والدراسات الادبية والانسانية في التعليم الجامعي ، وبقيت المواد العلمية باللغة الاجنبية .

وكان من نتائج هذه السياسة تناقض واضح يتمثل في انشاء المجامع العلمية اللغوية من جهة ، ورفض استعمال العربية في العلوم من جهة اخرى .

فوقوف التعليم في الجامعة بالعربية لدى العلوم ليس منطقيا ، ولكنه مرتبط باوضاع .

هنا استعرض المحاضر الكفاح الذي خاضه الشعب المصري تحت الاحتلال الانجليزي لفرض اللغة العربية في الابتدائي والثانوي ، واضطرار الحكومة للاستجابة واصرارها على عدم تمميمه على الجامعة .

وكيف ان الجامعات المصرية قامت بمجهودات الشعب الاهلية ولم تساهم فيها الحكومة .

وكيف ان القائمين عليها اقتصروا على تعريب النظريات لانها كانت في متناول مجهوداتهم المتواضعة ولا تكلف كثيرا .

وكيف ان تجربة العراق تشابه كثيرا تجربة مصر ، ثم قال :

ان الاتجاه الذي في سوريا ومصر والعراق هو التفكير الجدي في اكمال الحلقة .

3) الطار المغرب العربي :

تتميز تجربة الطار المغرب العربي بالتوفيق من البت في اختيار لغة واحدة للتعليم ، وتخصيص اللغة الفرنسية لتلقين العلوم والتقنيات .

وهذه تجربة قد تؤدي الى مخاطر ، لانها مبنية على احكام سابقة غير مخصصة .

ثم لخص المحاضر الوضع في العالم العربي ككل ، فقال ان التجربة ككل تعتبر عامل اللغة ، وتناسى اشياء اساسية ، وهي ان حركة التعريب بدأت في وضع سياسي كان العالم العربي فيه خاضعا لنظم استعمارية ، وان المجتمعات العربية في ذلك الحين كانت مجتمعات اقطاعية او شبه اقطاعية .

ولهذا فان تجربة التعريب كانت منعزلة تمتد تطوير اللغة بمفردها ، دون البحث في الاسباب المؤدية الى تطوير المجتمع ككل . اذ مدى تطوير اللغة مرتبط بتطور المجتمع . وقد كانت تجربة تستهدف احداث ثورة في اللغة ، في نفس الوقت الذي تريد تلافى احداث ثورة في المجتمع .

وهذا من شأنه ان يؤدي الى الاخفاق .

اذ كيف يمكن ان تتطور اللغة العربية في مجتمعات اقطاعية او شبه اقطاعية لا وجود فيها لاساس مادي للعلوم والتكنولوجيا .

التعريب يسدا الان

وعلى هذا ، فان التجربة الحقيقية للتعريب تبدأ الان بعد ان اصبح واضحاً ان هذا لا يمكن ان يتم الا في نطاق ثورة شاملة . في اطار هذه الثورة يمكن ان تستكمل التجربة جميع اسباب النجاح .

النتيجة

انه اذا كان التعريب لم يؤد في نظر الاجانب الى نتائج ايجابية ، فالمسؤول عن ذلك ليس اللغة العربية . ولكن فساد النظم التي كانت سائدة ، تمكس صورة للمجتمع ، ونفا على طبقة محظوظة ، محشوة بالنظريات ، بعيدة عن مجالات التطبيق يتميز بغلبة التكوين العام او الثقافة العامة على حساب العلوم الصحيحة والتقنية .

هذا الوضع لم يتغير جنربا . وهو لسمية مشتركة بين سائر الطار العالم العربي ، ولا تشذ الجزائر عن ذلك .

ان الجزائر تحاول الان ان تقوم بثورة شاملة في جميع المجالات وسلوك سبيل الاصلاحات الجذرية بغية تطوير المجتمع اقتصاديا واجتماعيا . واننا متجهون الان الى اصلاح نظم التعليم بما يوافق اختياراتنا الاساسية . وهذا عنصر مساعد جدا .

سياسة رجعية ؟

على اننا نرى بعض المتحمسين للثورة ينكرون امكانية ان تكون العربية في الجزائر اداة للتربية . ويلهبون الى ابعد من ذلك اذ يتصورون ان العربية التي مضى عليها ربح من الزمن انكشفت فيه واصبحت لغة التعليم الديني فحسب ، وانقطعت عن تيار الحضارات والانكار الحديثة والعلوم التقنية ، لا يمكن ان تكون الا اداة لسياسة رجعية .

ومع ملاحظتنا على هؤلاء انه سواء بسواء يمكن ان تنفذ سياسة رجعية من طريق الفرنسية ، فاننا اذا سلمنا ان العربية بما اصابها من تاخر بفعل تاخر المجتمع ، نرى ان احسن وسيلة لاجبار العربية على القيام بدور سلبي ، هو ابقاؤها بعيدة عن ميدان العلوم الصحيحة . لا فرو اذا اننا اردنا ان تلعب العربية دورا ايجابيا في تطوير البلاد وتحقيق الثورة ، يجب ان نتخذها اداة للعلوم . هذه الاختيارات النظرية . -

اضيف الى ذلك شيئا اساسيا هو الدعوة الى الازدواجية . وبهذا الصدد تعدد مزايا الازدواجية في التعليم وفي الحياة .

امتقد ان الازدواجية ليست ذات معنى واحد . لهذا اللفظ يمكن ان يطلق على اشياء كثيرة تختلف من حيث الدرجة كما تختلف من حيث الطبيعة .

ونحن نرفض الازدواجية مبدليا لاسباب بديهية

هي :

1) ان الازدواجية بين العربية والفرنسية ليس لها سند سكاني .

كان الامر يختلف لو ان الاثلية الاوربية قررت البقاء في الجزائر اذن لكان المشكل فالما .

(2) نحن نفرض الازدواجية ، اذا كانت تعني اعتماد الفرنسية كوسيلة وحيدة للتفتح على الحضارة المصرية ، لاننا لا نسلم بمجز اللغة العربية عن تادية هذا الدور .

يبقى هنالك نوع من الازدواجية نسميه بالازدواجية التربوية . ويدعو اليه الكثيرون من المرين في العصر الحديث . معناها تعلم اللغات الاجنبية .

والازدواجية بهذا المعنى يمكن اعتبارها اذا كانت لغة التعليم موحدة والعربية لغة تدريس لجميع المواد في جميع المراحل ، يمكن اذ ذلك ان نفكر في تعليم اللغات الاخرى من اجل التفتح والاتصال .

والازدواجية بهذا المعنى بدا تطبيقها في بعض البلدان على سبيل التجربة وهي ما زالت في طور التجربة .

ونحن نستطيع ان نسلم جدلا بان الجزائر في استطاعتها ان تتبنى هذه التجربة في النطاق الوطني العام . وهذا يمكن ان يناقش ويستفاد منه .

التعريب من الناحية العلمية

الجميع يقر بان العملية لا يمكن ان تتم دفعة واحدة . والتدرج نفسه اذا لم يطبق بدقة قد يكون سببا في الفشل وذريعة تتخذ لفرض مبدأ التعريب نفسه .

والتدرج يصطدم بصعوبات أهمها :

صعوبة توفير الوسائل البشرية والمادية والتربوية لتعريب صف كامل (التدرج العمودي من الاسفل الى الاعلى) . وهذا التدرج العمودي منطقي ، ولكن صعب تخطيطه . فهو يضع المسؤولين امام آجال لا تقبل التأخير . وفيه ايضا اجبار التلاميذ على تغيير اداة التعليم فجأة (ابتداء من السنة الثالثة الابتدائية الآن) : هناك التدرج الافقي = أن تعرب كل سنة مجموعة من المدارس الابتدائية والثانوية تعريبا شاملا وفق سلم التعليم .

مثلا = مائة مدرسة ابتدائية

وفي نفس الوقت 10 اعداديات

وبعد سنة 5 ثانويات

وقد يمكن التوسع اكثر اذا سمحت الامكانيات . هذه الطريقة تضمن للتلاميذ ترقيا في السلك يوصلهم الى البكالوريا بدون هائق .

ويمكن ادخال اللغة الاجنبية ابتداء من السنة الرابعة او الخامسة ليتمكنوا من مواجهة تعليم الجامعة بالفرنسية ، اذا لم تكن قد تمكنا من تعريب الجامعة اذ ذلك .

خضم لوحدة التعليم :

هنالك من يرى في هذا التدرج خصما لنظام وحدة التعليم الواقع ان الامر لا يخلو من ذلك . وقد نعيش لفترة طويلة على نظامين تعليميين مختلفان قليلا . ومع ذلك فان الفرق بين النظامين يكون في العلوم الصحيحة فقط . ومن السهل ان تصور التلاميذ الذين يتابعون النظام الانتقالي الحاضر بما يحصل لهم من ملكة في اللغة العربية ، يصبحون قادرين على مواصلة تعليمهم العالي باللغة العربية .

هذا التدرج يمكن من التغلب على كثير من المشاكل ، الا انه لا يعفينا ايضا من الاحتياجات البشرية والتربوية والمادية ، ومن الآجال الواضحة .

واخيرا فان تعريب التعليم لا يمكن ان يتم بواسطة الجهاز التقليدي لوزارة التربية ولا بد من انشاء مؤسسات تسهر على حركة التعريب ، وهي في نظري :

(1) مركز وطني لتيسير اللغة العربية ونشرها . لا كجمعية ، اذ لا فائدة من ذلك بل مركز يجمع بين البحوث الاساسية في العربية ومحاولة ايجاد الحلول لمشاكل العربية ، وليست العربية بدعا بين اللغات في ذلك . وقد تكون المشاكل في العربية تختلف من حيث الدرجة ولكنها لا تختلف من حيث الطبيعة بالنسبة للغات اخرى .

اتصور المركز ملتقى الباحثين من رجال التربية واللغة والتعليم ، لايجاد احسن الحلول لتعليم اللغة العربية لا في المدرسة وحدها ، ولكن ياساليب عصرية ووظيفية للعديد من الجزائريين المنتمطين للتزود بهذه الاداة التي تمكن من الاسهام الحقيقي في تعميق جذور الثورة وجعل معركة التعريب معركة الشعب .

مدرسة الترجمة

من هذه النواة يمكن الانطلاق لاعطاء مفهوم جديد للترجمة يجعل منها لا عملا هامشيا ، ولكن أساسا لتطوير المجتمع وتنظيم العلاقة بينه وبين الشعوب .

ينبغي اذن تكليف المدرسة برسالة اخرى . لا ينبغي ان تقتنع بتكوين الترجمة للأعمال اليومية ، بل أن ننزع الى تخصيص علماء في مختلف المواد والعلوم لتكريس جهودهم لعمل الترجمة الذي هو على ما اعتقد عمل أساسي في بناء النهضة العلمية .

المؤسسة الثالثة

تنظيم واسع شعبي اعتقد من السابق لاوانه تعود جميع عناصره . ولكن اتصوره على شكل مؤسسة تجمع بين مسؤولين معينين يحتلون مراكز حساسة بالنسبة للعمل الإداري والجماعي ، يسهرون على تطبيق المخطط العام للتعريب وربط تعريب التعليم بتعريب بقية الميادين .



تأثير العربية في سنغال

الأستاذ مالك انجاي «سنغال»

«... ما ترددنا عن فتح مدرسة عربية في كل من جنه وتمبكتو وسان لوي حيث يجد طالب العلوم الدينية تعليما فرنسيا رفيعا مع دروس النحو والفقه... والفكرة الدائمة لانشاء المدارس العربية الفرنسية هي ان تصير محل تلاق وتوافق بين العقلية القرآنية وروح العصر.» (1)

وهذا اقرار واعتراف بأنه وجدت وقتلها عقلية قرآنية تستحق ان تنكف السياسة لجاراتها والسلوك معها مسلكا خاصا ، ومعنى وجود عقلية قرآنية كهذه هو وجود ثقافة عربية دينية راسخة يعتبرها الاحتلال الجديد منافسا لا يمكن الاغضاء عنه واخذ التدابير الحيلية للانتصار عليه .

ورغم افراءات الحكومة وضغطها على الناس لارسال ابنائهم الى المدارس الفرنسية فلم تستطع ان تحمل الناس على الامراض من الكتابيب ، ويشهد التقرير الرسمي لعام 1912 على ان 633 تلميذا فقط هم الذين كانوا يتابعون ، مع استمرارهم على دروسهم القرآنية في الكتابيب ، دروس المدارس الفرنسية ، وهذا من بين 11.451 تلميذا الموزعين في كتابيب سنغال البالغ عددها في العام المذكور 1385 كتبا .

احتلت فرنسا سنغال والعربية هي اللغة الحية الوحيدة المستعملة فيه ، ووسيلة التفاهم بين الملوك في مناطقه المختلفة اللغات . كان الملوك يستعملون المستعربين للكتابة والترجمة ، واتخذوا منهم القضاة والمستشارين في الشؤون الدينية ، فكانت العربية لغة تدوين الوثائق من معاهدات وعقود ورسائل ، واتخذت فرنسا نفسها العربية واستعملتها في التفاهم في الاعلانات والمناشير التي تهم الخاص والعام من الاهالي . وكان الملوك والمشايخ يرسلون السلطات الفرنسية بالعربية . وفي كتاب «دراسات اسلامية عن سنغال» يقول الافريقياني الفرنسي «بول مارني» ان جميع المشايخ كانوا يرسلون السلطات الادارية بالعربية ما عدا الشيخ «بوكنت» زعيم الفرقة القادرية الكنتية ، وصكت النقود حاملة الكتابة العربية مع الكتابة الفرنسية ، وصدرت الجريدة الرسمية الاولى للحكومة الفرنسية في سنغال مكتوبة فيها الاخبار المهمة للاهالي بالعربية والفرنسية . وفتحت في سان لوي عاصمة سنغال الاولى مدرسة فرنسية عربية لافراء الناس على تعلم الفرنسية مع العربية . قال الافريقياني الفرنسي «روبير ارنو» Robert Arnaud في كتابه (الاسلام وسياسة فرنسا الاسلامية في غرب افريقيا) :

(1)

وفي مجموعة الجريدة الرسمية لعامي 1878 - 1879 م الموجودة في مكتبة الاتحاد الثقافي الاسلامي، والتي نقلنا منها النصوص الآتية في آخر هذا الفصل ، توجد الاخبار الهامة لدى الاهالي مكتوبة بالعربية والفرنسية. والورق المصكوك في دكار بتاريخ 13 اكتوبر 1924 تحمل الكتابة العربية في احدى جهتيها مع الفرنسية في الجهة المقابلة .

دور الطرق الصوفية في التعريب :

ومن اهم الدوافع للتعريب في هذا القرن والقرون السابقة من غير شك الطرق الصوفية واهمها في سنغال ثلاث : القادرية والتجانية والمريدية او القادرية المريدية بتعبير ادق . ويظهر تأثير هذه الطرق في مجالين هامين هما مجال اعلام الاناس والاماكن والمنظمات والعوائد ومجال التعليم ، والمجال الثاني تتكفل ببيانه الفصول المعقودة للمدارس العربية الكبرى في سنغال كمدرسة التجانية في تراوون ومدرسة المريدية في جربل

اما المجال الاول فان تعلق القوم بالشخصيات الصوفية البارزة في هذه الطرق مثل الشيخ سمد ابيه والحاج مالك والشيخ الخديم احمد بمب كان سببا للتبرك بهم والتقرب اليهم بتسمية الابناء باسمائهم واسماء من تفرغ منهم . ولكن هؤلاء متعلقين بدورهم بالوجهاء المشهورين في التاريخ الاسلامي من النبي صلى الله عليه وسلم والصحابه والتابعين وكبار المتصوفة فانهم لا يترددون في اطلاق اسماء هؤلاء على ابنائهم وعلى ابناء من يخيرهم اسماء لواليدهم من المريدين وعلى من اهدوا الى الاسلام بواسطتهم بدلا من اسمائهم العائلية ، فمن هنا تنسخ الابوة الروحية محل الابوة النسبية برضى ووافق بين الطرفين . فما يلبث الولفي المهتدى الى الاسلام باسم « جبل » ان يتسمى باسم «محمد الامين» والسرايري المهتدى باسم « لئسر » ان يحمل اسم « ابراهيم » والفلاقي المهتدى باسم « جول » ان يحمل اسم «علي» وهكذا . ولو اراد الانسان ان يكتب عناوين الدين سموا الحاج مالك والخليفة ابا بكر سه والحاج منصور سه من الطائفة التجانية التواونية او عناوين الذين سموا احمد بمب ومصطفى البكي وبشير البكي من الطائفة القادرية المريدية للزمه للقيام بهذا

المعمل اضبارة من الاوراق . هذا ولم يمض على ميلاد اكبر هؤلاء سنا الا 115 سنة . فاذا عرفنا ان هذا التعريب يستمر بنفس الحماسة في القادرية واللاهية . ادركنا اي سرعة يسير هذا التعريب الجماهيري في اعلام الاشخاص ويتقدم نحو الشمول.

لا يسعنا وقد تكلمنا في دور الطرق الصوفية عموما في تعريب اعلام الاشخاص الا ان نتكلم من دور المريدية والتجانية التواونية كل منهما في فرع خاص من فروع المجال الاول من التعريب يرت فيها غيرها من ضرائها . لقد فاقت المريدية في تعريب اسماء البقاع وسبقت التجانية التواونية في تعريب اسماء المنظمات الداخلية المسماة بـ « الدوائر » الموجودة في جميع الطرق السنغالية والتي ابتدعها مجازاة للمريدية في دساكرها الفلاحية .

ففي اقاليم بول وجلف وجنوب كجور يتجلى دور المريدية في تعريب البقاع حيث قام الشيوخ المريدون بحماسة فائقة بتأسيس الدساكر والقرى والمدن حتى طبعوا المناطق المذكورة بطابع متميز من طابع غيرها من المناطق السنغالية من حيث تعريب كثير من اعلام قراها ودساكرها . فنشروا على ارضها هذه الاسماء اللطيفة في السمع مثل : طوبى - دار السلام - دار المسطي - دار الفسفور - دار المنن - دار المنان - دار النسيم - دار العليم - دار الرحمن دار الرحمة - دار القدوس - الشام - مدينة - طائف - عالية - طوبى فال - طوبى كن ، وسموا سوق طوبى مهد المريدية هناك .

ونشاط المريدية في تعريب اعلام الامكنة يسهاه نشاط التجانية في تعريب اعلام المنظمات الداخلية « الدوائر » . ومنذ نشأة هذه الجماعات اختارت القيادة التجانية التواونية تعريب اسمائها فاطلقت على اول جماعة تكونت منها اسم « دائرة الكرام » ثم تباينت الحلقات في هذه السلسلة : دائرة المهتدين - دائرة المنة - دائرة المقتفين - دائرة المتقين - دائرة الوفاء - دائرة المهاجرين والانصار - دائرة المقتدين - دائرة المحسنين - دائرة الابرار - دائرة الخليفة الاكبر - دائرة الخير والبر - دائرة المومنين . الى غير ذلك من الاسماء الرنانة التي اطلقت على مئات الجماعات .

المذكور مكملة بمشربين اسما من الوزراء وكبار المسؤولين في الحكومة . والمجموعة الثالثة مؤلفة من عشرة قوائم مائوية مصدرها الجريدة المذكورة في عددها الصادر يوم 2 - 8 - 1968 . وهي أكبر المجموعات الاربع واصدقها تمثيلا للواقع لانها تمثل قائمة اسما الناجحين في امتحانات الدخول في السنة السادسة من التعليم الثانوي واصحاب اسما هذه القائمة متقاربون في السن لا يجاوز اكبرهم سنا ثلاث عشرة سنة ولا يقل عمر اصغرهم عن احدى عشرة سنة . ويزيد في قيمة هذه المجموعة تمثيلها لجميع اقاليم السنغال السبعة لان الامتحان المذكور يجري في جميع انحاء سنغال وتظهر نتائجه جملة مترتبة الاسماء فيها بترتيب أبجدي ومن هنا انتفت الاقليمية عن نتائج المجموعة .

تأثير العربية في اللغات المحلية

اثرت العربية في لغات سنغال المحلية ولاسيما الولفية والفلاية فقد استعملت كل من الجماعتين الحروف العربية في الكتابة بلفتها ، وذلك منذ زمان قديم مجهول يرسلون ويدونون بها خواطرهم ، اما الولفية فيوجد بينها وبين العربية شبه كبير من خصائص البناء ليس هذا الكتاب مجالا للتفصيل فيها مثل كون اكثر الانعام الماضية مركبة من ثلاثة حروف ، وتقديم ملامة الفارع على اصل الفعل والتلفظ بلامة الجمع . وتأخير الضمائر المتصلة بالماضي عنه الى غير ذلك .

ونظم الشعراء المستعربون الالف والتكلم القصائد ملتزمين فيها قوانين العروض العربية من التفعيلات والقوافي والبحور واستحدث الشعراء المستعربون الالف فنا شعريا سموه البديع وهو قصائد منها «المصدور» يتألف البيت منها من صدر ولقي وعجز عربي . ومنها المعجوز صدره عربي وعجزه ولقي . ومنها المحشو يحشي القسم الالفسي بين جزئين عربيين ومنها غير ذلك . وسنلحق بهذا البحث نماذج من هذا الفن لبعض الشعراء الالفيين .

طبق المستعربون الفلايون والالفيون قواعد العروض ونظموا قصائد ذات افراض مختلفة كالقصة والوعظ والمدح والهجاء والثناء . ولا ينافي ذلك ان يستنكف الكثيرون من كبار المستعربين عن نظم الشعر

وهذا التعريب الذي يتولى كبره قادة الطرق الصوفية في الاسماء التي يختارونها للقرى والاشخاص والجماعات ادخل في الشعب حماسة مماثلة لعرب الكثيرين منهم اسما القرى التي اسسوها ويتجلى هذا في الاحياء الشعبية في المدن السنغالية الاساسية حيث اتخذت للكثيرة منها اسما مثل : فاس - نساط - طوبى - مدينة - دار السلام - مزدلفة الخ ..

خذ خريطة مفصلة للقرى والمدن السنغالية واجل بصرك في اقاليمها المختلفة من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب او تناول سجل العمال لاحدى المؤسسات الصناعية او سجل الاهضاء المنخرطين في احدى الجمعيات ، او اسما الجنود في احدى الشكات العسكرية او اسما التلاميذ في احدى المدارس فسيكون اول ما يلفت انتباهك ذلك العدد الكثير من اسما القرى والساكن والاشخاص العربية .

تمت انا شخصيا لاختبار سرمة التعريب في اسما الاشخاص فاعجبني السرعة التي يتم ويسير بها هذا التعريب ، فبينما كانت النسبة المئوية تتردد بين 44 ٪ و 48 ٪ في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن اعتمادا على القائمين المؤيدين المعدين عن قوائم اسما كثيرة من الجريدة الرسمية لعامي 1878م و 1879م اوتفع خلال الستين سنة الماضية الى 69 ٪ و 77 ٪ في عام 1966م

اما الطريقة التي سلكتها في هذا التحقيق فهي اننا اعددنا ست عشرة قائمة تتألف كل قائمة من مائة اسم . وقد مر في السطور السابقة نتيجة القائمتين الاوليين . وبتنا في الجدول الملحق بهذا الفصل ثلاث مجموعات من القوائم تتألف المجموعة الاولى منها من ثلاثة قوائم مصدرها جريدة « دكار متان » اليومية « Dakar Matin » في عدديها الصادرين يومي الجمعة 22 - 7 - 1960 ويوم السبت 23 - 7 - 1960 . وهي قوائم اسما النواب المرشحين للانتخاب لحرزبين المتنافسين في الحكم في السنة المذكورة . والمجموعة الثانية مصدرها الجريدة المذكورة في عددها الصادر يوم الخميس 18 - 1 - 1968 وهي قائمة اسما النواب المرشحين للانتخابات التشريعية للعام

بالاعجمية ، ولعل ذلك ناتج عما يسود هذا المجال من اللغو المناني للورع والمقاصد الصوفية .

يجد الباحث في العلاقات بين الالفية والعربية ظاهرتين لا محيص من ملاحظتهما والاقترار بهما والاعتراف بهما وهما ظاهرة تأثير العربية في الالفية من حيث الحفظ وابقاء الكثير من مفرداتها وظاهرة تأثيرها فيها باندساس الكثير من مفرداتها اليها .

ففي الظاهرة الاولى نلاحظ ان الكثير من المفردات الالفية المهجورة في المخاطبات ومن ذواكر الاغلبية العظمى من الشعب - غير المستعربين - بقيت محفوظة في صدور المستعربين من الفقهاء واللغويين الالف ، وذلك بفضل المنهج الذي كانوا يسلكونه في الدرس بتفسير كل كلمة عربية على افراد بالكلمة الالفية المرادفة لها . وبمرور قرون عدة على تدريس كتب الفقه والاصول والحديث والالفية مثل مختصر خليل في الفقه والورقات ومقامات الحريري ودواوين الشعر الجاهلي وغيرها . ولا شك انه انما تطور لغة الحديث بقيت الالفية الشبيهة بالكتوبة متحجرة يتناقها المستعربون كابراً من كابر وحفظت الكثير من المفردات المدرسة من الدواكر . وفي العصر الحاضر لا يمكن لاحد تأليف معجم ولفي كامل لسوي دونما اعتماد واستعانة بهؤلاء المممين المدرسين في الحلقات المحظوظين بالدراسة على المنهج القديم المستحفظين في ذواكرهم جميع الكلمات الالفية المرادفة لما في مقامات الحريري ومختصر خليل وغيرهما من كتب الفقه والادب . وكفى للاستنابات من هذا الراي ان يستمع اكبر خبراء الالفية غير المستعربين الى عدة دروس لدى احد المممين .

اما الجهة الثانية من تأثير العربية في الالفية وهي اندساس كثير من مفردات العربية الى الالفية

نتجلى في تسرب الكلمات العربية العديدة الى الالفية خلال الاحتكاك الطويل بين اللغتين . والكلمات التي اتحمت على الالفية عربيتها ما اتيح لها ذلك النصر الا بالصبر على الجروح الفائرة التي اصابتها انشاء المعركة وهي متمثلة في التحريف المبني والمعنوي واصابها من اللحن والتحريف ما يصيب كلمات كل لغة عندما تفزو غيرها وتتسرب اليها .

والحق ان التحريف المبني للكلمات العربية المولفة اكثر شيوعا من التحريف المعنوي وهذا لا يعني ان كلمة من اطهر الكلمات العربية « صادقين » جمع صادق اقبلت ان تفتح دالها وان تكون لها معنى « فاسق » جزاء لدخولها الالفية .

يجرنا الكلام على تأثير العربية في الالفية الى ذكر ما يطرأ على الكلمة العربية من التحريف حينما تدخل في الالفية والى شرح ابرز قواعد التحريف . ان الكلمة العربية قد تفقد بعض حروفها بالحذف ويتشوه البعض الآخر بالتحريف .

العربية بتضمنها اثني عشرة حرفا غير موجودة بالالفية ، اصلا ، تعرض لتحريف لا محيد منه ، وهذا زيادة على ضروب التعبير التي تترك اثرها في الكلمة العربية . وهذه الحروف هي : ث ح ذ ز ش ص ض ط ظ ع غ هـ . اما اشهر دواعي التحريف المبني فهو :

1 - الترخيم : هو ضرب من التحريف ياتي به الالف لظهور التحنن على المعبر منه وهو مستعمل في العربية ايضا ولكن بصورة تختلف عن الصور الالفية في الترخيم ، وقد يكون بحذف اول الكلمة او حذف آخرها ، وهكذا يقولون في :

زئب	نب	سي	جارية	جار	فاطمة	فات
خديجة	جة	خد	محمود	مود	رقية	رق
نفية	نف	»	مبد	اب	حليمة	المه
صفية	سف	»	ابراهيم	اب، ابر	آدم	آد
فرمة	فر	»	هرون	ار	رحمة	رم

4 - يلقبون الشاء ، والذال والزي والشين والصاد والفاء سيناً لأنها غير موجودة في لغتهم : زينب (سينب) صالح (سالو) .

5 - يلقبون الصاد لاما والطاء تاء .

قال الدكتور عبد الواحد وافي في كتابه « علم اللغة » ص 231 ط : 4 : « والمفردات التي تقتبسها لغة ما من غيرها من اللغات يتصل معظمها بأمور قد اختص أهل هذه اللغات أو بزوا أو امتازوا بانساجها أو اكثروا استخدامها » وفيما يلي قائمة من الكلمات العربية المولفة التي يبين تأثير العربية في الولىة خصوصا من الناحية الدينية .

ولعلنا لاحظنا ان العلم « زينب » اصبح شبه مجهول الاصل بعد حذف الحرفية الاخيرين وتبديل الزاي في اوله سيناً فلم يبق فيه من اصله العربي الا الياء ومثل هذا يقال في « هرون » وغيره .

2 - ويتحرف العلم بزيادة حرف مد في آخره عند النداء وعدم مراعاة قاعدة الوقف العربية : مود (محمود) مودو ! . سال (صالح) سالو ! . آد (آدم) آدا . .

3 - تغلب العين والهاء والحاء همزة في اول الكلمة وتحذف غالبا في وسط الكلمة : حبيب (ابيب) حليلة (الة) عبد الله (ابلاي) هادي (آد) هائشة (ابسة) هرون (آرون) محمد (مد) معاذ (ماس) مهدي (مدي) .

الكلمات العربية المولفة :	الزواية (مكان تجمع الصوفية للذكر)
اجل (نسم)	حساء
آدم	الخاتم
ابيس	الخبر
الانين	الخطبة
الاحد	الخليفة
الآخرة	الخميس
الاربعماء	الدائرة
اسرائيل	الدابة
الاول (الكاس الاولى من الشاي خاصة)	الدار
البيت (الجزء من القصيدة)	الدبران
البدعة	دجنبر
البرادة	الدرامة
البرزخ (مقر الارواح بعد الموت وقبل البعث)	الدرجة
البركة	الدرهم
البطاقة	الدينيا
البلاء	الدواة
البيمة	الديبة
التخمة	الدين
التربية (بالمعنى الصوفي)	الذكر
الترجمان	ذو الوجهين
التبيح	الراية
التفسير	الربا
التهمة	الركمة
	الركوع
	الروح
	الروضة
	الزواية
	الزيارة
	الزكاة
	السامة
	السبب
	السبب
	سبوح
	الشر
	السجادة
	السجود
	السر
	السطر
	السطل
	السكر
	السلام
	السلام عليكم
	السماء
	السنة
	السورة
	الشرح
	الشرط
	الشريف
	الشفل
	الشيطان
	الصابون
	الصبح
	الصدقة

ما قالت اذ كنت املودا كلمتها
 بهيم ليل سوادا فعادة نممه
 لكن للشيب في فودي وجمجمتي
 وخطا وخطا فعذراء النسا نيمه

— * —

الا ارمواء لمن ولت شبيته
 واذنت بمشيب معلم هرمه
 بل كل ضيف كريم القوم حوله
 قرى عليه وهذا شيبه كتمه
 فاقره - ان ترى ما عشت شادي من
 هو الشفيح وكل قائل تلبه
 من ذاته كل ذات لازمت هرفسا
 في عشر شعرتها لو تفتدى سقمه
 من كل جرم له قدر يعمره
 عند الفراغ فداه والفداد يمه
 من دونه كل منطوق بحرف هجا
 في الاسم الا الهاجيره سكمه

من تحتته كل موجود له جهة
 من أي ست وربى أنني نرمة
 محمد سيد السادات لا احد
 منهم مدائيه او قائل كتمه
 صلى عليه اله المرش ما رجيت
 شفاعة منه او قول له ولمه
 يا من شفاعة يرجسو وياملها
 اهل الكياو امثالي فدا نتمه
 فان جاهك عند الله منجمل
 هو العظيم ففى الاحوال فتكمه
 احوال دنياي او احوال آخري
 او برزخ ثم من ذكراك ديلتمه
 لا زلت انيبك واسمع ما اردده
 يا خير من يترجيه مريج ويمه
 وقال الشيخ ماجورسيه متحديا للقاضي
 مجنحت كل ومنوها بشأن الشيخ احمد بيب :

الصراط	القلم	ما.رضيت عليه	الناقاة
الضر	التغطسان	مارس	النصراني
الضميف	القوال	المحراب	النفس
الطالب	القياس	المداراة	الهدية
الطبل	القيمة	المربط	الهلاك
الطريقة	لقمة	المسبح	الورقة
الطيرة	الكافد	المسبح الدجال	الوقت
مزرائيل	الكافور	المسك	الوكيل
المادة	الكاس	المكين	الوظيفة
المورة	الكامل	المصاحة	الورد
المعيب	الكمال	المصيبة	الوفاة
النفوس	الكرامة	المعنى	الولي
الفتنة	كش !	المقامة	يرحمك الله
الفجر	الكفر	المكان	يهديك الله
القاضي	الكلام	المحفنة	يوم القيامة
القبر	الكوب	الملاك	الزمن
القبة	لا بد	المهدي	المرش
ندوس	الله	النبر	اليهود
القعيدة	الروح	الميراث	القعبة
القطب	الماموم	ميكايل	الشر
القرنفل	الشمال	المنافق	الفوقية
		لنافلة	الآية

لم انهمت بعد شيب هبرة وبمه
 اراقها كلمتا سمدى بيه وبمه ؟
 اذ كلمتني بتبين الكلمتين بلا
 هول ومزج بدا لي انها بيمه
 وان جبل وصال صار منصرما
 او واهنا خلقا تجديده نتمه
 مالي ارايتي ان لامت هانية
 عصر الشباب تقبل او تقل بيمه
 واليوم ان لامت خودا يدي لمبا
 تاففت ثم نادت : « يا ابي سرمه ا »
 وكل ناهدة الشديين تلحظني
 بيمين سخط فتعلي صوتها فومه
 وان لهوت تلمت او دنوت نات
 وان اسل فجاب مندها خممه
 كل كامب واعدتني زورة مشقا
 زمان شرخي ولما جنتها نغمه

نفى وحوش الفلا عن أرضه « بجندو
جنتى ج سو نم س » لاسيدا ولا ضما

— * —

لكن هنالك شبل رابض « بجكى
ج خمن » أن سي جيد الصيد والنقما

لولا حياء وتقوى ربه « اكنم
د دول يم » شب بسرا عالما ورعا

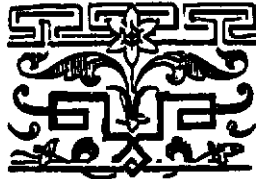
وحرمة الشيخ « اكنم مولك مك ث بدون
ك ملن من » رد ماء حيشما نبعما

أبدى الكجوري فنا فى البديع « كمن
ندف » بديعما كما أبدى وما بدمما

أن الحقيقة بحر غاص فيه « تفسر
درمو » عند التقاط الفانس الودما

أجاد مدح النبي الهاشمي « توح
سخلا ميمم » وأجاد المدح والقدمما

فالبيت ليث عريض الساعدين « كجس
جغم » تيقن أن قد طال ما صرعا



نظرة في الصّلات العربيّة الفارسيّة حتى مطلع الإسلام

الدكتور محمد التونجي

(2)

يلام نطقها العربي ، فابدل الحرف بحرف يدنو من مخرجه ، ان لم يكن هذا الحرف نفسه ، لان نطقه في الفارسية لا يوازن نطقه في العربية ، فحور في الشكل ، ولام في المخرج .

وقد جرى هذا ، اما بابدال حرف مكان آخر ، واما بزيادة حرف او حرفين ، واما بتغيير البناء كله ليصير من ابنية العرب ويتمكن من الاشتقاق منه . وقد ينقص حرفا او يبدل في الحركات ، او يسكن ، او يحرك الساكن . وقد يتركه على حاله دون تغيير ان لم يحوجه الامر الى ذلك .

والجدير بالملاحظة ان العربي اخذ اسماء ولم يأخذ افعالا او حروفا ، وحينما احتاج الى افعالها اشتق ما حلا له وما شاء . فمن (الجم) قال : اجمت الفرس . ومن (مهر) : مهر الكتاب . ومن (ديوان) : دون الحساب . ويمكن حصر هذه الاسماء ، فهي اما اسماء نبات او حيوان او معادن او آلات او ماكولات او مشروبات او عادات مما لم يكن يعدها العربي من قبل .

فكلمة (طبرزين) التي هي في الفارسية (تبرزين) اسم لسلاح ، كان يحملها الفارس الفارسي معه . وقد تكلمت به العرب . قال جرير

وكان من نتيجة اتجاه الحكم وجهة الشرق ان تائر العرب باساليب حكم الفرس ، وبمظاهر حياة جديدة افوتهم جدتها وجذبهم لماتها ، مما اضطر بعض خلفاء بني العباس خاصة الى التعرف على تاريخ الفرس والاطلاع على اخبار ملوكهم ومواظف حكماهم كجزء هام من ثقافة الخليفة او الامير . ولا زلنا نذكر ان المأمون حكم في بلاد فارس ودحا من الزمان ، واستعان بالفرس على اخيه الامين في بغداد .

ولقد تطورت نظم الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة ، وشاع الترف واللهو والطرب ، وتعددت الازياء والفرش والاثاث والانية . وكان كثير من هذا غير معروف للعرب ، فسموها باسمائها الفارسية او اليونانية او الهندية .

ونحن اذا تصفحنا المعجمات العربية - وليس ذلك بعسير - وجدنا عددا وافرا من المفردات كتب المؤلف عنها انها اعجمية او معربة او ان اصلها فارسي . كذلك اذا نظرنا الى القواميس الفارسية وجدنا اكثر من ثلث الفاظهم - ولم افال في ذلك - عربية ومستخدمة في لغتهم الى اليوم .

ولم يتوان العربي عن اخذ اية مفردة احتاج اليها من جارتها ، وقد تجرأ على تغيير شكلها بحرية بشكل

في رجل من بني كليب ، يقال له (مجيّب) ، اتهم بقرفة ، فلم يلحقوا عليه شيئا فخلوا منه :

كان مجيد الخبث تلقى يمينه

طبرزين قين مقضبا للمفاصل

تداركه عضو المهاجر بعدما

دعا دعوة يا لهفه عند نائل

وكانوا يبدلون الحرف (ب) بثلاث نقط باء احيانا ، و احيانا اخرى فاء ، لان نطقه واقع بين الباء والفاء ، والثلاثة من الحروف الشفوية . فقالوا لـ (برند) فرند وافرند وبرند وهو السيف او جوهره . وكذلك قالوا لـ (بئكان) فنجان . ومثلها : الاصفهانى والاصبهانى وكلاهما واحد . وكذلك قلبوا الشين سينا . فقالوا للصحراء (دست) وفارسيته (دشت) قال الاعشى :

قد علمت فارس وحمير وال

اعراب بالدست ايكم نزلا

وحولوا كلمتي (بنفشه و لشكر) الى بنفش وعسكر . اما حرف (الكاف الفارسي) فقد اكثر من تبدله وتحويله . فبعض الكلمات الفارسية قلبت كافها الفارسية الى كاف عربية مثل : (كردن : عنق) فقالوا لها: كردان . وقالوا لـ (الكنج) كنزا . وهنا حصل ابدالان ، فالتفاف مكان الكاف والزاي مكان الجيم . وقد تبدل الكاف الفارسية فينا كما في غربال التي اصلها (كربال) . اما تحول الكاف العربية والكاف الفارسية الى جيم وقاف ، فقد كان كثيرا مثال : لكام - لجام . كزبه - قزبق ، ويعربها بعضهم (كزبج وكزبق) ، وهي بمعنى دكان البقال قديما ، لاننا سنرى بعد اسطر انهم كانوا يبدلون الهاء جيما او قافا اذا كانت في اآخر الكلمة .

اما الكلمات الفارسية التي تنتهي بهاء السكت فانهم بدلوها جيما ، فكلمة (بالوده) عربت الى (فالودج) ، وهي حلوى من الطحين والنشاء والشراب ، والموام عندنا يلفظونها (بالوظا) لفظا تركيا . و(برده) عربوها الى (بردج) وهي السبي من الجوارى او الغلمان . قال المعجاج :

كما رايت فى الملاء البردجا

وقالوا للقصر (جوسق) واصلها (جوسه) وقد تحولت فى العامية الى (كشك) . وقد يبدلونها قافا كما فى (باشه) وهو صقر الصيد ، قالوا له (باشق) .

واذا اتى قبل الهاء حرف الدال فانهم يبدلونها بالدال فالجيم مثل : ساده ونموده ، قالوا : ساذج ونموذج . وبدلوا التاء طاء ، فقالوا لـ (تازه) طازج .

وقد يزيدون على الكلمة حرفا او ينقصون منها حرفا ، فقالوا لـ (كليد) التي هي بمعنى المفتاح (مقلید) او (اقلید) . قال الراجز :

لم يؤذها الديك بصوت تفريده ولم تعالج غلطا باقلید

ونلاحظ انه لم يجتمع فى كلمة عربية الجيم والقاف الا بحاجز ، ولا الصاد والجيم . وليس فى ابنية العرب اسم فيه نون بعدها راء مثل : نرجس . ولا زاي بعد دال مثل : اندازه ، ثم ابدلوا الزاي سينا فصارت هندسة . كما انه ليس فى العربية كلمة مبنية من باء وسين وتاء ، واذا وجدنا كلمة رباعية او خماسية وليس فيها حرف او حرفان من حروف الزلاقة ، وهي ثلاثة من طرف اللسان : الراء والتون واللام ، وثلاثة من الشفة وهي : الفاء والباء والميم ، فالكلمة ليست عربية مثل : صهريج وشبارق وهو فلذات اللحم التي تقطع للطبخ .

كما كان يتم التاثر عن طريق الجوارى او الاميرات الفارسيات اللواتي انتقلن الى البيت العربي فكان لا بد لهن من ان تؤثر لفتن وعاداتهن فى ازواجهن واولادهن ، وكم عشق الشعراء هؤلاء الجوارى وكم نظموا فيهن . فلقد اهدى الوليد بن يزيد ابن ميادة الشامر جاربة طبرستانية رائحة الجمال ، كان تقصها الوحيد فى نظره انها لا تحسن العربية ، فقال فيها :

باهلى ما الدك عند نفسى

لو انك بالكلام تعريينا !

ويتبدى هذا التاثر بواسطة الاسر الفارسية التي هاجرت من ايران الى البلاد العربية ، كما حصل لوالد المهلب الذي هجر بلاده ، وسافر الى عمان ، فطلق ديانته الزردشتية ، واسلم وجعل اسمه ابا سفرة . والعرب اذا كانوا يأخذون اللفظة للحاجة ، فقد اخذوها للتفكه ، كقول ابي المهدي :

يقولون لي شنبد ، ولست مشنبدا

طوال الليالى او يزول بغير

ولا قائلنا زودا ليمجل صاحبي

وبستان فى صدرى على كبير

وشنبذ : من الكلمة الفارسية شنبه أي يوم السبت . وزودا من زود معناها هجل . وبستان : خذ . أو يأخذونها للتفاح بمعرفتهم الفارسية ، كما نجد الأمثال الكثيرة على ذلك في كتابي : تيمية الدهر ودمية القصر .

وعلى هذا فقد تأثر العرب بالفرس لغويا كما تأثروا بالامم المجاورة ، على أن تأثرهم بالفرس أكثر وأوسع نطاقا . وقد جرت هذه الألفاظ إلى العربية في أزمان متفاوتة . فلم تزحمهم كثرتها ولم يعقبهم نطقها . ومن الحق أن نقول أن للفارسية فضل وأب الحاجة الحضارية وسد النقص اللغوي الذي تطلبه العصر الجديد بعد الفتح ، فدخلت في قرآننا ، وشعرنا ، ونثرنا ، وأمثالنا .

وإذا كنا تأثرنا بهم حكما وسياسة وثابعية ودينا ولغة قبل الإسلام ، فإننا أثرتنا باستقلالهم واديانهم وعاداتهم ولغاتهم بعد الإسلام ، ولما ضاع استقلالهم ، واندمجوا في دولة الإسلام التي قادها العرب ، ولما ضاعت أديانهم وذابوا في الديانة الإسلامية ، انغمسوا في اللغة العربية وعاداتها وعاداتها .

وكنا ذكرنا في مقالنا السابق أن الأثر العربي الأول في الفارسية كان في تغيير الخط البهلوي الصعب بالخط العربي السهل .

على أننا لا نلبث نراهم يقتبسوا الألفاظ الدينية لتتبعها الألفاظ العلمية ثم الألفاظ الأدبية . ورغم أن اللغة العربية هيمنت على الأرض الفارسية ، ورغم أن القرون الثلاثة الأولى كانت العربية لغة العلم فيها ، فإن العربية لم تستطع أن تمحو الفارسية تماما . فقد ظلت متداولة بين الناس على الأقل ، وبين الشعراء لحاجتهم إلى القوافي ، ولا يمكنهم استخدام الألفاظ الفارسية في القافية دائما لأن الفاظهم غير كافية لذلك . ويكفي أن ينظر المرء في ديوان فارسي ليجد أن ثمانية بالمائة تقريبا من الفاظ القوافي عربية .

ولقد بدأ الفرس في مقاومة العربية منذ القرن الرابع ، فقد لاحظهم أن تكون العربية رائجة كل هذا الرواج في بلادهم ، وأن يكون العرب حكاما لهم ، وأول هذه المقاومات كان استقلال الدويلات الفارسية في مناطقها ، وتشجيع الشعراء الفرس على نظم القصائد الحماسية والوطنية . فقام شعراء ينظمون الشاهنامات ، ويتعمدون الإقلال من ذكر الألفاظ

العربية . وقام أدباء يحضون على الكتابة الفارسية - غير أن هاتين الطيقتين لم تستطعا الحد من التأثر اللغوي للحاجة الماسة إلى كل ما دخل من الفاظ ، حتى أنهم أنفسهم استخدموا الألفاظ العربية في موضوعاتهم الحماسية والوطنية هذه .

وكما دخلت القرامان الكريم الفاظ فارسية فقد دخل الحياة العربية كثير من الفاظ دالة على الزينة والتشرف مما لم يكونوا راوها ، كما راوا من تنظيم الحكومة وتدوين الدواوين ما لم يخطر لهم على بال . فاضطروا أن يقتبسوا من الاسم المفتوحة الفاظا يدخلونها في لغتهم ، وكانت اللغة الفارسية أقرب نبع يستقون منه ما يحتاجون .

- فمن أسماء الأزهار الفارسية : النرجس . البنفسج . النسرين . الخيري . السوسن . الجنار . الأرجوان .

- ومن الطيب : المسك . العنبر . الكافور . الصندل . القرنفل .

- ومن الأطعمة : السميد . الكمك . السكاج . الدجاج . الكبة . الخريز وهو البطيخ . الفستق .

ومن الحلوى : الفالودج (وعربت إلى البالوظة) . الجوزنج . اللوزنج . الزرده . الجلاب .

- ومن التوابل : الفلفل . الزنجبيل . القرفة . الكراوية (وهي الأكلة المعروفة في دمشق خاصة) .

- ومن المفردات الحضارية: مهندس . روزنامه . نرد . برسيس (برجيس) . طربوش . بابوج . كوز ابريق . طست . خوان . طبق ، كاسة (عربت إلى فصحة) . خز . ديباج . سندس . لجام . غربال . كردان . ساذج . طازج . نموذج . برنامج . سمسار دهقان . صولجان . فنجان . نيزك . زنديق . بازار .

- ومن مفردات الدواوين : مهر . ديوان .

- ومن الأسلحة والحرب : سبيد وهو كالامير والقائد عند العرب . درفش (علم) . طبرزين . جند . مسكر . لجام . صولجان .

- ومن الحيوانات : شاهين . باشق . جاموس جؤذر (كاونر) . ذنب .

ولقد عمد العربي إلى ما خفف على اللسان ، واستعذبت الأذن جرسه ، وأن كان عنده اسم لها ، فاستعمار : مسك . توت . رصاص . ميزاب .

مكان : مشوم . فرصاد . صرفان . مشب .

- كما اخذوا بعض التراكيب منها :

- جلاب (ماء الورد) . ميزاب (سيل ماء) .
سرداب (الماء البارد) سراب (رأس الماء) . زركشة
(التطريز بالذهب) .

- كما استعملنا في عاميتنا عددا كبيرا من
الالفاظ كانت الخلافة العثمانية سببا هاما في نقل
بعضها لان اللغة الرسمية في بلاط استانبول كانت
اللغة الفارسية :

كبة . كفتة . نازيك . سيخ . كباب . كفكير .
بشكير . خولية . عرموط . جادة . جاكوج .
بوقالة . ثمنا . بقلوة . ارمغان . برشت . كشتبان .
بابوج . طربوش .

ولقد استخدم الادياب العرب الكلمات الفارسية
في تراكيبهم . من ذلك قول الجاحظ في البخلاء :
« ويسكروا الدرياجة على صغار السمك » .
والدرياجة هي البحيرة ، و (سكر) كلمة سريانية .
وكان الاخفش يقول لتلاميذه : لا تقولوا عندي كلمة
هم وبس . وهكذا لا تقولوا لفلان بخت . وفي حديث
مجاهد : يغدو الشيطان بغيروانه الى السوق .
وقيروان معربة عن كاروان معناها القافلة .

اما المفردات العربية التي استخدمها الفرس في
لغتهم ، فقد كانت في كل باب . اذ انهم اخذوا :

- مفردات دينية : زكاة . حج . مسلم .
مؤمن . كافر . منافق . فاسق . حنث . خبيث .
قرءان . اقامة . تيمم . متعة . طلاق . زواج . قبلة
محراب . منارة . ابيس - زقوم . سلبيل .
حلال . حرام . بركة .

- ومفردات في الادارة والسياسة : خليفة .
ملك . امير . وزير . حاجب . قاض . غلط . خطأ .
عارية . نصح . فضيحة . جلاد . سياف . مستخدم

- ومفردات الدواوين : كتاب . حبر . قلم .
مداد . خط . درس . فصل . باب . الاعداد حتى
العشرة .

- ومفردات الالبسة : جبة . ازار . لحاف .
مخدة . طراز . رداء .

- ومن اسماء الاطيار : فاخنة . قمري .
بلبل . لقلق . غراب .

- ومن اسماء ادوات الرينة : حناء . غالية .
بخور .

- ومن اسماء البلاد والافلاك : بلد . صحراء .
طبيعة . بركة . حوض . سهيل . فلك . مشرق .
مغرب . شمال . جنوب . طالع . صبا : دبور .

- ومن اسماء اصحاب المهن : خياط . نقاب .
بيطار . بقال . صراف . دلال .

- واسماء خاصة بالاطعمة واللهمو : قمار .
سفرة . قثينة . شراب . خمرة . غذاء . حلواء .
هريسة . قطائف . قلية . نقل .

- واسماء في الحرب : حرب . جهاد . علم .
طبل . مرادة . منجنيق . ركاب . لواء . نصل .
دبوس . حربة . حلقة . قفل .

- واوصافها : نبيل . لطيف . ظريف .
عاشق . شاعر . كاتب . وفاء . احمق . جاهل .

- كما اخذوا تراكيب واتصلا ، واعتبروها
بشكل مفرد :

سرحدات : رأس الحدود . فهميدم : فهمت
(من الفهم) .

مرد لا ابالي : رجل مهمل . زمين لا يزرع :
ارض لا يمكن زرعها . بالاضافة الى عشرات
المفردات التاريخية . وعشرات المفردات الجغرافية ،
وكذلك الطبية والفلكية . واذا طالعنا نثرا او شمرا
فارسيا وجدنا ان النسبة المئوية للمفردات العربية
تبلغ احيانا 45 او 50 ٪ ، واذا سمى الاديبي ان يقل
من الالفاظ العربية ، فانه لا يمكنه ان يستغنى عن
20 ٪ من المفردات العربية .

والجدير بالملاحظة ان اغلب الالفاظ العربية
التي دخلت الفارسية بقيت محفوظة على شكلها
الذي اخذوه لعدم وجود الاشتقاق عندهم ، اما اللفظة
الفارسية التي دخلت العربية فانها صهرت بالعربية
واشتقوا منها حتى ضاع اصلها على المطالع . وربما
قيض الله يوما لائمة اللغة من الامتين تجمعهم حمية العلم
وفريضة الادب ليتعلقوا حول الدواوين والمعجمات
سنوات ليصفوا ما لنا وما علينا ، وما احسب ان الامر
يسير ، لما حدث من تلاحم واندماج ، بل لما هنالك من
تشابهات وصدف . وهل اخدت اللفظة من العربية ام
من العبرية ام من السريانية . ومن ناحية ثانية هل

أخذت من البهلوية أم السنسكريتية أم الفارسية
الدرية ؟ .

ملاحظة أخرى جديرة بالانتباه تدل على مدى
التبادل اللغوي بين الامتين . ذلك ان العرب
استخدموا أسماء فارسية لمسميات ، في حين ان
الفرس استخدموا أسماء العربية . وقد حصل
هذا في العصر الحديث خاصة :

فنحن نقول روزنامه ومعناها (كتاب اليوم)
والفرس يستخدمون (تقويم)

ونحن نقول كهرباء ومعناها (جاذب القش)
والفرس يستخدمون (برق)

ونحن نقول دستور ومعناها (قانون) والفرس
يستخدمون (قانون)

ونحن نقول اركيلة - ناركيلة ومعناها (جواز
الهند) والفرس يستخدمون (غليان)

ونحن نقول كنار ومعناها (طرف) والفرس
يستخدمون (حاشية)

ونحن نقول كاسة ومعناها (زبدية) والفرس
يستخدمون (باطية)

ونحن نقول دستور ومعناها (القانون الاساسي)
والفرس يستخدمون (مشروطة)

ونحن نقول شرشف ومعناها (فطاء الليل)
والفرس يستخدمون (ملانة أي ملحفة)

ونحن نقول خرزة ومعناها (القراضة والاشياء
الدقيقة) والفرس يستخدمون (خرزة)

ونحن نقول بخشيش ومعناها (الانعام)
والفرس يستخدمون (انعام)

وقد اخذ العرب أسماء فارسية وتسموا بها
مثل : قابوس وهو معرب عن (كاووس) . وقد لقب
بها النعمان بن المنذر . ومن النساء دخنتوش ، وهو
اسم بنت لقيط بن زرارة وهو معرب عن (دخنت
نوش) .

كما اننا نلاحظ وجود عدد من عربية اسمائها
فارسية مثل : بغداد ومعناها اعطى الصنم أو الله
المعطي . البصرة ومعناها بعد الطريق وكانت (بس
راه) . الانبار ومعناها المخزن ثم حورت الى منبر .
القيروان ومعناها القافلة . ونجد عددا من القرى

والنواحي حول دمشق اسمائها فارسية مثل : مزنة ،
كيوان ، برامكة ، بلودان ، زبداني ، جرجانية . وقد
تكون هذه التسميات اطلقها التازحون من بلاد
فارس الى بلاد الشام .

وقد استعملنا اعلاما فارسية حديثة مثل :
شيرين . مهتاب . شهرزاد . شهنار . سوزان .
كيثي . مهيار . فرهود . جهان . فرزان . وقد
تكون هذه الاسماء أسماء غلمان وجوار وقد تكون
استخدمناها تحببا برقتها .

واذا دخلت الاعلام الفارسية . فان اغلب
اسماء الفرس كانت عربية أو مركبة مع العربية .
فقد تازرت الاعلام الفارسية بالاسلام فاستقوا من
الدين الاسلامي ، ومن المذهب الجعفري خاصة هذه
الاعلام . فمنها : خير الله . شكر الله . وقد تكون
هذه الاعلام غير مستعملة عند العرب مثل : ذبيح
الله ، قدرة الله ، يد الله . وقد يركب العلم من كلمة
فارسية وكلمة عربية مثل : خدا مراد . خدا رحم .
خدا كرم . وقد يستخدمون أسماء الانبياء واسماء
آل البيت مثل : عبد . محمد . عبد الرسول . عبد
النبي . وقد يتغير اسم محمد الى معد ، واسم محمد
علي الى مدلي . ويسمون كلشوم فيقولون لها
كرسوم .

ثم هناك : علي . حسن . حسين . باقر .
صادق . اصغر . كاظم . رضا . تقي . تقي . وقد
يعرفون بعضها فيقولون لزين العابدين زينل أو زينل
لايدين . وقد يركبونها أو يدخلون عليها لفظة (عبد) :
عبد الحسين . علي اصغر . عبد الرضا . غلامحسين .
غلامعلي . كما ادخلوا عليها أسماء الاشهر الهجرية
فقالوا : صفر علي . رجب علي . رمضان حسين .

وقد تأثرنا باعيادهم التقليدية القديمة ، وأهمها
النوروز والمهرجان . وبالرغم من ان الامويين لم
يتعمدوا التأثر بالاعياد الفارسية . فانها أخذت
تتسرب الى العرب بدون استئذان ، حتى اذا كان
العصر عباسي نقلوا اليها الكثير من عاداتهم ، والتي
كان لها النفع الكبير لمحبي اللهو والطرب ، والآثر في
الادب العربي .

ونوروز ومعناها اليوم الجديد أي عيد رأس
السنة ، ويأتي في 21 آذار من كل عام ، ويعتبر
أول الربيع ، وهو أعظم اعيادهم . أما المهرجان ولفظه
الفارسي مهرگان ، فهو عيد الخريف ، ويبدأ في أول
الخريف ، وأوله 23 ايلول . وأهم أمر في هذين

العبيد اهداء الملابس والاموال الى الشعب وتقديم الاطعمة المتنوعة . يحكى انه قدم لسيدنا علي كرم الله وجهه طعام فارسي ، فاجبه وسال : ما هذا ؟ قالوا : هو النوروز . فقال : نوروزنا كل يوم . كما يحكى ان الحجاج اول من رسم هدايا النوروز والمهرجان فى الاسلام ، وابطلها عمر بن عبد العزيز . وشاعت فى العصر العباسي اذ كان الامراء يوزعون البستهم على حاشيتهم ، كما كان يفعل الاكاسرة . وصار من الشائع ان نسمع عن النوروز فى الشعر ، كما فى قول البحترى وهو يصف الربيع :

انك الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن حتى كاد ان يتكلما

وقد نبه النيروز فى غسق الدجى
اوانل ورد كن بالامس نوما

وقد مدح المنبى ابن العميد وهو يهنئه بعيد النوروز بقوله :

جاء نوروزنا وانت مراده
وورت بالذى اراد زناده

عظمته ممالك الفرس حتى
كل ايام عامه حساده

ووصف ابن الرومي عيد المهرجان حينما هنا
عبيد الله بن عبد الله به فقال :

ما رات مثل مهرجانك عينا
اردشير ولا انو شروان

مهرجان كانما صورته
كيف شامت مخيرات الامانى

اما الحركة الادبية فقد حصل فيها تبادل تام بين الامتين : ولكن هذه الصلة وهذا التبادل يقل ظهورهما فى الجاهلية ، الا ما ذكرنا من الفاظ ومور . واذا بقي الشعر الجاهلي الى اليوم واستطعنا تمييز ما اقتبسوه من الفرس ، فان الادب الفارسي ضاع قبل الاسلام ، فلم نعد نعرف بماذا تأثر العرب وبماذا اثر العرب .

على اننا عندما نقول الادب الفارسي فانما نعني الادب الذى يظهر بعد الاسلام ، وبعد ان ترعرع ونشأ فى حقل الادب العربي ، وبعد ان غدته اللغة العربية والثقافة الاسلامية بجملها وتراكيبها وامثالها واساليبها وبلاغتها .

واذا طالعنا كتبهم الادبية وجدناها زاخرة بالافاصيص العربية والحكايات الشهيرة كحكايات حاتم الطائي ولقمان الحكيم وقيس وليلى . ومن اهم هذه الكتب : كلستان . بوستان . منطق الطير . قابوسنامه . كما انهم اقتبسوا من القروان والحديث وقصائد الشعراء المشهورين كالمثنوي والمعري ، وكذلك تأثروا بالمقامات . والفوا على منوالها فى القرن السادس الهجري . على انهم اذا بدأوا مقلدين لمذاهب وافراض الادب والشعر فانهم مسا لبثوا ان تخطوا مراحل تجديدية ومبتكرة لدرجة انروا فيها بالادب العربي والهندي والتركي .

اما الادب العربي فقد تأثر بدوره بالادب الفارسي وثقافته ، ذلك ان كثيرا ممن دخلوا فى الاسلام اضطروا الى تعلم اللغة العربية ، وسرمان ما ظهر منهم ومن نسلهم كتاب وشعراء بالعربية فى حين ان نطقهم للحروف العربية لم يكن سليما - فى بادئ الامر - ومن اقدم هؤلاء : زياد الاعجم ، اسماعيل بن يسار النسائي . ابو العباس الاعمى . موسى شهوات . فهؤلاء وغيرهم نشأوا نشأة فارسية ، وتادبوا بالادب الفارسية ثم صاغوا ادبهم بالقالب العربي فاحكموا التقليد اذ ان الفاظهم عربية وتراكيبهم عربية واوزانهم عربية ، وكان الخيال الفارسي ، والروح الفارسية ، والمعاني الفارسية بادية فى شعرهم العربي الذى يصوغونه .

وعندما كان الشاعر الفارسي يفخر بقومه على العرب ، كان يستوحى من تراث اجداده ما يقدر ويتخيل ما كانوا فيعرضه بشكل تفاخر ، كقول اسماعيل :

رب خال متوج لى وعسم
ما جد مجتدى كريم النصاب

انما سمي الفوارس بالفرس
س ، مضاهاة رفعة الانساب

فاتركى الفخر يا امام علينا
واتركى الجور وانطقى بالصواب

وانسالي - ان جهلت - منا وعنكم
كيف كنا فى سالف الاحقاب

اذ نربى بناتنا وتدسو
ن سفاها بناتكم فى التراب

وكان الشعب فى السامعين ، فقال له : صدقت والله ، اراد العرب بناتهم لغير ما اردتموهن له . قال

اسماعيل : وما ذلك ؟ قال اشعب : دفن العرب
بناهم خوفا من العار ، وريثموهين لتكوهن ،
(ويقصد انهم كانوا يتزوجون بناتهم) . فضحك القوم
وخجل اسماعيل .

ومع قلة ما وصلنا ، فقد استفاد من ذلك الادب
قدماؤنا فكثيرا ما يقول ابن قتيبة في عيون الاخبار:
وفي كتب المعجم كذا ، وقرأت كتاب ابرويز الى ابنه
شبرويه . وكثيرا ما ينقل صاحب التاج اشياء عن
اخلاق ملوك الفرس وادابهم وكتبهم .

كما ان كثيرا من الشعراء والادباء من المرب
كانوا ينزلون فارس او العراق ، ويخالطون اهله ،
ويرون مدينته ، ويكون لذلك اثر في ادبهم ونسب
شعرهم . فقد نزل الطرماح وابو النجم اتراجز
وجريز والفردق العراق ، وابو تمام والثنبي فارس .
وقد كان الفرس شديدتي الامجاب بالشعر العربي
فكانوا يتوخون محاكاته في كل اشكاله والمراضه .

فالموضوعات التي نظموا فيها ، بعضها تابع
لموضوعات العرب كالمديح والفخر والهجاء والغزل
والرثاء والوصف والحكمة ، وتفوقوا في موضوعات
الحماسة والقصص ووصف الطبيعة . وقد فلدوا
العرب في وصف الاطلال مع انه عربي خالص كالشاعر
منوجمري في القرن الخامس الهجري وهو اول من
فقد الاطلال . كما فلدوه في بكاء الديار والاناتر كما
فعل خاقاني في وصف ابوان كسرى الذي سبقه
البحثري بقرون في وصفه . وكذا بكى حميد الدين
البلخي مدينة بلخ عندما خربها الفرس سنة 548 هـ .
كما انهم غالوا في الموضوعات الشعرية التي اخذوها
من العرب كالمديح والخمرة والغزل . وبرهوا في
الشعر القصصي ، وتجلت براعتهم في نظر الفردوسي
للساهنامة التي يريد عدد ابياتها على خمس وخمسين
الفا من الابيات على بحر واحد هو المتقارب . ثم
هناك يوسف وزليخا ، خسرو وشيرين ، ليلى
والمجنون .

والتصوف من الموضوعات التي تآثر العرب بها
واهم الشعراء المتصوفين الفرس جلال الدين
الرومي وحافظ الشيرازي . اما الاوزان والقوافي
فقد نشأ العروض الفارسي في احضان العروض
العربي وفي دوائره وبحوره واصطلاحاته وقوافيه .
الا ان الفرس آثروا بعض الاوزان العربية لانها اكثر
طواعية لثقتهم واقرب الى انطباقهم ، واصلوا ثلاثة
ابحر وهجروا بعضها ، واكثروا من المثوي اي الشعر

مزدوج القافية بين الشطريين . كما اخترعوا
الرباعيات ونظموا بها قبل الخيام وقبل العرب .
وخالفوا الموشحات العربية بموشحات سموها ترجيع
بند منذ اوائل القرن الخامس الهجري .

ومن الشعراء العرب الذين تأثروا بالصورة
الفارسية : الكميث . العتابي . الفردق . البحتري
ابو تمام . المثني . المعري . وتورد بعض الكتب
الادبية قطعاً وابياتاً تشير الى انها مقتبسة عن الشعر
الفارسي كالبيان والتبيين للجاحظ ، وبتيمة الدهر
لابن قتيبة ودمية القصر للباخري . على ان المجال
الضيقة لا يسمح لنا باستعراض نماذج من ذلك . ونذكر
ان ابا نواس له قصائد فارسية لا يعرفها الادباء
العرب ، سميناها (فارسيات ابي نواس) .

وما يقال عن الادب والشعر والعروض يقال عن
البلاغة ، فقد كانت قواعد الاسلوب الادبي الفارسي
مطابقة تماما لقواعد الاسلوب العربي من حيث
الايجاز والاطناب والتشبيهات والاستعارات . كما
ظهر نوع من الشعراء زادوا من التبادل الثقافي ،
لانهم نظموا باللغتين فسموا (ذوي اللسانين) .

ويحسن ان اتوقف لحظات عند الخمرة والغزل
المكتشف قبل ان اختتم الموضوعات الشعرية .
فالخمرة كانت معروفة في الجاهلية ، تاجرروا بها ،
وشربوها ، وحرمها القرءان ، ووصفها الشعراء .
وازدادت مع الزمان حتى بلغت اوجها في الاتساع
والجراة في العصر العباسي . وعلى هذا فالشعراء
العرب الذين وصفوا الخمرة لم يقتبسوا عن الشعراء
الفرس لسبب بسيط هو ان ميلاد الشعر الفارسي
لم يبدأ قبل اواخر القرن الثالث الهجري ، ونعلم ان
الاخطل وشارا و ابا نواس ومن لف لفهم عاشوا وماتوا
قبل ذلك بكثير . ولكننا نقول ان الترف الذي عرفه
العرب عند تماسهم بالفرس فسح الطريق لمثل هذا
اللهو اكثر .

والغزل المكتشف كان معروفا كذلك عند امريء
القيس والنايفة والاعشى منذ الجاهلية ، وعند
الاخطل . وعمر والوليد وغيرهم في العصر الاموي .
ويزداد الغزل المكتشف حرية حتى يبلغ العصر
العباسي عند بشار و ابي نواس واسماعيل بن يسار
 وغيرهم . ولم يتأثر الشعراء العرب بالغزل الفارسي
للسبب الذي ذكرناه في الخمرة ، ولكنهم تأثروا
بالحضارة الفارسية التي زادت من جهة هذه الجراة
في الكشف . اما الغزل الغلامي فالجاهلية لم تعرفه

ولا القرن الاول ، ولكن جاء به الترف والحضارة الجديدة وكثرة الفلمن والسقا . على ان الفرس ليس عندهم ضمير خاص بالمؤنث وضمير خاص بالذكر ، فالضمير لكليهما واحد ، وكذا الامر في المخاطب والمخاطبة واسم الإشارة ، لذا فاذا نادى الفارسي لم يعرف السامع هل المنادى مذكر ام مؤنث ، على ان هذا ليس دفاعا عن الفرس فهذا هو الواقع ، كما ان الفرس لم يقولوا الشعر قبل رواج الغزل الفلامي ، وبعدئذ برعوا فيه ، انما الحضارة وكثرة الفلمن والترف هي التي سادت الشاعر والحياة الى هذا اللون من الغزل . وجدير بالملاحظة ان العرب في الطرف الغربي من الامبراطورية العربية لم يفعلوا فعل الشرقيين في الغزل المكشوف والغزل الفلامي .

وما يقال عن كل ما مضى من تبادل في التأثير والتاثير نقوله من القصص والحكايات ، فقد تأثرنا بأساطيرهم وحكاياتهم وأثرنا بهم في حكاياتنا وقصص قرائنا . وكذا استفاد الفرس من الامثلة العربية ، كما استفاد العرب من الامثال الفارسية .

وتعتبر العقائد من اكثر الامور تأثيرا في الامم وفي ادابها . فقد عرف العرب في الجاهلية الزردشتية وهي المجوسية ، والمانوية ، والمزدكية . وقد تجلى ذلك بتقديس العرب للنار المقدسة عند المجوس بحلفهم بها وبوصفها ، كما عبد بعض العرب الشمس وهي من عناصر الطبيعة التي عبدها الفرس والشرق ، وبدا كل ذلك في شعرهم . ونجد بقايا ذلك في اشعار الشعراء بعد الاسلام كبشار والمعري والمتنبي وأبي تمام . ولا ادل على تأثرهم بالاديان الفارسية من قول ابن قتيبة في كتابه (المعارف) ، عند كلامه على اديان العرب في الجاهلية : « وكانت النصرانية في ربيعة وغسان ، وبعض قضاة . وكانت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث ابن كعب وكنده ، وكانت المجوسية في تميم ، وكانت الزندقة في قريش . اخذوها عن الحيرة » . وقد رفض المنذر الثالث اعتناق المزدكية فمزله قباز وعين مكانه الحارث ابن عمرو امير كنده بعد ان اعتنق المزدكية .

وقد تأثر الاسلام بالزردشتية كما يقول احمد امين بمقيدة العامة من المسلمين في بعض الامور ، كما تأثرت المعتزلة بمسألة الجبر والاختيار . ومن الجدير بالذكر ان الاعاجم عندما دخلوا الاسلام كانوا على دين خاص ورثوه من اجدادهم ، ولم تمنح من مخيلتهم ملامح دينهم القديم فأضافوها على ما يتعلمونه من الدين الاسلامي .

ووجود الزندقة ، وبقايا المجوسية خلق حركة فكرية ومعركة ادبية جديدة ممثلة في مدارس علماء الكلام واهمهم المعتزلة . وقد الفوا الكتب ضد هؤلاء الزنادقة ، ونظم الشعراء القصائد في الرد عليهم او مشاركتهم آراءهم . ومن اهم من الف في هذا المضمار واصل بن عطاء في كتابه (الالف مسالة) للرد على المانوية . والجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) .

ورغم كل ذلك فقد ازال العرب من ارض فارس تلك الديانات التي وزعتهم فرقا ، وشتمتهم موقبا ، فجمعتهم تحت راية التوحيد ، الطاهرة ، وحررتهم من النظم الاجتماعية والطبقة الفاسدة .

وقد تبع هذه الحركة الفكرية ، حركة ادبية قريبة الشبه منها وفي مسالة تفاخر الموالي على العرب ، ورد العرب مزاعم الموالي الشعبيين . ومهما كانت النتائج ونوعية الخصام فقد نتج عن ذلك تبادل ثقافي تام الاركان فيه التاريخ والفلسفة ، وفيه الشعر والنثر ، وفيه التأليف الواسعة ، والاطلاع على الفلسفة . ومهما غشت هذه الحركة من مزاعم بشوبها الخطأ ، فان نتيجتها الادبية والفكرية الجديدة واقعة على الاديان العربي والفارسي على السواء .

ولقد كانت حركة المناوأة شديدة في العصر الاموي ، وتضعف الحدة ويتسع نطاقها الادبي كلما دنونا من العصر العباسي او خطونا فيه . ولقد شرقت قصور الخلفاء العباسيين بالموالي رجالا ونساء وعلمانا وفصحت الجيوش بهم .

واذا كان الموالي يتخوفون من الرد على الشعراء العرب في العصر الاموي فانهم لم يتورعوا عن التفاخر بجدودهم امام خلفاء العصر العباسي ، وها هو الشاعر المتوكلي ، شاعر المتوكل ونديمه يقول :

انا ابن المكارم من نسل جم
وحائز ارب ملك العجم

ومحيي الذي باد من مزهم
وعفى عليه طول القدم

الى ان يقول :

فمودا الى ارضكم بالحجاز
لاكل الضباب ورعي الفهم

فاني سأعلو سرير الملوك

بعد الحسام وحرف القلم

ويتهجم أبو نواس على العرب بوسيلة أخرى ، هي تهكمه الكثير بطريقة العرب في التقديم لقصائلهم بالفزل وبكاه الاطلاع ، ودعوتهم الملحة الى بدء القصائد بالخمريات . ولا يمكننا - كمرب - ان نعتبره تجديدا في الادب لان ابا نواس احاط برغبته هذه بالسخرية والوضع من قواعد الشعر العربية ، وقد كان يستطيع ان يجدد بغير تندر ، كما في قوله :

عاج الشقي على دار يسائلها

وعجبت اسأل من خمارة البلد

دع ذا ، خدمتك ، واشربها معتقة

صفراء تمتق بين الماء والزبد

كم بين من يشترى خمرا يلد بها

وبين بالك على نؤى ومتنفسد

اما التجديد الحق ، فهو الذي قام به المتنبي ، حينما عجب من الشعراء المتكلفين للحب ، اذا افتتحو مدائحهم بالفزل ، فقال صادقا :

اذا كان مدح فالنسيب المتقدم

اكل فصيح قال شعرا متيم ؟

لحب ابن عبد الله اولى فانه

به يبدأ الذكر الجميل ويختم

على ان الامر لم يقف في هذه المعركة على الشعر بل انبرى الطرفان بتأليف كتب في هذا المضمار . فمن الكتب التي الفت انتصارا للشعوبيين من الموالي :

- فضل المعجم على العرب وانتصار المعجم من العرب . تأليف : سعيد بن حميد البختكان .

- ادعياء العرب . لصوص العرب . فضائل الفرس . تأليف : ابي عبيدة ممر ابن المشي .

- المثالب . تأليف : علان الفارسي . المثالب الكبير والمثالب الصغير . تأليف : الهيثم بن عدي .

ومن الخير للطرفين ان هذه الكتب فقدت ، ولم يبق بين ايدينا الا الاسم ، والا النور القليل منتشرة في كتب الادب وهيون اخبارها . ومن اهم الكتب التي ردت على مزاعمهم :

- العرب - لابن قتيبة . البيان والتبيين للجاحظ .

وقد امتدت حركة الشعوبية الى ارض الاندلس بلون اخر ، فقد الف ابن فرسية رسالة في التهجم على العرب ، فرد عليه عدد من الابداء منهم : يحيى ابن مسعدة وابو جعفر احمد البلنسي .

كما ان الموالي ناهضوا افكارهم بتلفيق احاديث مكذوبة على لسان النبي (صلى الله عليه وسلم) . من ذلك : لا تسبوا فارسيا ، فما سبه احد الا انتقم منه عاجلا او اجلا . كذلك اخترع العرب احاديث ترفع من قيمة العرب وتحط بالمعجم ، من ذلك : « من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ، ولم تله مودتي » . على ان هذه الحركة لم تنفع التبادل الثقافي ولم تنفع الحركات الادبية بل ضررها . كما ان انتصار الموالي للرواة الفرس كابي عبيدة ، وانتصار العرب للرواة العرب كالاصمعي لم يات بالنفع بل ابي بالضرر . ومن اجمل الردود على مزاعمهم الشعوبية قول المتنبي :

وانما الناس بالملوك وما

تفلح عرب ملوكها معجم

لا ادب عندهم ولا حسب

ولا عهد لهم ولا ذمم

اما الحكم والامثال : فالانسان مع انه يفضى عينيه اذا سمع حكمة فانه ينصت اليها ويميل الى الاستفادة منها والاستشهاد بها . ولقد كان للفرس اثر كبير في الاخلاق السامية والاداب من ناحية حكمهم . ذلك ان الاخلاق الاسلامية تأثرت بثلاثة مؤثرات :

1 - بالتعاليم الدينية التي وردت في القران والاثر ، ومن الانجيل والتوراة .

2 - بالفلسفة اليونانية التي نقلت في العصر العباسي .

3 - وثالثا بحكم واقاسيم الفرس او ما نقل بواسطتهم من الهندية ، بما نقل عن الملوك والوزراء ورجال الاديان الفارسية ووعاظهم . وقد ملئت كتب الادب بها ، ومن اهم الكتب التي ملئت بامثال هذه الحكم ، هيون الاخبار ، سراج الملوك ، وكتب الجاحظ وابي حيان . المقدم الفريد .

ومن جملة الامثال الفارسية التي عرفها العرب واستخدموها :

- اذا جاء البعير حام حول البير .

عربية . واذا استهجن الأميون أبناء الاماء فان الملب
امهات الخلفاء العباسيين كن اماء وقينات فارسيات
وغير فارسيات .

وختاما لحديثي ، انه لمن الخطا والفلو - كما
يقول احمد امين - ان نعتبر ان العرب كانوا بمعزل
عما حولهم من الثقافات والأديان ، وان آراءهم
وآدابهم وعلومهم نبئت وحدها من عقول عربية ، من
غير ان تغذى بغيرها .

فقد رأينا انهم - حتى في جاهليتهم - لم يكونوا
بمعزل ، وانهم كانوا بعد الاسلام اكثر اتصالا والتحاما
وعلاقة . ولا يقدح التبادل الثقافي اية امة ، فالعلم
ملك شائع ومرفق مباح يفترف منه الناس جميعا ،
وليس له حدود فاصلة كالتى ترسمها السياسات ،
وانما الذى يقدح في الامة حقا ان تفضى هبونها ،
وتسد اذانها عما حولها من نظريات وافكار ، او ان
يدنمها التعمصب الاعمى ان تنسب لنفسها ما ليس
عليها ، وتعزو اليها خلق ما لم تخلق ، وابتداع ما لم
تبتدع . كما على الامة ان تبحث عن تراثها ، ولا تتهاون
فيه ، وتحافظ عليه ، فهو الدخيرة الدسمة والمجد
الايلب الذي عليها ان تبقى عليه .

ولشدة الارتباط الوثيق بين الادب العربي
والادب الفارسي الاسلامي في العصر العباسي هذا
لزما على دارسي الادب العربي من الفرس دراسة
الخطوط العريضة على الاقل للادب العربي ، واصبح
من الضروري لفهم الادب العباسي العربي تفهم الثقافة
العربية التى كانت مفرقة من ارض الجزيرة العربية
شرقها وغربها ، او مستقاة من الامم المجاورة ودراسة
تطور الادب الفارسي لمعرفة الجديد في ادبنا والجديد
في ادبهم .

- سالوا الشاب اين شاهدك ؟ قال : ذنبي .
- احذروا صولة الكريم اذا جاع ، واللثيم اذا
شبع .

- اذا اردت ان يقبل قولك فصصح رأيك ولا
تشوبه بشيء من الهوى . فان الراي الصحيح يقبله
منك المدو ، والهوى يرده عنك الولد والصديق .

- اذا كلمك الوالى فاصغ الى كلامه ، ولا
تشغل طرفك عنه بنظرة الى غيره ، ولا اطرافك بعمل
ولا قلبك بحديث نفسي .

- استح الحياء كله من ان تخبر صاحبك انك
عالم وانه جاهل ، مصرحا او مبرضا . الى غير ذلك
مما تزخر به كتب الادب والحكم .

على ان الفرس اخذوا حكمهم كذلك من القروان
والحديث ومن حكم حاتم ولقمان والمنتبي والمصري
وغيرهم واستفادوا منها بعد الاسلام .

ومن اهم الامور التى ادخلت العربية في
الفارسية ، والفارسية في العربية التصرف ،
والجوارى خاصة من اسباب الترف . فلقد ادخل
نظام التسري الى الاسر العربية عادات وتقاليد
والوانا من الامور الاجتماعية ، وفنوننا وموسيقا ما
كانت معروفة عندهم انما جاء بها هؤلاء الجوارى من
بلادهم .

ولقد كان العربي يشتري القينة لفن تجيده ،
والشعراء كان عندهم قينات ، واغرموا بهن ومرفوا
منهن اسماء الآلات الموسيقية والازهار وورقة الفناء
والوان الطعام . كان كل ذلك يتابع للشعراء على
تاوين شعرهم وتطعيمه باوصاف وتشبيهات لم تكن

لغز البادية

الأستاذ عبدالله بن خميس
«الرياض»

هذه الصفات دلت بالامراء ، والرؤساء
والخلفاء ، وعلية القوم ، وذواتهم .. ان يبعثوا بابنائهم
الى البادية ، المدرسة الاولى لتربية اصيلة ، تعطى
الشباب الى جانب الرشاقة ، وبناء الجسم بناء رياضيا
متينا ، وتكونا متكاملتا فارها .. تعطيه قوة الشخصية ،
واستحصاد الرأي ، ونبذ الإرادة ، ومصادر الشجاعة
والدربة ، وسلامة المنطق ، وقوة المعارضة ..

قال بعض الاعراب : نحن امراء الكلام ، نبينا
وشجرت مروته ، وعلينا تدلت فصوصه ، فنحن نجني
منها ما احلولى وعذب ، ونترك ما امولج وخبت ..

وتال الجاحظ : ليس في الارض كلام هو امتهع ،
ولا اتمع ، ولا اتق ، في الاسماع ، ولا اتقود للطباع ،
ولا اتمق للسان ، ولا اجدد تقويما للبيان .. من كلام
الاعراب الفصحاء المعقلاء .

ووصلهم الحارث بن كعدة امام كسرى فقال :
لهم انفس سخية ، وقلوب جرية ، وعقول صحيحة ،
وانساب صريحة يمزق الكلام من افواههم مروق
السهم من الرمية ، اعذب من الماء ، وارق من الهواء
يطعمون الطعام ، ويضربون الهام ، وهزم لا يرام ،
وجارهم لا يضام .. ووصف اهدم امراة فقال : كاد
الغزال يكونها ، لولا ما نقص منه وتم منها .

واوجز اهدم تصيدة كاملة في جملة مقتضبة
فقال : سبقنا الحي ، وفيهم ادوية السقام ، فقران
بالحدق السلام ، وخرست الالسن من الكلام ..

البادية خلاف الحاضرة ، وجمها بسوادي ،
وتسمى بداوة بالكسر ، والنسبة اليها : بسداوي ،
بالفتح والكسر ، وبدوي أيضا .

وهي من بدا اذا نشأ ، أو اذا ظهر وبرز . وهو
الارجح ، لبروز البادية في الليالي والقفار ..

والبادية هم سكان الوبر ، الذين يتبعون
مساقط الفيت ، ويطلبون الكلا والمرمى لما شبتهم ،
ولا يستقر بهم القرار في مكان معين ، الا في فصل
الصيف حيث يقطنون المناهل ، ويدنون من المياه .
والبادية هي اصل العرب ، وسكان جزيرتهم الاولون ،
وسفر لغتهم المتمد ، منها تكونت الحواضر ، واليها
ترجع الارومات الاصيلة ، ومنها تدرمت الشعوب
والقبائل ..

وهي في الجاهلية رمز العرب ، ووجههم الامثل ،
وفي الاسلام - كما قال عمر - اصل العرب ومادة
الاسلام . صريح اللغة ولصيحها مصدره البادية ،
ومادات العرب الكريمة ، وتقاليدهم الاصيلة ، ومميزاتهم
الاثيرة .. مصدرها البادية ، والشعراء المتاويل ،
والخطباء المصانع ، والمتكلمون للسن .. اعلامهم ،
ومبرزهم ، من البادية .. لم تفسد الحضارة سحنهم ،
ولم تن السنتهم ولم تفض لهم صعدة ، ولم تفل لهم حد
.. يتكلمون بالسليقة والقطرة ، منتثر شفاهم من قول
لصل ، وكلام جزل ، وبيان سليم مستقيم .. يصدر من
طبع ابي ، وخاطر نكي ، ولسان ذرب طلق ..

في هذه البيئة المتأبية ، واللغة الصريحة .. تربي سيد العرب عليه السلام ، وتربي اعلام الخلافة ، وكبراء القادة ، ونبلاء المجتمع الاسلامي .. ولم يكن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، من ثقته البادية ، واصلحت لسانه ، فكان لحنه ، وظل لحنه وصمة عار في تاريخه . قال ابوه : اضر بالوليد حيناً له حيث لم نبعثه الى البادية .

خطب الناس يوم عيد مقراً في خطبته : يا ليتها كانت القاضية بضم تاء ليت . فقال عمر بن عبد العزيز : عليك واراخنا الله منك .

وعن البادية اخذ علماء اللغة فصيحها ، ومتوتحها ، وتعلموا في اختيار الامصح ، والا بعد عن الحواضر ، ومجاورة الاعاجم .. فمعنوا عناية فائقة بما دونوه ، فاخلصوا لغة العرب في صبيها الذين لم ترتضخ لغتهم عجمة ، ولم يخذشها شذوذ : ولم يداخلها تقصير .. دونوا لغة قريش ، وقيس ، وتميم ، واسد ، وهذيل ، وبعض كنانة ، وبعض طيء ..

وتحاشوا الاخذ من لغة لخم ، وجذام ، وقضاعة ، وغسان ، وايداد .. لجاورتهم اهل الشام . وكذلك تحاشوا لغة تغلب ، وبين الجزيرة ، وبكر ، وعسبد القيس ، وازد عمان ، واهل اليمن ، وبني حنيفة ، وثقيف .. لمجاورة بعضهم للفرس ، ولجواردة الآخرين للاحباش ، ولان بعضهم اهل تجارة ، وبقلة ، واختلاط بمشبهوي اللغة ..

فماخلصوها من تلتة بهراء ، ومن طبطمانية حمير ، ومن كشكشة ربيعة ، ومن ككة هوازن ، ومغلفة هذيل ، ووكم ربيعة ، ووهم كلب ، ومجمعة قضاعة ، وشنشنة اليمن ووتها ، وعجرفة ضبة ..

ومن اخذ عن البادية ، ولقيهم في مراتبهم ومراتهم ، وسبع منهم : يونس بن حبيب الفسبي ، وخلف الاحمر ، والخليل بن احمد ، وابو زيد الانصاري ، والاصمعي ، وابو عبيدة ، والكساني .. وهؤلاء هم من اول من رحل الى البادية واخذ عنها ، وهم من علماء القرن الثاني ..

وكان العلماء في القرن الاول يعتمدون الفطرة ، ويرجعون الى السليقة ، ويستأنسون بمن يلتقونه من الامراب ، ولما اوغل العلماء في التحقيق ، وتأنقوا في الاحصاء والاستقصاء ، وبعدت الحواضر الاسلامية عن البادية ، وداخل لغة البادية المجاورين للحواضر ما داخلها .. بدأ عصر الرحلات ، ولقيا الامراب ..

وكانوا اذا لقوا الاعرابي وشكوا في سلامة لغته ، امتحنوه ، وربما وضعوا له تياساً غير صحيح ، او جمعا غير وارد ، او لفظاً غير فصيح ، فان نطق به ، او اقره ، طرحوا لغته ، وان بُيت سليقته ذلك اخذوا عنه ..

قال الاصمعي : سمعت ابا عمرو يقول : ارتبت بفصاحة اعرابي ، فاردت امتحانه ، فقلت بيتاً . والقيته عليه وهو :

كم رأينا من مسحب مسلح
صار لحم النسور والمقبان

فأفكر فيه ، ثم قال رد على ذكر المسحوب ، حتى قالها مرات : فعلمت ان فصاحته باقية ..

وقال ابن جنبي : سألت مرة الشجري - وهو اعرابي من عتيل ، كانوا يرجعون اليه في اللثة - ومعه ابن عم له ، كان دونه في الفصاحة ، وكان اسمه غصنا - فقلت لهما : كيف تحترقان حمراء ؟ فقالا : حميراء ، وواليت من ذلك احمرنا وهما يجنيان بالصواب ، ثم دسست في ذلك طلباء ، فقال غصن : عليباء وتبعه الشجري فلما هم بفتح الباء : تراجع كالمدمور ، ثم قال : آه عليبي ..

وقال في موضع آخر : سألته يوماً - يعني الشجري - : كيف تجمع دكانا ؟ فقال دكاكين . قلت : نسرحانا ؟ قال : سراحين .. قلت فعثمان ؟ قال : ايش عثمانون ! فقلت له : هلا قلت عثمانين ؟ قال : ايش عثمانت ؟ ارايت انسانا يتكلم بما ليس من لغته ؟ .

وهكذا خاطب القرآن هؤلاء القوم ، بمستوى من البيان على غير مثال سبق ، ونهج من التعبير على غير مهيج صرف ، وبلاغة من القول هي المثل الاعلى ، والقول الفصل .. في كل ما تكلمت به امة الضاد ..

لقد كان ازدهار لغة العرب بين يدي الاسلام برعيل ممتاز من الشعراء المقاولين ، وبصفاة من الخطباء المصانق ، وبصيارفة من النقاد ، يزنون ما تفيض به ترائح القوم ، وما تتدفق به خواطرهم .. كانت تلك البيعة اللغوية ، توطئة بين يدي الاسلام ، وترشيحا للذهن العربي لاستقبال المعجزة المنتظرة .. فكان البيان العربي قبيل ظهور الاسلام ، غاية في الابداع ، ونموذجاً حياً في تاريخ اللسان العربي .. والا لما وتمت آية محمد عليه السلام من هؤلاء المقاولين ، موقع الذهول ، ثم الاستسلام ..

لم يكن الاعراب بلغتهم الصافية، وذكائهم الفطري واستعدادهم الذهني .. توم استماع ولهم محاسب ، بل رشحتهم هذه الصفات ، ليكونوا مرجعا في تفسير القرآن ، وايضاح غريبه ، وتاصيل لغته ..

سأل مير بن الخطاب وهو على المنبر جماعة المسجد عن معنى قوله تعالى : او ياخذهم على تخوف. فسكت القوم ثم قام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا التخوف : التتقص . قال مير : هل تجد له شاهدا من لغة تومك ؟ قال نعم . قال شاعرنا :

تخوف الرجل منها تامكا تردا
كما تخوف عود النبعة السفن

وكان ابن عباس - وهو حبر الامة ، وترجمسان القرآن - يقول : الشعر ديوان العرب : ماذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي انزله الله بلغة المرب ، رجعنا الى ديوانها ، فالتمسنا معرفة ذلك منه .

وكان رضي الله عنه يجلس بفناء الكعبة ، ثم يكتنفه الناس ، يسألونه عن التفسير ، وثبته من كلام العرب ، وقد استشهد على جواب سؤال واحد بنيف وتسعين بيتا من الشعر العربي الفصيح .. وهو ما سألته عنه نافع بن الازرق .

وتأبى سليقة الاعراب ان تقبل ما خرج عن مقاييسها الفطرية ، او تفهم ما جاني لسانها . بل ترد كل ما سمعته الى اصوله ..

دخل امرابي على الوليد بن عبد الملك - وقد اسلفنا انه لحن - وكان عنده مير بن عبد العزيز ، فقال الوليد لامرابي : من انت بوصل الهمة ؟ فظن الامرابي انه يقول : مننت فقال : المنة لله ولا مير المؤمنين . فقال مير بن عبد العزيز : ان امير المؤمنين يقول لك : من انت ؟ قال : فلان بن فلان . قال الوليد : ما شأنك وفتح النون ؟ قال جدري في وجهي ، ولمحج بساتي . فقال مير بن عبد العزيز : ويحك ان امير المؤمنين يقول : ما شأنك وضم النون ؟ قال ظلمني خنتي . قال الوليد : ومن خنتك وفتح النون ؟ قال : وما سؤالك عن ذلك يا امير المؤمنين حجام مندنا بالبادية قال مير : ان امير المؤمنين يقول لك : من خنتك وضم النون ؟ قال : فلان . وهكذا ندرك ان البادية مصدر اللغة العربية الاول ، ومعناها الاصيل ، وهي المرجع فيما اختلف فيه ، حتى في الفاظ القرآن والسنة .

ورغم ما اصاب الامة العربية من نكبات وهزات ، عبر القرون المتتالية ، ورغم ما لحق لغتها من انتكاسات ، وعلق بها من اوزار ، وداخلها من حجة .. مما جعل الممول في حفظها ، وبقائها .. على القرآن الكريم ، وعلى معاجم علمائها البررة .. رغم ذلك كله فقد بقيت البادية الى يومنا هذا ، تمتاز بلغتها ، وتدل بلسانها الذرب ، وبياناتها الجميل .. غني هضبة نجد ، ومرتفعات الحجاز ، ومناكب السروات .. تتبادل ثابت لغتها على الواكز واللاكز ، وانفتت من اللغسة الحضرية اللينة الملوحة . وهي وان كانت لا تنطق لغة القرآن سليمة مستقيمة ، ولا تواكب لغة امرىء القيس ، والناطقة ، وزهير .. واضرابهم ، على نحو ما وصل الينا من شعرهم ، الا اننا نجعل في الحساب اختلاف اللهجات ، بشكل واضح ، ربما يصل الى استعصاء نهم قبيلة لهجة اخرى في بعض الاستعمالات والمسببات . ومعلوم ان لغة القرآن حصرت في لسان قريش .. كما نجعل في الحساب ايضا ما هنالك من تسهيل في الهمز ، وتسكين لاواخر الحروف ، وادغام لبعضها في بعض .. ونحو ذلك مما يكاد يتفق فيه نطق الجميع .. بحيث اذا اجتمع بهم دارس العربية ، واستمع اليهم ينطقون .. ظنهم يرتضفون عجمة موغلة .. واذا تدبر ما يقولون ، وتقدم حقيقة النطق .. تكشفت انه حقائق ما كان يظنها باقية في قومه .. وابرز ما يكون هذا في بلاد عسير ، وسراة تحطان ، ومنحدرات جبال الجنوب ، وسهول نجد ..

في احدى زياراتي لتلك المناطق ، كنت يوما جالسا في دكان احد الاخوة في مدينة ابها ، فدخل الدكان رجل مؤتزر بازار مصبوغ باللون الاحمر الفاق ، ويلف اعلى جسمه ما عدا منكبه الايمن ، وجزءا من جنبه ، برداء سهك اغيب ، يشد وسطه على خنجر مغرطة الطول ، بحزام من الادم - هذا الرجل تصير اسمر ، نحيف ، هاري الاشاجع ، تتوقد عيناه ، وتريخان نظرها هنا وهناك ، مكشوف الرأس ، عن لمة منسخلة على مؤخرة رقبته ، مشدودة برباط من الادم ، غارزا في جوانبها طاقات من الفصان البشيران والشيح .. فتكلم بما يشبه النقيق ، فمه صاحب الدكان وأنا لم افهمه .. ولما تفسي حاجته احب هذا البائع ان يعرفني مكانة هذا من اللغة العربية ، سليقة ، ومطرة ، وكان البائع يعرف اهتمامي بمثل ذلك . فاجلسه معنا ، وقال لي تفهم كل ما يقول ، فمأخذ يسأله من قبيلته ، وعن ارضه ، وماشيته ، ومن اية الطرق اتى ، وبماذا هبط المدينة .. الخ واذا به يتكلم اللغة العربية الفصيحة ،

ويسمون المنجل : مخلبا

ويسمون البندقتية : بارودا .

وهكذا تتميز لهجتهم ، كما تتميز كل لهجة من اللهجات الأخرى ، عن أختها .. غير أنها تلتقي في صميم اللغة ومصيحها .. وتجمع على محاربة الدخيل والشاذ .. ويتلق أهلها على نقد ما تاباه اللغة وتكرهه .. ادخل أحد الحضريين أنه في حديث في الإبل ، بحضرة رجل كبير في بلادنا ، نجاء هذا الواغل بملرد للإبل ، فقال : ما راينا ولا (بلة) واحدة ، فكانت مثار سخرية ، وهمز وهمز ، واستهجان وممـروف أن الإبل لا ملرد لجمعها ، وفي لهجتهم : يقال : ابل واحده للمجموعة الواحدة من الإبل ، وفي المجموعتين من الإبل يقال : فلان يملك ابلين . ويقولون إذا تجاوزت الإبلين : فلان يملك ثلاث رعايا ، أو ثلاث عصي ، فيكنى بالمعصا عن الإبل . وهكذا .

وأسماء أعضاء الناقة ، وأجزاء جسمها ، تختلف عن أسماء ذلك . من الفرس ، ومن الشاة ، ومن غيرها ، وغيرهما ، وكذا الحال بالنسبة للطير ، والوحش ، وسائر الدواب .. فإذا أعطى حضري ، أو مستعرب ، أسما أو صفة لجنس من ذلك هو معروف للجنس الثاني ، فقد استهدف للنقد ، وتعرض للسخرية والهزاء ..

ونجد أن من يعيش في أحضان البادية من الحاضرة ، أو يكثر الاحتكاك بالأعراب ، أو يعيش في قرى أو مواضع تربها البادية .. نجد لفته تتسم بالفحولة ، والجزالة والقوة ..

ولما كان الشعر حليفا للعربي منذ أتمد العصور ، تغنى به وغر ، ووصف وبكى ، ومدح ورثى .. وسلك به شتى المذاهب ، وولج شتى الأبواب .. ولم يزل كذلك لما هو شعر بادية اليوم ونحن لا نزال نعتزف لهم بسلامة اللغة وأصالة المنطق ؟

رغم أن شعر البادية اليوم يسمى شعرا شعيبيا ، ويسمى شعرا نبطيا ، ويعيش في عصر نارق فيه شعر السليقة والطبع ، وسلامة اللغة ، منذ ما يزيد على ألف سنة ، ولكنه ينزع إلى أصله ، ويمت إليه .. تترؤه على أنه شعر شعبي ، ويقروء الكل كذلك ، ولكن إذا وقتت عنده وثقة المدارس ، وأردت أن تواسج بينه وبين الفصح ، وجدته يعود إليه ، ويعول في أوزانه ، وروبه وتوائمه ، عليه ، ويلتقي معه في أغراضه ومناحيه ، ويحمل صورا من الجمال ، ودفقات من الفن ، والموسيقى ، والجرس تطرب وتمجب ..

التي بعضها مهجور الاستعمال ، مودع بطون المعاجم ولولا سرعة نطقه ، وادغام بعض الفاظه ، وتزك المهز في بعضها ، لم يفتني من عربيته الأصيلة شيء ..

قلت لصاحبي : ممن هذا ؟ قال : من قبيلة ربيعة . ومعلوم أنها ربيعة اليمن لا ربيعة أخت مضر .

أما بادية نجد ، فهم صميم القبائل التحطانية ، والعدنانية . تحطان ، والدواسر ، وسبيع والمجمان ، وآل مرة ، وبنو هاجر ، وبنو خالد ، والسهمول ، وعتيبة ، ومطير ، وشمر ، وحرب ، وهنزة ، والقرينية .. وغيرهم من القبائل الضاربة في نجد وما جاورها ، هؤلاء لكل منهم لهجة خاصة به ، من اليسير على العارف أن يلتقي فردا لا يعرفه ، ولا يعرف من أيسة القبائل هو .. وبمجرد مخاطبته يدرك أنه من القبيلة الفلانية ..

فمثلا قبيلة شمر : تشير إلى شيء من لهجتها : هي تقلب الهزمة (شيء) إلى نون ، فنقول : ما رأيت شيئا ، وما وجد شيئا ، وما حظيت بشيء .

وهي أيضا تستعمل لفظ (دهج) بمعنى مر ، أو ألم ، تقول : دهجت المنهل الفلاني : يعني مررت به ، أو الممت به .

وتستعمل (نهج) بمعنى ذهب ، ومرادفاته ، تقول : نهج فلان : بمعنى ذهب أو سائر ، أو راح .. كما أن لهجتهم على مذهب القائل :

أيها السائل عنهم وهنسي
لست من تيس ولا تيس منسي

فهم يحذفون نون الوقاية ، من (هن) و (من) الشاذ حذفها فيهما لغة ، إذا اتصل بها ضمير المتكلم . فيقولون : ليس عليك مني ، بكسر النون لمقط . وهل سأل عني بكسر النون لمقط وهكذا ..

وهم أيضا يقلبون الهزمة من (ما) نونا فيقولون : مان :

وباء الجر المتصلة بالضمير يضمونها ، فيقولون : ما به مان : أي ما به ماء .

ويسمون الجدول : سريرا ، وهذه مواثقة للغة القرآن .

ويسمون السنبل : سبلا

ولسه أيضا :

علي من قديم العبر نفس عزيزة
امض على عصيانها بالنواجذ

منذ نعومة اظفاري ، ونفسي لا تقبل الدون ،
ولا ترضى بالهون ، واذا راودتني عصيتي ، وعضت
على عصيانها نواجذي ، فهي عزيزة ابدأ ..

وتولسه :

مقام الفتى في منصب العز ساعة
ولا الف عام يصحب الذل صاحبه

فلا بالتني تبلغ النفس حظها
ولا بالتاني ناز بالصيد طالبه

حياة الفتى هي العز ، ولو لم يكن الا ساعة
واحدة ولو هاش الف عام ، وهو في ذل ، فليست
حياة الذل بحياة ..

ثم دعا في البيت الثاني الى العمل ، ورغض
التمني ، ودعا الى انتهاز الفرص ، واهتبال الاوقات ..
فبئس من كانت بضاعته الاماني ، وتمس من فرط في
الفرص واضاعها ..

وقال الشاعر الشعبي ابو حمزة العامري :

تابى من الطمع الزهيد نفوسنا
ومروجنا تابى من الفحشاء

نفوسنا ابية لا تقودها المطامع الى ذلعة ،
ومروجنا علة لا تستهويها الفحشاء .. ونعم الصلوات
صلواتهم .

وقال بركات الشريف :

نلا تمد تمدلاني لاني من وقومي بريما
لمن قبلكم خالفت بالنصح عدالسي

اروم الامور العاليات بهمة
ويمعني خذلان قومي واتلالسي

وجزت مجاج الارض شرقا ومغربا
على كل عيص تقطع البيد مرقال

وليس يلام المرء بمد اجتهاده
ولا يدفع المقدور حيلات محتال

ان من يتذوق هذا الشعر ، بعد دراسة ورياضة طبع ..
يجده ذلك الشعر الفصيح بيمينه ، بل يمتاز عليه شعر
البادية اليوم ، او الشعر الشعبي ، بانطلاقه من
بيئة عربي اليوم ، ومجتمعه ، وحمله طبع العربي ،
وصفته كما خلقه الله ، من غير تحمل ، ولا تعمل ،
حيث ينطلق من الغباء ، والمزرعة ، والريف ، والفلاة ،
والقرية ، والمسكر . الخ .. اما شعرنا الفصيح اليوم ،
فهو ابن المدرسة ، او المدينة المترفة ، او المجتمع
المحضّر ..

تعالوا نستقريء طاقة من شعر البادية ، ونطمس
خلالها صلتها بشعرنا العربي الفصيح :

قال الشاعر الشعبي ماجد القباني :

لما الناس الا من تراب معادن
وما طاب من تلك المعادن طابا

بيت من تصيدة شعبية طويلة ، قالها امرابي في شملته
انطلق ليها من سجيته ، وقرأها كما يقرأها غير من
رواة الشعر الشعبي ، ومريديه ، بلغة عامية دارجة ..
ولكن حينما تمود بهذا البيت الى اصله ، بصفتك دارسا
للشعر الفصيح ، ومنذوقا له ، الست تجده بيتا موزونا
متقى ، سليم اللغة بكر السبل يرمز الى حكمة نبوية
كريمة : الناس معادن كمعادن الذهب والفضة .. الخ .

ثم انرا للشاعر نفسه :

نديت على الدنيا شقا لو ندييه
على الدين ما مس النفوس عذاب

يقول نداب في طلب الدنيا ، دابا لو دابناه على
ديننا ، ما مس نفوسنا عذاب . جرى شاعرنا على
لغة من لا يهمز ، وتلب الهمة ياء ، كما هو شأن
الشعر الشعبي .

وللشاعر الشعبي راشد الخلاوي :

ولا يد الا يد الله موتها
ولا غالب الا له الله غالبه

كل يد مهما تويت فهناك يد اقوى منها ، هي يد
الله ، وكل غالب قاهر ، فالله اقوى منه ، وقادر على
قهره ودمره .

الى ان قال مادحا :

وعلى الغياري من علماء هذه الامة وأدبائها في
هذا الجيل مسؤولية حملها ايهم اسلامهم البسرة
الافياء ، الذين خلصوا هذه اللغة من كل شائبة
وربية ، ولم يزالوا توأمين عليها ، غيرا على حماها..
يلقون ما يخدم لغتهم بالنقد اللاذع ، ويتقبلون ما
يائفونه بالرد الموجه ، ويلاحقون الواغل الدخيل ،
كما يلاحق المجرم .. حتى وصلت الينا ..

نما هو موقفنا من هذا التراث الضخم ، في عصر
العلوم ، والفنون ، والمخترعات ، وعصر تواشج
الامم ، وتقاربها واندماجها .. وعصر التقليد والمحاكاة -
تقليد الاضعف للاقوى .. ان هذه الامانة تستهدفها هذه
التيارات ، وتنقصها من اطرافها ، وتنازعها البقاء ..
تريد منا غيرة ولا كغيرتنا على التراب ، والكبان ،
والمصالح ..

وتريد منا لغة البادية - وقد علمنا مكانتها من
لغتنا وتومنا - ان نتخذ الوسائل الكفيلة برمايتها ،
وحمايتها وجعلها منطلقا لحياء لغة الضاد ، سليقة
وطبعا ، في السواد الاعظم من بني جلدتنا ، على نحو
ما كان اسلافنا يفعلون ، في الاستفادة من لغة البادية ،
وطبعا ، وخشونتها ، ورجولتها ...
واننا ان شاء الله لنفاعلون .

فتى لا يرى الاموال الا ودائعا
لديه سوى سيف ورمح وسربال
وعدة بولاد ولدن من القنسا
وصلرا علنداة من الخيل مصهال

الستم معي في ان هذا الشعر الى جانب كونه
مصححا نصيحا ، فهو يحمل صورة حية من الجمال ،
ولفتات بارزة من المعاني الشعرية ، المؤثرة .. وانه
بهذا يمثل الشعر العربي الناصح ، رغم انه قيل
بالسليقة ، ونبع من البيئة العامية ؟ !

وبعد فهذه هي لغة البادية ، نثرها وشعرها ،
تبرز من خلالها سجايا هؤلاء الاعراب ، وتشف من
طباعهم الكريمة ، واخلاقهم المثلى ، وتنبئ عن الاصرة
التي تربطها بالصحى ..

لنا اذا لغة في بطون الاسفار ، نجتزها ، ونرجع
اليها ، ونصدر عنها .. تلتقي اخرى توارثتها السنة
الاجيال ، وتناقلها الخلف عن السلف ، وبقيت مصدرها
السليقة ، ومنطقها الطبع ، وحارسها الغيرة ..

الصِّراعُ بَيْنَ الفصحى والعاميةِ

أو أثر الازدواج اللغوي في أسلوب يوسف السباعي

الدكتور زكي عبد الملك

أستاذ الأدب العربي والعلوم اللغوية
جامعة يوتا (الولايات المتحدة)

واللغة الفصحى مشتركة بين العرب وإنما وجدوا
فالمغربي يقرأ ما يكتب في مصر فيفهمه ، والمصري
يقرأ ما يكتب في المغرب فيفهمه . أما اللهجات العامية
فتختلف باختلاف المناطق ، واستخدامها في كتابة
الأدب يحول بين الأدباء في كل منطقة وبين القراء في
المناطق الأخرى .

بقيت حجة أعرب عنها الدكتور محمد مندور
حين زعم أن العامية الدارجة تفيق عادة بالتعبير عن
أعمق المشاعر وأدق المعاني « بحكم أنها لا تزال
مقصورة على حياة الأميين الذين لا يستعملونها إلا في
التعبير عن حاجات حياتهم الضيقة في أنواع المشاعر
ودقة التمييز بينها ، فضلا عن عمق الخاطر أو
أصالته » (3) .

ولما ظهرت القصة الحديثة في الأدب العربي
ونشأ فن المسرح العربي الحديث ، أخذ بعض الأدباء
يتبرمون باضطرابهم إلى انطاق الشخصيات القصصية
والمسرحية باللغة الفصحى . وتساءل أولئك الأدباء :
أفليس عجيبا أن يجري الحوار بلغة فصحة متينة
السبك بين أشخاص لم يصيبوا من الثقافة كثيرا ولا
قليلا ؟ اليس ذلك مما يفسد القصة والمسرحية وبنائهما

في العالم العربي ازدواج لغوي قوامه اللغة
الفصحى واللهجات العامية الدارجة . فأما اللغة
الفصحى فتستخدم في أكثر الأغراض الكتابية كما
تستخدم في أكثر الأحاديث التي يفلب عليها الطابع
الرسمي . وأما اللهجات العامية فيستخدمها الناس في
غير تكلف لتضاه حاجاتهم العادية . والأغلبية الساحقة
من المثقفين في البلاد العربية يرون أن اللهجات العامية
لا تصلح للتعبير الأدبي ، ولهم في ذلك حجج يجدر بنا
أن نعرض لها في أيجاز :

وأهم تلك الحجج أن اللغة الفصحى لغة القروان
وعلى معرفتها يتوقف فهم القروان . لذلك تحمل علماء
اللغة فيما مضى ألوانا من المشقة وضروبا من العناء في
شرح قوامها (1) ، ولذلك يأبى المرء اليوم أن
يستبدلوا بها اللهجات العامية في كتابة الأدب فيقصوها
من حياتهم انصاء لا ندرى أتمود بعده أم لا تعود .

ثم إن اللغة الفصحى تعتبر عند العرب أوفى من
اللهجات العامية وأعلى ، وإثباتها دليل عندهم على
الثقافة العالية والدوق الرفيع . ليس فريبا إذن أن
يرد طه حسين جهل فريق من الشعراء بالفصحى إلى
الكسل والتقصير والتصور (2) .

- (1) « المقدمة » للعلامة ابن خلدون (القاهرة : مطبعة التقدم) ، الجزء الأول ، ص 455 .
- (2) « حديث الأربعماء » لطف حسين (القاهرة : دار المعارف ، 1957) ، الجزء الثالث ، ص 200 - 201 .
- (3) « المسرح النثري » للدكتور محمد مندور (القاهرة : معهد الدراسات العربية العالية ، 1959) ، ص 81 .

بهما عن الواقع الذي تجتهدان في تصويره ؟ ومع ذلك ظل أكثر الأدباء والنقاد يرون **اللغة الفصحى غير أداة للتعبير في المسرحية والقصة ، ويقاومون استبدال العامية بها ؛** فالدكتور محمد مندور مثلا لا يتردد في رفض الدعوة الى استخدام العامية في المسرحية ، وهو يعمل رفضه على النحو التالي :

« كل مسرحية انما هي حكاية حال ... ولا يمكن أن تكون حكاية لسان ، فالمؤلف لا ينطق لسان مقال شخصياته الروائية بل ينطق لسان حالهم ، والواقعية ليست في اللغة وانما في التصوير النفسي للشخصيات ومدى مطابقتها لهذا التصوير لواقع الحياة الظاهر منها والخفي ، والذي تستطيع الشخصيات التعبير عنه أو لا تستطيع . والذي يحدث فعلا هو ان المؤلف يمبر بلفته هو ولسانه ، وكل ما يطلب منه هو ان يأتي تعبيره صادق التصوير لواقع شخصياته . وسيان في ذلك - من الناحية الفنية - أن يستخدم لغة عربية فصحة أو عامية أو أية لغة أخرى » (4) .

والاديب المصري يوسف السباعي ممن يرون ان للعامية في القصة والمسرحية دورا يجب أن تؤديه . وقد عرضه ذلك لنقد عنيف رد عليه أكثر من مرة ثم تظاهر بالامراض عنه ، ولكنه تأثر به ما في ذلك شك ، فقد مر أسلوبه القصصي بمراحل ثلاث : كان في المرحلة الاولى أسلوبا جزلا فصيحاً يكثر فيه الاستشهاد بالشعر ويوشك أن يبرا من العامية . ومن خير الامثلة على أسلوب هذه المرحلة كتاب «اطياف» (القاهرة : مؤسسة الخانجي ، 1947) ، فانت تقرا فيه الصفحة تلو الصفحة فلا تجد من العامية (5) الا الفاظا قلائل متفرقة ، يدل عليها المؤلف ويميزها من بقية الالفاظ كأنه يعتدل منها الى القارىء : (6)

اني لم أرك منذ كنت تصطاد السمك على شاطئه الترمه « بالبنطلون القصير »

ما زالت ذاكرتك قوية « يا عم محمد »

سأجهز لك « سنارة » لصيد السمك .

(4) المرجع السابق ، ص 57 - 58 .

(5) اللهجة العامية التي استخدمها يوسف السباعي في قصصه هي اللهجة القاهرية .

(6) ص 82 .

(7) المثال الاول مقتبس من صفحة 25 والثاني مقتبس من صفحة 28 .

وقد تجد بين صفحات الكتاب احيانا ما يبعث في نفسك شعورا قويا بأن المؤلف يشق على نفسه في الكتابة ، ويتكلف من العناء شيئا غير قليل في اختيار الالفاظ حتى تستقيم له العبارة ويبرا أسلوبه من العامية : (7) .

— قم يا ابن الليمة . ماذا تفعل ههنا ؟ تالله لئن رايتك خطوت الى هنا مرة ثانية لادفن عنقك .

— لتقر عينك يا ابا لهب ، ولتهدا بالا . لتتخذن لك من دارى مأوى ومخبا .

وفي المرحلة الثانية تنقسم القصة من حيث الاسلوب الى قسمين : القسم الاول هو ما يقدمه السباعي نفسه بين يدي القارىء من تحليل ووصف للزمان والمكان والاحداث والشخصيات . واسلوب هذا القسم فصيح رغم ان الالفاظ العامية تتسرب اليه بين الجين والحين . والقسم الثاني هو الحوار ، واسلوبه عامي ليس فيه من آثار الفصحى الا الهجاء . ومن خير الامثلة على أسلوب هذه المرحلة كتاب « السقامات » (القاهرة : مؤسسة الخانجي ، 1952) الذي شرح السباعي في مقدمته موقفه من العامية :

« التقيت ذات يوم بالاستاذ احمد بك عباسي كبير مفتشي اللغة العربية بوزارة المعارف ، فانباني ان الوزارة كانت توشك أن تقر بعض كتبى لمدارسها لولا أن اللجنة المختصة رأت أن الكتب تحوي بعض عبارات بالعامية

« وعلى هذا فلم اكد أبدا هذه القصة حتى ذكرت وزارة المعارف ومطالبها التي تتفرع عن اللغة العامية، وعزمت أن اقيم سباجا منيعا يحول دون تسرب الالفاظ العامية التي تأبى الا أن تفرض نفسها فرضا في سياق الحديث . واخذت في الكتابة محاولا اجراء الحوار بين أبطال القصة باللغة الفصحى ، ولكني لم اكد أكتب بضع صفحات ، ولم اكد « أحصي » في الكتابة ، حتى وجدت أبطال القصة ينطلقون على الرغم مني في الحديث بالعامية ...

« ولست أشك أننا في فترة صراع بين العامية والفصحى »

« وهذه قصة يبدو فيها هذا الصراع بين الفصحى والعامية . ولا جدال هناك في أن الغلبة - في الحوار - للعامية ، لأنه من المستثقل الممجوج أن نحاول انطاق اشخاص القصة باللغة الفصيحة وهم لا يمكنهم في حياتهم الطبيعية أن ينطقوا بها . » (8)

واستثناء العامية بالحوار جاري في العبارات التالية التي نقتبسها من الكتاب : (9) .

— ما فيش لزوم يا شحاتة أفندي . أنا رايح القهوة بتاعتنا عشان عندي شوية شغل عايز اقصيهم .

— وماله . تقضي شغلك وبعدين نروح سوا .

بقي أسلوب المرحلة الثالثة ، وهو يفوق الاساويين السابقين في الاهمية لسببين :

أما السبب الأول فهو أن السبامي يلتزم ذلك الأسلوب في أكثر ما كتب من قصص ، ولعنه قد استقر واتخذ مذهباً دائماً . واذن فقد يكون ذلك الأسلوب النتيجة التي انتهى إليها الصراع بين العامية والفصحى عند السبامي . وما دامت خصائص الازدواج اللغوي واحدة في كل مكان (10) فقد يكون في أسلوب هذه المرحلة من الخصائص ما هو شائع في الاساليب القصصية وإنما يوجد الازدواج اللغوي .

وأما السبب الثاني فهو أن السبامي من أكثر العرب إنتاجاً ، فقد نشر بين عامي 1947 و 1968 خمسة وأربعين كتاباً ، منها خمس مطولات مسرفة في الطول هي : « رد قلبي » و « ناديا » و « جفت الدموع » و « ليل له آخر » و « نحن لا نزرع الشوك » . وأكثر قراء السبامي من الشبان الذين تبدأ حياتهم الأدبية عادة بتقليد ما يطالعون . وقد ظفر السبامي من ثناء النقاد (11) بما يفري القراء بتقليده ان كانوا في حاجة الى الإغراء ومنهم من يعجبون به إعجاباً يخرجهم من

طورهم أحياناً . (12) لن يدهشنا إذن ان يكتب عدد كبير من قصص المستقبل بأسلوب المرحلة الثالثة .

لهذين السببين يجدر بنا ان نحلل أسلوب المرحلة الثالثة في شيء من الإناة والتفصيل . وأول ما نلاحظه ان السبامي في تحليله ووصفه يصطنع أسلوباً فصيحاً تعترضه أحياناً ألفاظ عامية أو أجنبية كالالفاظ التالية :

برنيطة ، معيز ، بنج بونج ، دكة ، شلة ، شورت ، بوز ، تنس ، مد موازبل .

لكن الجديد حقاً في أسلوب هذه المرحلة هو ما تجده في الحوار . ذلك أن لغة الحوار ليست فصيحة صرفاً ولا عامية صرفاً ، وإنما هي بين بين ، تأخذ من هذه بمقدار ومن تلك بمقدار . ومن خير أمثلة على هذا الأسلوب كتاب « نادبة » (القاهرة : مؤسسة الخانجي ، 1960) . تفرد ذلك الكتاب فيخيل اليك ان الأشخاص يتخاطبون على فطرتهم بالعامية ، ولكنك تتامل ما يقولون فإذا أنت مضطر الى الاعتراف بان للفصحى اثرًا ظاهرًا لا سبيل الى انكاره . على هذا النحو يجتهد السبامي في التوفيق بين العامية والفصحى وهو يتوسل الى هذا التوفيق بأربع وسائل هي : اقتباس ، واصطناع كلمات « الطبقة الدنيا » ، وترجمة التعبيرات العامية الى الفصحى ، وتجريد الكلمات من علامات الإعراب . ولنفصل :

الاقتباس

يقتبس السبامي من الانجليزية والفرنسية عدداً غير قليل من المفردات ولكنه ، كما يتضح من الأمثلة التالية ، قل ان يقتبس العبارات :

هالو

ول

تيم

جمنزيم

بونجور

(8) ص 6 - 8 .

(9) ص 261 .

(10) Charles Ferguson, « Diglossia », Word, Vol. XV (1959), pp. 325-340.

(11) من هذا الثناء ما كتبه توفيق الحكيم في « يا أمة ضحكتم » ليوسف السبامي (القاهرة : مطبعة

روز اليوسف 1955) ، ص 5 - 8 .

(12) سجل يوسف السبامي شيئاً من هذا الإعجاب في كتابه « اني راحلة » (القاهرة : مؤسسة

الخانجي 1950 ، ص 10 - 15 .

غير أن ما يقتبسه السباعي من اللغات الأجنبية قليل إذا قيس بما يقتبسه من العامية . ذلك أن السباعي لا يقتنع في اقتباسه من العامية بالمفردات بل يتمداها ، كما ترى في الأمثلة التالية ، إلى التعابير ولا سيما التعابير المجازية والأمثال السائرة :

ماما	فحة	صبيطة
بابا	جاجة	يزفد
شمامة	فائلة	طس
زور	فتلة	

أمال سي (سي عمر)
الله ا ياربيت
اما (اما مفاجأة !) وماله

على سن ورمح - عيون فارغة - يفتح الله
لا هنا ولا هناك (أنا لا هنا ولا هناك)

جه نقبها على شونة

اكف الجرة على فمها تطلع البنت لامها

الله يخرب بيته - الله بعمار بيته - لا مؤاخدة

راح الله لا يرجمه - أشيل مين فيهم - راجل اليط
انت بنت مياعة - مياعة بنات - مش بطل - برك
على انفاسي - حاضر يا فندم .

ولمة نوع آخر من الاقتباس يتميز به الحوار في المرحلة الثالثة هو اقتباس التراكيب من العامية . ومن أمثلة ذلك :

(1) العطف بدون حرف عطف :
قومي البسي

(2) تكرار اللفظة للدلالة على الاستهتار :
شيوعيون شيوعيون

(3) مخالفة البديل للمبدل منه في التعريف والتشكيير :
هند دادة فاطمة

(4) استعمال الواو للدلالة على الاستمرار :
ثلاث ساعات وأنا واقف على قدمي

(5) مخالفة بعض الصفات للموصوف في التذكير والتانيث ، أو في الأفراد والتثنية والجمع :

فستان بمبة - زهور بمبة - ناس بلدي

ولنلاحظ أن السباعي في اقتباسه من العامية متأثر بالفصحى من حيث لا يدري . فما ينطق في بعض الكلمات العامية همزة يكتبه السباعي قافا ، وما ينطق في البعض الآخر دالا يكتبه ذالا :

نقبا - خذ بالك

اصطناع كلمات ((الطبقة الدنيا))

الكلمات المشتركة بين اللغة الفصحى والنهجة العامية القاهرية ثلاثة أنواع :

(1) كلمات لا تختلف صيغها العامية من صيغها الفصيحة ، ومن هذه الكلمات « كتب » و « درس » و « بلد » و « من » وهلم جرا .

(2) كلمات لكل منها صيغة فصحة وأخرى عامية : والصيغتان مختلفتان اختلافا يقرره قانون لغوي عام . فالصيغ الفصيحة « نائم » و « صائم » و « عائم » و « دائم » و « فوائد » تختلف من نظائرها في اللهجة القاهرية (« نايم » و « صايم » و « هايم » و « دايم » و « فوايد »)

اختلافا يقرره القانون اللغوي القائل ان المشتقات من مجرد الثلاثي الاجوف تكون عينها في العامية القاهرية ياء اذا كانت في الفصحى همزة .

(3) كلمات لكل منها صيغة فصحة وأخرى عامية : والصيغتان تشابهان الى حد وتختلفان الى حد ، ولكن ما بينهما من فرق لا يقرره قانون عام . فالفروق التي تميز الصيغ الفصيحة « رجل » و « امرأة » و « عربية » من نظائرها في اللهجة القاهرية (« راجل » و « مره » و « عربيه ») لا تقررها قوانين عامة .

ومن الكلمات المشتركة ما له مترادفات تنفرد بها الفصحى من دون العامية ، ومنها ما ليس له مثل هذه المترادفات : فالفعل « دوخ » مشترك بين العامية والفصحى ، وله مرادف فصيح لا تشترك فيه العامية هو « ارهق » . واسم الفاعل « صائم » مشترك بين العامية والفصحى كذلك ، الا أننا لا نجد له مرادفا تنفرد به الفصحى من دون العامية .

مضطجمة راقدة
يرهقونه يدوخونه

ترجمة التعابير العامية الى الفصحى

نصح الدكتور محمد مندور للقاصيين بترجمة اقوال العامة كلما دعت الى ذلك مشاكلة الواقع (13). وقد وفق السبامى الى نوع من الترجمة لا نؤم انه يرضى الدكتور محمد مندور ، ولكنه ابرز ما يتميز به الحوار فى المرحلة الثالثة .

يعمد السبامى الى العبارة العامية فيبقى فيها على النوع الاول من الكلمات المشتركة ، أما بقية الكلمات المشتركة فانه يستبدل صيغها العامية بالصيغ الفصيحة ، وأما الكلمات التي تنفرد بها العامية من دون الفصحى فانه يستبدلها بنظائرها الفصيحة . وفيما يلي بعض العبارات العامية ، والترجمة التي يستعملها السبامى ، والعبارات التي يؤثرها انصار الفصحى :

يمكننا اذن ان نقسم الكلمات الفصيحة الى ثلاث طبقات : طبقة عليا تألف من كلمات تنفرد بها الفصحى من دون العامية (مثل « حذاء ») ، وطبقة وسطى تألف من كلمات مشتركة لصيغة الصيغة ليس لها مترادفات بين كلمات الطبقة العليا (مثل « صائم ») ، وطبقة دنيا تألف من كلمات مشتركة لصيغة الصيغة لها مترادفات بين كلمات الطبقة العليا (مثل « دوخ ») .

وكلمات الطبقة الدنيا تتسم بطابع عامي مصدره وجود مترادفات لها فى الطبقة العليا . لذلك يزور انصار الفصحى عن كلمات الطبقة الدنيا ؛ اما يوسف السبامى فيتعمد اختيار تلك الكلمات ليلبغ ما يريد من التوفيق بين العامية والفصحى . وفيما يلي بعض ما يستعمله السبامى من كلمات الطبقة الدنيا ، وما يؤثره انصار الفصحى من كلمات .

كلمات الطبقة العليا

كلمات الطبقة الدنيا

انهضى

قومى

العبارات الفصيحة	الترجمة	العبارات العامية
معافى تماما	سليم اربعة وعشرين قيراطا	سليم اربعة وعشرين قيراط
معافى تماما	سليم مائة فى المائة	سليم ميه فى الميه
معافى تماما	كالجنن الازرق	زي الجنن الازرق
ضاع عليك الكثير	فانك نصف ممرك	فانك نص ممرك
ارهقني من امري مسرا	اراني نجوم الظهر	وراني نجوم الظهر
تنصب له اشراكها	تشتغل عليه	تشتغل عليه
امطاني اياها فى الحال	امطاهالي وانا واقف	ادهانسي وانا واقف
رمضان لا يعنيني فى شيء	لا يهنني رمضان	ميهمنيش رمضان
رجل طيب القلب	رجل امير	راجل امير
تأبين ما يشين	تعملين العملة	تعملني العملة
احتشمى	لمسي جسمك	لمسي جسمك
لا بد ان الثوب لا زال عند الكواء	لا بد ان الثوب لم يات من عند المكوجي	لازم الفستان ما جاش عند المكوجي

(13) « فى الميزان الجديد » للدكتور محمد مندور (القاهرة : مطبعة نهضة مصر) ، ص 55 .

انا احب مصام
أريد غيار لنادية
وضع الدكتور لها مرهم
اتظنين الرئيس جمال عبد الناصر فاضي ؟

يرى تشارلز فرغيسون ان « التخصص من أهم
مميزات الأزواج اللغوي » . (14) وهو يقصد بذلك
ان العامية قل أن تؤدي من وظائف الفصحى شيئا ،
وان الفصحى قل أن تؤدي من وظائف العامية شيئا .
ذلك حق ، ولكننا نرى مما سبق ان العامية والفصحى
تتنازعا في بداية الامر ، وان ما يكون بينهما من تنازع
على وظيفة بعينها لا يتمخض عن نصر حاسم الا بعد
مرور زمن قد يطول . فظهور وظيفة جديدة في الادب
العربي ، هي القصة الحديثة ، قد اثار بين العامية
والفصحى خصومة شديدة وصراعا عنيفا . وليس
أسلوب المرحلة الثالثة عند السبامي الا اثرا من آثار
هذه الخصومة وصدى من اصداه ذلك الصراع .

ونحن نصر على ان نقطة الانطلاق ليست المبارات
الفصيحة ، اي ان السبامي لا يعمد الى العبارات
الفصيحة فيختار منها اقربها الى العامية . ولو كان
ذلك مذهبه لما عثرنا في كتبه على تعابير مثل « رجل
امير » و « تشتغل عليه » لانها لا تؤدي في اللغة الفصحى
ما يقصد اليه من معنى .

تجريد بعض الكلمات من علامات الاعراب

اكثر الكلمات التي يجردها السبامي من علامات
الاعراب هي أسماء العلم ، وهو يجردها مادة من علامة
النصب ومن التنوين . غير ان السبامي احيانا يجرد
من علامات الاعراب ومن التنوين كلمات غير أسماء
العامية . وستجد في الجمل التالية امثلة على ما نقول:
العلم ، ولا سيما اذا كانت تلك الكلمات مقتبسة من

ساعود الى البيت لارى فاضل

لا بد ان اذهب لارى مصام

Charles Fergusson, « Diglossia », Word, Vol. XV (1959), p. 328. {14}



أساليب مناهج صياغة اللفظ في التعبير العربي

للدكتور باناهج رباكو (الاتحاد السوفياتي)
ترجمة الأستاذ فؤاد حمودة "الرباط"

وثمة خطر آخر يواجه اللغة العربية يتمثل في نقل المصطلحات الفنية انطلاقاً من اللغات الأوروبية وترجمتها إلى العربية . وليس يخاف أن معظم الكلمات المركبة والأوروبية الأصل قد استعارتها بحالتها الإنشائية الثابتة أي أخذت الكلمة بصورتها الأوروبية وكتبت بأحرف عربية . بالرغم من أنه كثيراً ما نجد أن الكلمة الأوروبية تلك إنما يتكون هيكلها من مزيج مركبين أو أكثر الأمر الذي ينتج عنه في بعض الحالات أن العديد من تلك الألفاظ لا يتواءم مقتضيات مفهوم الكلمات ومعناها . لا سيما وأن منها ما هو متعدد المعنى ، أي يمكن استعماله للدلالة على أكثر من معنى واحد فهي - والحال هذه - ليست محكمة الضبط للتعبير عن معنى بعينه ، مما قد يؤدي في النهاية - حال استعمالها بشام شكلتها الأوروبية معربة - إلى عدم تحديد مؤداها وما تستهدفه على وجه التدقيق - من معنى أو صفات وسمات مميزة تلك هي النتيجة المتسرة التي يؤدي إليها استعمال تلك الكلمات والتي مردها عدم أحكامها وتوثيقها والاقتصار على مجرد تغيير ملامحها باستبدال الحروف العربية بالأحرف الأوروبية . ولهذا فإنه لمن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن أي تركيب لغوي - يراد تحويله إلى كلمة مركبة أو تغيير لفي أو مصطلح علمي - يجب التيقن بادئ ذي بدء أنه يتوفر على صيغة متماسكة معينة كما يحتوي على مضامين مدققة فكما أن من شأن ذلك تلخيص هذا التركيب من خاصية تعدد المعنى وتكريسه للدلالة على مفهوم محقق ومضبوط ، فإنه من شأنه أيضاً أن يؤدي إلى

لم تزل صياغة الكلمات التي تعالج شتى مناحي الحياة الاجتماعية تشكل القضية العلمية التي تواجه المصطلح اللغوي أو الفني الحديث في اللغة العربية ، والتي لما يتوصل بعد إلى حلها .

إن مراجعة معاجم اللغة واستقراء المواد والنشرات العلمية لتعطي للقارئ فرصة الوقوف - بين الحين والآخر - على بعض المصطلحات الأوروبية الدخيلة .

وفي العصر الحاضر وخلافاً لما كان سائداً في المصور الوسطى فإن عدداً وافراً من تلك المصطلحات الأوروبية الغربية ، تحيد عن قواعد اللغة العربية من حيث الصرف والأعراب وفن تركيب الكلمات وضبط التهجئة بل وفي قواعد علم الأصوات والسمميات اللغوية ويتمثل ذلك في علوم الفسيولوجيا . والمتولوجيا . والجيولوجيا . . . الخ .

ولا مناص من القول بأن أقسام مثل هذه الكلمات في اللغة العربية من شأنه أن يهدد مستقبل تلك اللغة وعوامل تطورها ، فضلاً عما يؤدي إليه من بلبلة واضطراب في ضبط التهجئة وأحكام الإملاء وصحة اللفظ وصياغة الكلمات وأخيراً في قواعد الأعراب .

فإذا وفرت في الأذهان تلك الحقيقة العلمية فإنه يجب أن يكون التدرج في الأخذ بتلك الكلمات الأوروبية وفسح مجال لها في معاجم اللغة العربية ومراجعتها بكيفية محدودة للغاية .

تفهم صياغة الكلمات المتزاوجة وليدة هذا التركيب .
وهذا التركيب في اللغة العربية يطابق ما يسمى
بالمركب المزجي الذي يساير كل القواعد اللغوية .
وكما ان اساليب متنوعة قد استخدمت في انشاء
التركيب المزجي هذا فان طبيعة المادة التي هي
موضوع التركيب تسهم في الدور الذي يؤديه التركيب
المزجي في تشكيل علم الاصطلاح اللغوي لوضع الاسماء
العلمية ومصطلحات الفنون .

وتسود علم اللغات العربية آراء متضاربة فيما
يتعلق بكيفية تأليف تلك المصطلحات الفنية في نطاق
المركب المزجي .

وعلى ضوء ما هو ملموس لدينا يمكن القول بان
استيعاب المؤلفين لاسلوب صياغة المصطلح من خلال
المركب المزجي لا يركز على قواعد التحول او التطور
الدائي للغة العربية .

كما يبدو لنا انه في صدد صياغة المصطلح الحديث
- نجد لزاما علينا استخدام نماذج واساليب من تلك
التي كانت سائدة في العصور الوسطى والاستعانة بها .
ومن ثم ، فان النماذج يجب ان تكون - دون غيرها -
الانماط التي تمثلها اللغة العربية وتمتدي بحدودها .
كما ينبغي ان تكون الكلمات المركبة الوليدة متوائمة
وقوام الالفة العربية .

ويختلف تركيب هذه العناصر اختلافا جديرا
عن تركيبها في اللغات التركية والهند و - اوروبية

ولما كانت الكلمات المركبة يجب ان تتساوى مع
نماذج ثابتة محددة المعالم في بنية اللغة العربية فان
عملية المركب المزجي قد تتم بالاحتفاظ بحرف ساكن
أو حرفين من كل مركب وطرح ما تبقى من احرف ، أما
الاحاد المعجمية واللغوية فتتركب من عناصر مختلفة
بواسطة الإبقاء على ثلاثة أو أربعة حروف أو خمسة
- في حالات نادرة - تتشكل طبقا لقواعد قارة .

والتركيب المزجي الذي كان بمثابة حقل تزدهر
فيه صياغة الكلمات المركبة في العصور الوسطى قد
لا يكون هذا شأنه اليوم . وقد يكون العكس صحيحا .
اذ بمقارنة النماذج التي تؤلف فيما بينها المصطلحات
الحديثة في اللغة العربية المعاصرة مع تلك كانت سارية
في اللغة التقليدية - نلاحظ ان هناك توافقا فيما بينها
وقصورا في الصلة بين اللغتين في هذا المجال :

ففي العصور الوسطى كانت الكلمات المؤلفة في
سياق المركب المزجي تنشأ من ادغام اداة النفي (لا)
في الاسم أو اسم الفعل على الشكل التالي :

(لا + بد) = لا بد ، (لا + شيء) = لاشيء ،
(لا + أبالي + به) = لا أباليه ، (لا + مبالاة) =
اللامبالاة .

ويتبع هذا المنهج من مناهج المركب المزجي في
معاجم اللغة العربية نلمس انه لم يكن له نصيب وان
في صياغة الكلمات المركبة ، بينما نجد في الطور
المعاصر من اطوار اللغة العربية ان مثل هذه الصياغة
للمصطلحات الحديثة معتادة مألوفة .

وعلى ضوء هذه الحقيقة أقر المجمع العلمي
العربي بدمشق صلاحية العديد من الكلمات المركبة
طبقا للقاعدة المذكورة واجاز استعمالها في مجالات
الفلسفة والاحياء والطب والصيدلة الخ مثل :

اللا ادريه ، اللادينية ، اللاسياسية ، لا تعري ،
لا توبجي ، اللاتراوحي اللاتراول ، اللادماغية ، اللامقلة
اللامكوسية ، اللاجن ، لاسلكي ... الخ .

وهناك أيضا عدد من الكلمات المركبة نشأ من دمج
الاداة (ما) فيما يتلوها من كلام مثل :

(ما + هي + ية) ماهية ، (ما + جري) =
مجريات اوماجريات ، (قل + ما) = قلما ، (حيث + ما)
حيثما ، (لا + سي + ما) = لا سيما .

وهكذا نجد في اللغة العربية المعاصرة بعضا من
تلك المصطلحات الفنية في ميادين الفلسفة والصيدلية
وسائر فروع العلوم صيغت جريا على قاعدة دمج
حرف (ما) فيما يلحقه من كلمات مثال ذلك :

(ال + ما + لا + حرف) = المالايمرف .
(ال + ما + كشف) = المايكشرف ، (ما + فوق)
بنفسجي) = مايفسجي) .

وعلى أي حال فان استعمال تلك المصطلحات
الحديثة على النمط المشار اليه - ما زال يحدهو عامل
الندرة في الوقت الحاضر .

هذا وان استحالة التركيب اللفظي المستقل الى
مزيج لغوي قد لوحظت فقط بالنسبة للغة العربية
المصرية نتيجة لترجمة بعض المصطلحات الحديثة من
اللغات الاوربية مثل :

وبانعام النظر في التركيب الاخير (كباحد) يتضح ان اشتقاقه تالي من وصل الحرفين الاولين في كل من المركبات الثلاثة بعضها ببعض .

وتحتوي اللغة العربية القديمة على مسدد من النماذج لم تمهدا في العصر الحديث مثال ذلك ما تضمنه من كلمات مركبة تصاغ باضافة الحرف الاول الصامت من المركب الثاني الى المركب الاول مثل :

(مين + دم) - دمع حيث اخذت ع من عين واضيفت الى دم فصار دمع (خرم + شرم) - خرمش، اضيف الحرف ش اخذا من شرم الى خرم فصارت خرمش .

ويمكن متابعة نفس القاعدة في الكلمات المركبة التي يرجع اصلها الى اللغة الفارسية والتي صار استعمالها من قبل اللغة العربية مثل :

(لك مأخوذة من كاه . P = ق A + خورن = خورذن .) الخورنق A = خوردنكاه . P وليس ثمة جدال ان اللغة العربية كانت تشمل على الكثير من الانماط في كيفية صياغة الكلمات وان بحثا خاصا في تاريخ جذور اللغة العربية وصلتها بالالفات الاخرى التي كانت متأخية معها لبدو ضروريا للتعرف على ماهية هذه الانماط وتبيان معالمها .

ولقد استطاع اللغويون في العصور الوسطى ان يتعرفوا على العناصر او المركبات التي صيغت منها الكلمات التالية :

(برق + نقش - برقش ، (برق + رقع) = برقع الخ .

بيد انه من الصعوبة بمكان تحديد الاحرف الماخوذة من كل مركب في المثال السابق ، فبالنسبة للمصطلح الاول نجد انه يشتمل على الاحرف ب، ر، ق من الكلمة الاولى ، كما يشتمل على الحرفين ق ، ش من الكلمة الثانية . وايضا بصدد المصطلح الثاني نجد انه يشتمل على الحرف « ب » من (برق) والحرف «ع» من الكلمة الثانية . الا انه يعوزنا الاساس او الدليل حتى يتاتي لنا الجزم بان الحرفين (ر، ق) انما ينتسبان الى واحدة من الكلمتين دون الاخرى لان كلا الكلمتين تشتملان على ذات الحرفين فليس من وسيلة الى ارجاع كلا الحرفين الى الكلمة الاولى دون الثانية او العكس . وما يقال عن المصطلح الاول في هذه الحثية ينصب على المصطلح الثاني .

جيهوائي = حي بالهواء - airobic ،
الحلماة - التحليل بالماء = hydration يحلمه =
يحلل بالماء hydrolyse (to)

ويتبين من استقراء تلك الامثلة ان النهج الذي اشيع في صياغة تلك الكلمات المركبة كان باضافة الحرفين الاولى من المركب الاول الى المركب الثاني، وتلك القاعدة كانت متبعة من زمن بعيد في اللغة العربية تشهد بذلك الامثلة الآتية :

(مش « من شمس » + لوز) - شلوز ،
(شق « من شق » + حطب) - شتقطب ، (حب « من حب » + عب « من عب » - حبقر .

ونجد اليوم ان تلك الصياغة اضحت نسيبا مشمرا وان المصطلحات الحديثة التي صار تشكيلها على هذا النمط قد حظيت بموافقة المجمع العلمي العربي مثال ذلك ما تم اقراره منها مثل :

(حرارة + ماء) الحرمائي ، (بر + ماء) = البرمائية ، (تحت + تربة) التحتوية (شبه + بلور) = شباور ، (ماء + فول) - ماغول ، (شبه + فراء) شيفراء .

(لبنان + أرز - لبارز ، (حيسر + زمن) = حيزمن ... الخ .

فاذا ما كان الحرف الاول او الثاني في التركيبين همزة ساكنة فانها تحذف عند صياغة المركب المزجي: مثل : (رأس + مال) - رسمال .

وقد كان العديد من الافعال والصفات الموصولة تتم صياغته منذ زمن بعيد يرتد الى العصور الوسطى بوصل الحرفين الاولين من كل مركب على وزن تفاعل، فطل وقد كانت صياغة التركيب على هذا النحو اجدي في ابتكار العديد من التركيبات بالقياس الى غيره مثل :

(جملت فدالك) - جمعد ، (عبد شمس) = تمبشم ، (عبد القيس) = تمبقس ، (عبد الدار) - عبدري ، (امري القيس) - مرقسى .

ويظهر الكثير من تلك المصطلحات الحديثة في الادب العربي المعاصر مصوغا على نهج الامثلة السابق بيانها وقد حظيت هي ايضا بموافقة المجمع العلمي العربي عليها ومثال ذلك :

(أنف + لم) - أنفمي ، (بروم + حديد) = برحد ، (كبريت + أكسوجين + حديد) = كباحد .

وأنه من المتمدر تحديد النمط أو النهج الذي استعمل في صياغة مثل هذين المصطلحين الأخيرين أو التعرف على الأسلوب المتبع في تدبيرها . كما أنه يتمدر أيضا مقارنتهما أو القياس عليهما بالنسبة للمصطلحات اللغوية الحديثة التي تشكلت في اللغة العربية المعاصرة .

هذا ولا غرابة في أن وصل الحرف الأخير من الكلمة الأولى بالحرف الأول من الكلمة الثانية من شأنه أن ييسر عملية الاشتقاق وتوليد المصطلح المقصود بمعنى أن نهج هذا الأسلوب من خاصيته توفير الجهد وتخفيف المشقة في صياغة الكلمات المركبة . مثل :

حيز + من أو حيز + زمن أو (حيز + زمن) -
حيزمن .

وهناك عدد من التغيرات الحديثة في اللغة العربية المعاصرة تختلف عن المصطلحات المشار إليها في طريقة صياغتها وعن الأنماط التي يمكن اتباعها من أجل توليدها ، ويمكن تحديدها في النقاط التالية :

والتي صيغت من امتزاج المركبين (orthos + pteron) يتضح لنا أن الاختزال قد تناول المركبين معا وليس أحدهما فحسب كما بالنسبة لصورة الكلمة بالعربية السالف شرحها .

الكلمات المركبة التي تشير إلى طرفين الزمان والمكان والمترجمة حرفيا عن الأصل الأوروبي والتي صيغت من وصل المقطع الهجائي الأول من المركب الأول بالمركب الثاني مثل :

قبل التاريخ - قبتاريخ - وأصلها
الفرنسي ... Préhistoire

ثم الصفات المركبة التي تكونت من تواكب اسمين جغرافيين متساويين . ومما يميز هذه الحالة من الصياغة أن المركب الثاني من تلك الصفة المركبة لا يفقد قوامه الذي كان عليه قبل التركيب بحيث يبدو دائما وكأنه كلمة مستقلة تؤدي ذات المعنى الذي كان متعلقا بها قبل الصياغة والكلمات التي من هذا القبيل قد صيغت في العربية مرتكزة على حرف الوصل « ي » الذي استبدل بحرف O في اللغات الأوروبية مثل :

انجلو امريكي Ingilu : amriki

أفرو آسيوي Ifru : asilavi

أسيوي أفريقي asilu : afriki

هذا وإن استعمال التراكيب المتشعبة طبقا لهذه الحالة في الخطابة ولغة الصحافة قد حظى بقبول المجمع العلمي العربي في سنوات 1946 - 1947 الأمر الذي ثارت بسببه الجادلات والمساجلات بل وأحيانا مشادة بين العلماء .

وختاما لهذا البحث لم يبق إلا أن نقرر أن نشأة المصطلحات الحديثة في ظل المركب المزجي وانتشارها إنما يركز على الأصول الآتية :

أولا : من المسلم به أن الكلمات المركبة قد شاع استعمالها في اللغات الأوروبية وهكذا نرى الكثير من المصطلحات الحديثة التي ذاعت في الوقت الحاضر في شتى مجالات العلوم ، قد قامت صروحها على هذا التركيب . كما أن تلك المصطلحات الحديثة قد وجدت طريقها إلى اللغات الأخرى ومنها اللغة العربية ومن ثم كان ظهور الكلمات المركبة وفقا لأسلوب التركيب المزجي فيها .

ثانيا : أن المصطلحات المركبة هذه ليست بالشيء الجديد أو الغريب على اللغة العربية التي عهدهت أنماطها وطرق صياغتها ومناهجها منذ زمن بعيد وهذا ما يفسر تقبل اللغة العربية المعاصرة لهذه المصطلحات وتبنيها .

1 - التعابير التي تتكون من تزاوج كلمتين مثال :
(عرض + حال) - عرضحال ، (قائم + مقام) =
قائمقام ، (قبل + فكى) - قبلفكى ، (يا + نصيب) =
يانشيب .

فإذا ما كانت الهمة هي حرف استهلال المركب الثاني في مثل هذه الكلمات فإنه ، كقاعدة عامة ، تسقط من الحساب عند الصياغة كما تبين من الأمثلة التالية :
(حمض + أمين) حمضمين ، (غول + أثير) -
غولثير .

وأحيانا ما تجوز الصياغة بتألف الكلمتين بتمامهما معا مثل :

البادزهر ، يوسف أفندي .

2 - الكلمات المركبة من حرفي التصدير من المركب الأول والحرفين الأخيرين من المركب الثاني على وزن فعلل مثل :

(قل « من قلم » + بر « من حبر ») - قلبر .

والكلمات المركبة وفقا لهذا الاسلوب دخلت اللغة العربية من طريق استعارتها من اللغات الاوروبية بعد ترجمتها الى العربية وتشكيلها وفقا لما يتلادم وقوامها مما ادى الى تباين في كيفية صياغة الكلمة في اللغتين - (لغة الاصل واللغة الناقلة) - ففي كلمة مسجناحيات التي تانت من امتزاج المركبين (مستقيم + جناح) يلاحظ انه عند الصياغة قد جرى الاختزال بالنسبة للمركب الاول وحده في الوقت الذي ظل بمنأى عن المركب الثاني اي ظل هذا بكامل هيئته . بينما لو اتمعنا النظر في اصل كلمة مسجناحيات هذه في اللغة الفرنسية : orthoptères (1)

ثالثا : ان استعمال المصطلحات الحديثة يجب ان يكون بكيفية واضحة لا يكتنفها غموض .

رابعاً : ان استمارة تلك الكنمات المركبة من اللغات الاخرى ونقلها الى اللغة العربية حرفياً دون تعديلها بما يتواءم وقوامها تلك اللغة قد يضربها بل قد ينتهي الامر تدريجياً الى اسادها .

3 - الكلمات المصوغة من المقطع الهجائي المكون من حرفين من المركب الاول والحرف الاخير من المركب الثاني فتأتي الكلمة المشتقة على وزن فعليل مثل :

(كهرباء + مغنطيس) - كهروطيس .

4 - الكلمات المولدة من ربط المركب الاول بالحرفين الاخيرين من المركب الثاني وبدا تكون الكلمة الناتجة على وزن فعليل مثل :

(حمض + أسيل) - حمضيل .

5 - الكلمات المركبة من اضافة الحرفين الاولين من المركب الاول الى المركب الثاني - اي الحالة العكسية للكلمات المشتقة وفقا للاسلوب المتبع في البند السابق - ومثل هذه المصطلحات تستعمل في حالات المجمع مثل :

(جوف + معى) - الجومعيات ، (مستقيم + جناح) = مسجناحيات ، (شمال + غرب) - الشمفرييات .

(1) يبدو ان هناك نقصا في الاصل .



الشعر العربي

اللفظ عنصر من عناصر الحياة

يجب أن يتجدد باستمرار
الأستاذ إلياس فنصل ، بويونس أيريس

ترجمة الأستاذ محمد محمد الخطابي

تلقينا هذا البحث القيم من الأستاذ إلياس فنصل وهو عبارة عن محاضرة ألقاها حضرة الأستاذ باللفة الإسبانية من الإذاعة الأرجنتينية تحت رعاية المعهد الثقافي الأرجنتيني - العربي بعنوان : « تمهيد لمعرفة الثقافة العربية » وقد نشرنا الأصل في مكان آخر من هذا المسد

سنجد في الشعر العربي الجاهلي تعبير الروح النقية الصافية لمشاكل الحياة المصرية ، هذه الروح التي هي شبيهة « برادار » كفيل بالتقاط أقل ذبذبات القلق الانساني .

لقد كانت « الكعبة » التي تقع في مدينة « مكة » بمثابة المكان المقدس لدى القبائل العربية ، وفي مطلع كل عام ، كان يهرع نحو هذه المنطقة ، ذوو الوقار والمهابة من مختلف الميول والاتجاهات ، لإقامة تجمعات كبيرة ، كانت ذات موضوع مميز الا وهو الادب ، حيث كانوا ينشدون القصائد التي تخضع لتقد بناء ، ويحللون فيها تلك التي تتواءم وأهواء العامة ، وأجود هذه القصائد - أي التي كانت تحظى برضى الحكام الثقات - كانت تكتت على رفوف فاخرة ثم تملق على « الكعبة » . في هذا المكان الذي كان ينال احترام الجميع من شيخ القبيلة العظيم الى الرجل العادي المجهول ، كان في إمكان الجميع قراءة هذه القصائد ، وبهذه الوسيلة يصبح للفن والبلاغة شعائر وطقوس . ولما جاء الإسلام التي هذه العادة التي كانت تتضمن بعضا من الوثنية البدائية . وفي تلك الحقبة نفسها كانت تقام دعائم المباريات الأدبية التي ما زالت لها ردود فعل عديدة في الوقت الحاضر . لقد كان « سوق عكاظ » ضربا من « الأولمبياد » الفني ، كان يضم

ليس هناك شئ من بين الشعوب القديمة فاق الجنس العربي في تقديره للشعر ، ونستعمل كلمة « تقدير » ونحن على علم أنها لن تستطيع أن تعطينا التعريف القاطع للاحترام الذي كان يوليه العرب لفن الشعر .

البدييات على ذلك كثيرة ، فحتى تاريخ العرب في الجاهلية إنما هو تاريخ الشعر .

وكل ما نعرفه من أخبار الحقبة التي سبقت الإسلام جاءت مروية ضمن « القصائد » التي وصلتنا منذ ذلك العهد ، والتي ما زالت حتى أيامنا هذه موضع بحوث ودراسات مختلفة .

تلك القطع الشعرية الموضوعية على نسق واحد - التي جادت بها القرائح في عزلة الصحراء وفي لحظات الضيق الروحي - رغم القرون البعيدة - ما زالت تحتفظ حتى الآن بالنكهة التي تصور لنا حيننا موسيقيا نحو الأوطان .

وإذا استثنينا من هذه القطع الشعرية الكلمات التي فقدت مدلولها بمرور الزمن - ونحن نعتبر اللفظ عنصرا مجهزا من عناصر الحياة ينبغي له أن يتجدد بصفة مستمرة - أي إذا استثنينا الكلمات التي لم تعد تكتسب صبغة الحاضر - والتي هي قليلة جدا - فإننا

أحسن الشعراء ينشدون أمام الجميع آلاف من أجود القصائد المنتقاة . ودالما كان هناك مراقبون من « حكام الكلمة » التسمين بالنزاهة والانصاف ، يدلون بانكارهم القيمة ، والذين كانوا صريحين في آرائهم وموجهين في احكامهم ، وكانت القصائد المختارة بمثابة البرهان الكبير على عظيمة القبيلة التي ينتمي اليها الشاعر الفاتح .

ان الاسلام لم يضع حجر العثرة في طريق الشعر المزدهر - كما يزعم ذلك بعض المستشرقين ذوي النظرة السطحية المبلى - وانما جعل الاسلام حدا لعبادة الوثنية وحولها الى اهتماماته العادية ؛ ويحسن القول انه احل محلها معرفة فنية خالصة .

« حسان ابن ثابت » الشاعر العظيم الذي كان صديقا حميما للرسول « محمد » رافقه في مديد من فزواته ، وتفنى بانتصاراته ، كان النبي يوليه اهمية خاصة واضعا بذلك الشعر في مكانه المناسب من الاعتبار دون ان يسو به الى قمة الالوهية او يهوى به الى سفح الانحطاط .

وحيثما بسط العرب نفوذهم حول العالم طفر الشعر العربي طفرات جديدة ، تحول الى وسيلة لنشر الانكار ، وتمضيد قوى الفتح الجديد ، وتسخير الاتجاهات السياسية ، وانفلا في ثوب جديد من الثواب البيان ؛ تحول الى قاعدة للنشر والذيع ، وقام بالدور الذي تقوم به الآن الجريدة والمدىح والتلفاز .

كانت الامور غريبة ، بحيث يحدث ان نجد اثنين من الشعراء المرموقين ذوي نزعات متباينة وهما يجاهدان تحت سياسة واحدة ، ذات مصلحة عليا تم العالم العربي واماراته التي كانت تمتد من الشرق الى الغرب .

وكانت للمعركة ايدولوجيات مختلفة ، فاحيانا تكون معمقا ذات سلاح متنوع قاطع ، تكون الكلمة البليغة احده واخطره ، واحيانا اخرى تكون سخرية حرة من خلال تطاحن الكلمات ، الشيء الذي يوضح لنا بجلاء التمکن التام من اللغة ، ويبرز لنا - في ذات الوقت - الذكاء الخارق للعادة المسخر لخدمة المثل العليا .

سيطول بنا الحديث اذا عددنا الامثال ، وترجمنا القصائد ، او اذا شرحنا المواقف ، غير انه لا يد لنا ان نورد ثلاثة من الشعراء الذين يشكلون في رأينا - صروح القمة في الشعر العربي القديم .

انهم الوان مختلفة ذات قدرة بلاغية ، دعالمها الخيال الخصب ، والملاحظة الحازمة والحجة اللاطعة . ان دواوين الشعراء الثلاثة ما زالت تدرس - حتى ايامنا هذه - في المدارس ، وسوف تظل دائما موضوعات بحث وتحليل .

« المتنبي » الشاعر الذي اودع الخيال العربي في القصائد ، وهو الذي عين في امثال سيرة طريقة التفكير عند العرب ووسيلة تصويرهم للحياة وكل ما هو موجود فيها من سمو وقوة .

ككل عبقرى كان « المتنبي » يعد من المفتونين الاكابر الذين ينشرون - في كل مكان - اشعارهم وامثالهم بين الامعاء المتطرفين الذين كانوا ينتقدون على المتنبي كبريائه وغروره اللذين جاوزا كل حد .

لقد كان المتنبي ، في نظره الرجولية يمي جيدا طموح الماضي العربي ، كان تذكيرا متحمسا لوحدة العرب ، وواحدا من المبشرين بالقومية النقية من كل تعصب .

الشاعر الثاني هو « المعري » الذي كان ضربا مند طفولته البعيدة ، الرجل الواسع المتبحر العارف باحاسيس البشرية ، لقد كان فيلسوفا بالمعنى الدقيق للكلمة ، وكانت فلسفته متنوعة بحيث شملت كل انواع الاضطرابات وجميع مستويات العقل ، سواء كان يتخللها حزن متعاقب او يعلوها حدث سعيد . انه ساخر رقيق تكاد تكون سخريته غير مرئية ، ولقد كان يضمن سخريته هذه افكاره التي كانت تمارض ووجهات نظر الحكام .

وحسب البحوث الاخيرة الخالية من كل تعصب ، فقد تائر « دانتي » في كتابته لعمله الخالد « الجحيم » او (الكوميديا الالهية) - تائر « برسالة الففران » للمعري التي كانت مترجمة في ذلك العهد الى لغات مختلفة .

الشاعر الثالث هو « ابن الرومي » وهو الذي يكمل الثالث الحاكم في الشعر العربي ، هذا الشاعر الذي اثرى الشعر العربي بفنائه التي هي جديرة بكل اعجاب ، هذا الماشق الواله للجمال في جميع اشكاله ، لقد استطاع هذا الشاعر ان يسبر ابعاد افوار التفكير ، فطبع كل ذلك في قصائد حافلة بالحركة والحياة . لقد كانت عيناه المتلهفتان ابدا الى التقاط كل مظاهر الحياة ، بمثابة عدستين فوتوغرافيتين غاية

كل - القوالب المعقدة للحياة المعصرية ، ولا نجزم بأن الشعر العربي الحديث يسير في طريق محكم سهل توضحه بل انه قد تعرض لجميع المشاكل المتنوعة في حياتنا الراهنة .

ان المؤرخ النزبه الذي يؤرخ لتطور الشعر العربي المعاصر لا يستطيع الاستغناء عن ذكر - ظاهرة من ظواهر هذا الشعر - التي تكاد تنفرد بنفسها بين تواريخ الادب عامة . فاذا كان حقا ان الشعر العربي قد بلغ أوج عزه في موطنه الاصلية ، فانه لحق كذلك ان هذا الشعر قد اكتسب لمعانا واشراقا ملحوظين في بلاد امريكا .

ان مئات من الالاف المهاجرين وعلى الخصوص في الارجننتين والبرازيل - كان من بينهم شعراء كبار ، ساهموا مساهمة محمودة في الادب العربي .

ان سماء هاتين الجمهوريتين ، وجمهوريات اخرى قد جمعت تحتها كثيرا من الشعراء العرب الذين رفعوا عاليًا أمجاد اوطانهم النائية معبرين بذلك عن الحب الذي يكونه لبلادهم الام الكائنة وراء البحار ، ومشيدين - في نفس الوقت - بعظمة الاثر المكتوب

ان هؤلاء الشعراء البعيدين عن مساقط رؤوسهم والذين كانوا ملجمين من طرف قوات اجنبية ، قد وجدوا فرصة نشر قصائدهم الحماسية بعد ان هبوا لهم جو من الحرية ، كانوا يتوقون اليه من قبل .

لقد وجد هؤلاء الشعراء في المواطن الارجننتين الاخ الذي فتح لهم ذراعيه بحرارة وصدق - ونحن نقول هذا من تجربة - ووجدوا في الارجننتين نفسها الركن الذي رحب بهم اشد الترحيب ، وهو بالنسبة لهم ينبوع الهام لتفكيرهم وتاملاتهم .

بهذه الكلمات الختامية ، نقدم شكرنا عن هذا الكرم النبيل ، ونستأذن لنحمل لهذا الوطن الجديد تحية شعرية من اوطاننا الاصلية .. مرات تفوق الالاف .

في الحساسية تلتقطان ادق دقائق الامور ، باثنتين الحياة في كل الاشياء ، ان اوصافه لما كان يراه او يحس به او يجري ورايه - انما هي استمرار متوال من الصور التي تفوق كل شيء حيوية ونقاوة ولمعانا .

لم تتوان المرأة العربية في مشاركتها المحمودة في الشعر العربي ، لقد مررت الكثيرات ممن قرصن الشعر ، ولكي تتضح لنا مشاركة المرأة في عالم الفن نورد الحكاية التالية :

سال خليفة احد رعاياه المشهورين مرة فقال له :
— بلغني انك تستطيع ان تنشء الف قصيدة فهل هذا صحيح ؟ .

فاجاب الاعرابي :

— اجل يا صاحب المهابة ، ولكن هل تريدون ان اسمعكم الالف قصيدة من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ (1)

ان الشعر العربي المعاصر قد تأقلم مع طبيعة الحياة المعصرية ، مدفوعا بتجدد العقل العربي بعد ان عاش أحداث اربعمائة سنة من الضيق الخارجي محتفظا - في جوهره بكآبة خفية - عن اجياله الماضية .

ان الشاعر العربي المعاصر يقف حاملا بين اطراف قلبه حيرة يصعب تحديدها ، هذه الحيرة التي كانت تستولى على روح الاعرابي الذي كان عليه ان يقطع كل يوم صحاري لا نهاية لها ، محدقا في الافاق التي تنتهي عند خط مستقيم دون حافز للتساؤل .

ولا نفي القول بان الشعر العربي المعاصر قد احتفظ بماضيه المشرق ، ذلك لان « فن القول » في العالم قد تقهقر ازاء الاكتشافات العلمية الحديثة ، ولم تكن الثقافة تكتسب قيمتها من الخيال الفسيح ولا من الكلمة المؤثرة الجميلة ، ولكن رغم كل ذلك ما زال الشعر العربي يحتفظ - باصالته وقدرته الهائلتين - في عقل هذا الجنس ، وهذا عامل من الاهمية في شيء بالنسبة للنهوض العربي الفائق .

لا نقول ان الشعر العربي المعاصر يتميز بطابع معين يحدد هذا الشعر ، ذلك انه عائق كل - او تقريبا

(1) وفي رواية اخرى ان شاعرا زار شاعرا آخر ، فلما طرق باب بيته خرج خادمه ، فقال له : ان سيدي لا يستقبل الا من كان يحفظ - على الاقل - الف قصيدة . فاجابه الشاعر الزائر : اذهب وقل لسيدك هل يعني الف قصيدة من شعر الرجال أم من شعر النساء ! (المتروم)

الألقاب عند العرب والمسلمين

الشيخ طه الولي «بيروت»

في لغتهم الرجل الذي يفرق بين الحق والباطل . وكان عثمان بن عفان يعرف «بذي النورين» لرواجه من النتين من بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد اطلق على علي بن ابي طالب لقب «ابي تراب» هذا اللقب الذي قال قوم بانه من صنع خصومه الامويين لنزبه وتحقير شأنه بنسبته الى التراب كما قال قوم آخرون بانه من صنع شيعته الذين ارادوا به التمجير عن تواضعه وكثرة التصاق جبهته بالتراب للزامته الصلاة اثناء الليل واطراف النهار . ولعانا نستطيع ان نعتبر كلمة «صحابي» من الكلمات التي اصبحت لقباً على كل رجل ادرك النبي صلى الله عليه وسلم واجتمع اليه وآمن به كما نستطيع ان نعتبر كذلك كلمة «تابعي» من الكلمات التي اصبحت لقباً على كل رجل ادرك ، وهو مسلم ، واحداً او أكثر من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمع اليه .

ولكي لا نقف طويلاً عند عصر الرسالة النبوية والسنوات القليلة الأولى التي تلتها فاننا نأتي الى العصر الاموي الذي اختلف المؤرخون فيما نسب الى اركانه من الالقاب . فذهب قوم الى ان الخلائف من بني امية اتخذوا لانفسهم القابا . بينما ذهب قوم آخرون الى ان هؤلاء الخلفاء عرفوا باسمائهم من غير القاب اضيفت اليها او حلت محلها . وفي هذا يقول المسعودي في كتابه «الاشراف والتنبية» :

اذا اردنا ان نتحدث عن الالقاب عند العرب والمسلمين ، فليس لنا بد من طي السنين بله القرون والمودة باذهاننا الى صدر الاسلام اذ نجد بين المؤرخين من يقول بان الالقاب عرفت سبيلها الى العرب منذ هاتيك الايام . وبالفعل فاننا نعرف ان اول لقب اطلق بين يدي الاسلام كان ذلك الذي اطلقته قريش على النبي صلى الله عليه وسلم قبيل بعثته وهو «الامين» فلما كانت البعثة اصبحت لقبه عليه السلام : «رسول الله» وبهذا اللقب كان يخاطب الناس ويكتب رؤساء القبائل العربية وملوك الدول الاجنبية . وكانت كلمة «رسول الله» منقوشة على خاتمه الشريف الذي استعمله هو بنفسه كما استعمله من بعده ثلاثة من خلفائه الراشدين وهم ابو بكر وعمر وعثمان ، وفي عهد هذا الاخير سقط هذا الخاتم في يثر اريس وفقد منذ ذلك الحين كما هو معروف في التاريخ .

ثم ان كبار الصحابة رضي الله عنهم عرفوا كذلك القابا وافقت اسماءهم بل هي حلت محل هذه الاسماء في بعض الاحيان حتى ان بعض هؤلاء الصحابة عرفوا بالقابهم دون اسمائهم لدى المؤرخين فيما بعد ، وكان عبد الله بن ابي قحافة ابو بكر الخليفة الاول يعرف باسم «الصديق» الذي لقبه به النبي صلى الله عليه وسلم . وكان عمر بن الخطاب الذي تولى الامر من بعده يعرف «بالفاروق» الذي قيل ان قوما من السريان اطلقوه عليه لان معناه

« وقد رأينا بعض المتأخرين من ينحرف عن الهاشميين ، الطالبيين منهم والعباسيين ، ويتحيز الى الامويين ويقول باماتهم ، يذكر انه كانت لمن ملك من بني امية القاب كلقاب خلفاء العباسيين وذكر في ذلك روايتين :

احدهما : قال ، روى محمد بن عبد الله بن محمد القرشي ، قال حدثنا مصعب بن عبد الله عن ابيه عن جده ، قال ، حدثني سابق موسى عبد الملك بن مروان قال : « سمعت امير المؤمنين عبد الملك يقول : « تلقب امير المؤمنين معاوية بن ابي سفيان ، « بالناصر لعق الله » ويزيد بن ابي سفيان « بالمنتصر على الربيع » ومعاوية بن يزيد « بالراجع الى الله » ومروان بالمؤمن بالله » .

وبالثانية قال حدثنا ابو مطرف عن ابيه عن جده قال : تلقب عبد الملك « بالمؤثر لامر الله » والوليد بن عبد الملك « بالمنتقم لله » وسليمان بن عبد الملك « بالمهدي » لما احدث من قطع ما كان على المنبر ، وهده الى عمر بن عبد العزيز وتلقب هو « بالدامي بصنع الله » وسمي هشام بن عبد الملك « بالنصور » فلم يزل على ذلك حتى عهد ابيه يزيد فلقب بالتخير من مال الله . وتلقب الوليد بن يزيد « بالمكتفي بالله » ويزيد بن الوليد « بالشاكر لانعم الله » وابراهيم بن الوليد « بالتمزز بالله » ومروان بن محمد بالقائم بحق الله . وكان عبد العزيز بن مروان ، وكان ولي العهد ، يدعى على المنابر « بالمعظم لحرمت الله » وكان مسلمة بن عبد الملك لما بنى مدينة على خليج القسطنطينية سماها « مدينة القهر » وتسمى هو « بالقاهر بعون الله » .

على ان السعدي لم يكن مقتنعا بما نقل عن تنقيب ملوك بني امية فاردف قائلا على ما تقدم : ... ان الكافة على خلافه . فلو كان الامر على ما ذكر ، لظهر واشتهر واستفاض وجاء في الاخبار المتقولة القاطعة والاعمال المروثة . فلما لم يذكره الجمهور من حملة ونقلة السير والانار ولا دونه مصنفو الكتب في التواريخ والسير . من ذكر اخبارهم ووصف ايامهم من تولاهم او انحرف عنهم ، علم ان ذلك لا اصل له .. »

على انه ما ان ادبرت ايام الامويين واقبلت ايام العباسيين حتى اصبح لكل من هؤلاء الاخيرين لقب يرافق اسمه الى جانب « امير المؤمنين » واول من

تلقب منهم كان اول خلافتهم : ابو العباس المعروف « بالسفاح » واختلف الناس في تفسير هذا اللقب ، فقالت طائفة بان الرجل تنقب بالسفاح لكثرة ما سفح من الاموال في التمهيد لوثوبه بالدولة الاموية واحتلال مكانها في السلطان والحكم . كما قالت طائفة ثانية ان هذا اللقب التصق باسم اول خليفة عباسي بعد ان اكثر هذا من وضع السيف في اعيان بني امية سافحا دماءهم في سبيل تأييل ملك قومه بعد اجتنات كل اثر لاي اموي تتوهم قدرته على الثورة او التفكير في العودة الى دست الولاية .

وبقي بنو العباس على ما ابتدوا به من اعتماد الالتاق للخلفاء الى جانب اسمائهم الاصيلية الى اخر عهدهم بالخلافة حين انتقل السلطان سليم العثماني بالتوكل على الله اواخر الخلفاء العباسيين ، من مصر الى اسطنبول واضعاً بذلك حدا للعباسيين وانصارهم من سلاطين المالك في مصر والشام والعراق وباتي الجزيرة العربية . وهكذا كان اول القاب العباسيين : السفاح ، واورها : المتوكل على الله .

ففي اليوم الثامن من شهر محرم الحرام 923 هجرية (1517 م) دخل الاتراك العثمانيون مدينة القاهرة واصبح سلطان اسطنبول سيد الشرق العربي بلا منازع وافلت دولة المالك بغير رجعة . وفي ذلك يقول محمد فريد في كتابه « تاريخ الدولة العلية العثمانية » : « ومما جعل لفتح وادي النيل اهمية تاريخية عظيمة ان اواخر ذرية الدولة العباسية الذي حضر اجداده لمصر بعد سقوط بغداد مقرر خلافة بني العباس في قبضة هولاء كان التثري سنة 656 هـ (1091 م) وكانت له الخلافة بمصر اسما ، تنازل من حقه في الخلافة الاسلامية الى السلطان سليم العثماني وسلمه الانار النبوية الشريفة وهي البيروق والسيف والبردة وسلمه ايضا مفاتيح الحرميين الشريفين ، ومن ذلك التاريخ صار كل سلطان عثماني « اميرا للمؤمنين » و « خليفة لرسول رب العالمين » اسما وفلا . « ا . هـ .

غير اننا نجد في كلام محمد فريد عن انتقال لقب « امير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين » الى السلطان سليم العثماني وزواله عن المتوكل على الله العباسي ، مجرد استنتاج لا تدعمه الوثائق التاريخية لاسيما تلك التي كتبت من قبل المؤرخين الذين عاشروا تلك الفترة ودونوا وقائعها وتفاسيلها ، دون ان يدعوا من هذه الوقائع والتفاصيل لا شاردة

ولا واردة امثال ابن اياس الذي قال في كتابه «بدائع الزهور في وقائع الدهور» وهو من ادق ما كتب في هذا الموضوع . قال هذا المؤرخ وهو شاهد ميان :

« .. وفي يوم الجمعة سلخ سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة .. خطب باسم السلطان سليم شاه على منابر مصر والقاهرة ، وقد ترجم له بعض الخطباء فقال : « .. وانصر اللهم السلطان ابن السلطان ، مالك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخدام الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه . اللهم انصره نصرا عزيزا وافتح له فتحا مبينا ، يا مالك الدنيا والاخرة يا رب العالمين » .

وفي حوادث سنة 923 هجرية قال ابن اياس : « .. وفي يوم الثلاثاء ثاني عشر جمادى الاولى خرج امير المؤمنين المتوكل على الله قاصدا للسفر الى اسطنبول ، وخرج صحبته اولاد ابن عمه خليل وهما ابو بكر واحمد ، وخرج صحبته الناصري محمد بن الملاي علي بن خاص بك صهر الخليفة .. وءآخرون من الايمان ، فتوجهوا الى بولاق ونزلوا من هناك في المراكب ليتوجهوا الى نهر رشيد . فحصل للناس على نقد امير المؤمنين من مصر فاية الاسف وقالوا : لقد انقطعت الخلافة من مصر وصارت في اسطنبول ، وهذه من الحوادث المهولة .. الخ » .

يتبين من هذا النص ان السلطان العثماني لم يجرد المتوكل على الله من لقب الخلافة وينتقله لنفسه وان الناس لم يقولوا يومئذ بان الخلافة انتقلت من بني العباس الى بني عثمان ، بل كل ما حصل هو ان السلطان التركي المنتصر اراد ان يفرض الاقامة الجبرية على الخليفة العباسي في اسطنبول كيلا يشكل بقاءه في القاهرة سببا لاثارة الناس الى خلق المتاعب في وجه المهد الجديد ، وربما لتصبح اسطنبول مقرا رسميا للخلافة .

غير انه مما لا شك فيه ، ان المتوكل على الله كان ءآخر من حمل لقبى « الخليفة و امير المؤمنين » من العباسيين وان هذين اللقبين بقيا شاغرين لم يحملهما احد من ملوك بني عثمان الا ابتداء من السلطان محمود الثاني ، فان هذا السلطان وجد ملكه يضطرب تحت وطأة ثورات داخلية اضرم نيرانها بعض حكام العرب المسلمين تحت شعارات اسلامية فما كان منه الا ان واجه هذه الشعارات بالانتحاء الى

لقب الخلافة العظمى كي يفسد على الثالسين به خطتهم الدينية ويتقوى عليهم باللقب الذي كان ءآباؤه واجداده بغير حاجة اليه لتمكنهم من اسباب الغلبة والقوة العسكرية بحيث لم يكن لقب الخلافة عنصرا مؤثرا في هذه الاسباب من قريب او بعيد .

اما عندما كانت السلطة العثمانية في اوج مجدها فان لقب ، او بالاصح ، القاب ملوكها كانت كما نقلها فيما يلي من مقدمة الرسالة الجوية التي ارسلها السلطان سليمان القانوني الى فرانسوا الاول ملك فرنسا الذي استنجد به على حماية مملكته من عدوه شارلكان ملك اسبانيا وذلك في سنة 922 هجرية (1526 م) :

« الله العلي ، المغني ، المعطي ، الممين :

بمنابة حضرة عزت الله جلت قدرته وملت كلمته ، وبمعجزات سيد زمرة الانبياء وقدة فرقة الاصفياء محمد صلى الله عليه وسلم الكثيرة البركات ، وبمؤازرة قدس ارواح حماية الاربعة ابي بكر وعمر وعثمان وهابي رضوان الله تعالى عليهم اجمعين وجميع اولياء الله ،

انا ، سلطان السلاطين وبرهان الخوالمين متوج الملوك ، ظل الله في الارض ، سلطان البحر الابيض والبحر والاسود ، والاناضول ، والروملي ، وقرمان الروم ، وولاية ذي القدرية ، وديار بكر وكرديستان واذريجان والمعجم والشام ، وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وجميع ديار العرب واليمن ، وممالك كثيرة فتحها ايضا ءآبائي الكرام واجدادني العظام ، بقوتهم القاهرة اثار الله براهينهم ، وبلادا اخرى كثيرة افتحتها يد جلالتي بسيف الظفر ، انا السلطان سليمان خان ، ابن السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان ، .. الى فرنسيس ملك « ولاية » فرنسا .. وصل الى اعتساب ملجأ السلاطين المكتوب الذي ارسلتموه مع تابعكم فراقتيان النشيط .. الخ .. »

اما بعد ان هزمت الدولة العثمانية وتقطعت منها الاوصال بانفصال ما كان تابعا لها من الولايات الاوروبية واحتلال الاجانب لكثير من ولاياتها العربية في اسيا وافريقيا . بعد ان ءآل امر هذه الامبراطورية الى هذه النهاية المحزنة فقد اصبح لقب السلطان العثماني في ايام المغفور له ساكن الجنان عبد الحميد الثاني ، « السلطان العظيم والخالفان الاعظم ، امير

المؤمنين وخليفة المسلمين ومولانا السلطان ابن السلطان
الغازي عبد الحميد خان .»

حتى اذا استمر دولاب مرز العثمانيين في
تقهقره الى الوراة اخذت المدارس الحكومية في عهد
السلطان محمد رشاد الملقب بالخامس تلمم طلابها
لقب العاهل التركي كما يلي :

« جناب رب ، منان ، باديشاه ، خاقان البرين
والبحرين وخدام الحرمين الشريفين ، ولي نعمت
بي منت ، امير المؤمنين ، محمد رشاد افنديمير ،
حظرتلري .. »

وبآخر من حمل لقب « امير المؤمنين الخليفة
الاعظم » من ملوك بني عثمان ، كان السلطان محمد
وحيد الدين الملقب بمحمد السادس الذي اقاله مصطفى
كمال باشا من السلطنة ثم من الخلافة سنة 1923
ميلادية وبانتهاء السلطنة والخلافة من بني عثمان
اصبح لقب « امير المؤمنين والخليفة الاعظم » .. في
ذمة التاريخ على الرغم من المحاولة التي قام بها
الشريف حسين بن علي ملك الحجاز في بلدة
الشويك الاردنية حينما استدعى اليه بعض اميان
البلاد لمبايعته « خليفة للمسلمين واميرا للمؤمنين » .
وهي محاولة لم يخلدها احد في ذلك الحين على
محمل الجدد وسرعان ما تجاهلها المسلمون حينما
تناقلت اسلاك البرق الانذار الذي وجهته الحكومة
الانجليزية سنة 1922 الى حليفها بالامس القريب
الذي طمع في الحنول محل سلاطين بني عثمان في
حمل لقب « امارة المؤمنين وخلافة رسول رب
العالمين » .. وهي البرقية التي تقول للحسين بن علي
شريف مكة وسليل اشرفها :

« ان حكومة بريطانيا تصر بالحاح على وجوب
مفادرتكم العتبة ، ولا يمكنها ان تسمح بالبقاء اكثر
من ثلاثة اسابيع »

ومن العتبة الى قبرس ، ففي هذه الجزيرة
كان واخر المطاف باللاهث وراه لقب « امير المؤمنين
وخليفة رسول رب العالمين » وكان ذلك في سنة
1924 ميلادية .

ومنذ ذلك الحين .. لم يعد احد يحمل اعظم
الانقلاب الاسلامية : امير المؤمنين وخليفة رسول رب
العالمين ، بوصفه اعلى مرجع اسلامي في العالم .
وان كان ما يزال في بعض الاقطار العربية من يدعي

الى الان بلقب امير المؤمنين . كما هي الحال في
بلاد المملكة المغربية حيث لقب الملك فيها : امير
المؤمنين . وكما هو الحال في المملكة المتوكلية
اليمنية حيث بلقب امامها بامير المؤمنين . وكما هو
الحال كذلك في بعض الجماعات الدينية المنتشرة في
جنوب الجزيرة العربية حيث توجد بقايا الخوارج من
الطائفة الاباضية ببلاد عمان التي ما تزال تدعو امامها
بلقب امير المؤمنين .

وليس من شك في ان هذه البلدان وما فيها
من فرق وطوائف ، حيث تلقب عاهلها او رئيسها
بامير المؤمنين فانما تعني في الواقع انه « امير
المؤمنين الخاضعين بالفعل لسلطته السياسية في
حدود بلاده الجغرافية » . ومن الطبيعي انه لا يخطر
ببال احد ان هذا اللقب ينسحب في ايماننا على المعنى
الذي كان يحمله صاحب الخلافة العظمى الذي كان ،
ولو شكليا ، المرجع الاعلى لجميع المسلمين في العالم
على اختلاف بلدانهم وطوائفهم .

وها نحن الان ، ننتقل من لقب رئيس الدولة
في الاسلام الى بيان لقب الشخص الذي كان يليه في
حمل تسمات الادارة والاضطلاع بمسؤولية الحكم ،
وهو الشخص الذي تواضع الناس من اهل زماننا على
تسميته برئيس الحكومة او رئيس الوزارة .

قال القلقشندي : « كانوا في اوائل امر الخلافة
يمرون منه بالكاتب ، لا يعرفون غير ذلك كما اشار
اليه القضاعي في « عيون الاخبار » فلما جاءت الدولة
المباسبية ولقب ابو العباس اول خلفائهم كاتبه ابا
سلمة الخلال « بالوزير » استقر لقب الوزارة من
حينئذ ورفض التلقب بالكاتب » .

ولقد استعملت كلمة « الوزير » مستقلة ،
للدلالة على الرجل الذي يختاره الخليفة لمعاونته في
تحريك اطارات الدولة وتهيئة اجهزة الحكم
وعناصره . على ان كلمة « الوزير » لم تبق منفردة
لوحدها مدة طويلة ، اذ ان الشعراء ، ما لبسوا ان
اضافوا اليها لقباً يتقدمها ، زيادة في تعظيم حاملها ،
واشعارا للناس من خاصة او عامة ، بسمو المهمة
التي يمارسها . فقد نقل الراهب الاصفهاني في
محاضراته ان الشاعر جحظة البرمكي توجه الى
الوزير الذي كان في ايامه بقوله :

قل لوزير ادام الله « دولته »

اذكر منادمتي والخبر خشكار

اذ ليس في الباب بواب «لدولتكم»

ولا حمار ولا في الشط طيسار

فانصاف الشاعسر لقب «الدولة» الى لقب «الوزير» فاصبح كلا اللقبين متلازمين لا يكاد ينفرق احدهما عن الآخر منذ ذلك الحين الى ايامنا هذه ، رغم جميع القرارات « الثورية » التي صدرت في المهود الاخيرة ، بالفاء الالقاب وعدم استعمالها ، لاسيما في المكاتب الرسمية .

ثم ما لبث لقب الوزير ان اضيف اليه فيما بعد لقب اخر ، فكان ابو سلمة الخلال وزير السفاح يعرف بلقب « وزير مال محمد » ولما ولي المهدي ابن ابي جعفر المنصور مدة الخلافة، لقب وزيره يعقوب بن داوود بن طهماز « الاخ في الله » ، والمأمون بن هرون الرشيد لقب وزيره الفضل بن سهل حين استوزره « بلدي الكفائيين » كما لقب اخوه الامين وزيره الحسن بن سهل « بلدي الرياستين » .

وان ارباب السيوف من امراء الدولة العباسية وكبار مجالها ، اصابهم ما اصاب غيرهم من المدنيين في الادارة . فكان لقب ابي مسلم الخراساني « امير مال محمد » وقيل (سياف مال محمد) ولقب ابو الطيب طاهر بن محمد « ذا اليمينين » ولقب الخليفة المعتمد قائد مسكره حيدر بن طاووس «بالافشين» من حيث انه اشروسني والافشين لقب على ملك اشروسنة .»

والى جانب لقب دولة الوزير الذي كان يقال لمساعد الخليفة في نفس عاصمة ملكه فلقد عرف العهد العباسي لقباً اخر استحدث فيما بعد لاطلاقه على ممثل الخليفة ، نفسه في البلدان التي كانت خاضعة لسلطانه . ذلكم هو لقب « الاستاذ » واستاذ ، كلمة فارسية الارومة ، وكانت تكتب « اوستاد » ومعناها بلغة الفرس «معلم او سيد» وعن الفرس اخذها العرب بعد ان كثر بين الامتين التداخل والاختلاط بعد الاسلام .

واول ما استعمل لقب « استاذ » كان في العهد العباسي وذلك حين اطلق على نائب الخليفة في الديار المصرية والبلاد الشامية ابي المسك كافور بن عبد الله الاخشيدى ، الذي عرف باسم الاستاذ كافور الاخشيدى . وهو الخصي الاسود الذي اشتراه سيده ابو بكر محمد الاخشيدى بشمانية عشر ديناراً ورباه واعتقه قبل ان اصبح الحاكم المطلق باسم

الخليفة على مصر والشام وما اليهما من نفوذ وبلاد. والاستاذ كافور هذا هو الذي بالغ في مدحه المتنبى عندما كان طامعا في بره وصلته ثم عاد فسلطه باهاجيه المقدمة عندما وجد ان طمعه فيه كان في غير محله .

وقد استعملت كلمة «استاذ» في اوساط النحاسيين الذين كانوا يتعاطون تجارة الرقيق فكانت تتداولها الالسة في هذه الاوساط للاشارة الى مالك رتبة الملوك فكانوا يقولون: فلان استاذ الملوله الفلاني اي صاحبه ومالك رقبته بالرق ، ثم ما لبثت كلمة استاذ ان تطورت في العهد العثماني لاسيما في الهزيع الاخير من ايامه ، كما تطورت طريقة التلفظ بها . فلقد تحولت كلمة استاذ الى كلمة «لاوسطا» او «لاسطه» وبهذا الشكل الاخير ما زالت تلفظ في ايامنا . وقد اصبح لقب استاذ يطلق على ارباب الصنائع واصحاب الحرف اليدوية منهم على الاغلب . والمعاصرون من اهل مصر كثيرا ما يستعملون كلمة « اوسطا » بقصد المناذاة على الشخص الذي يجهلون اسمه ، وتقابلها في بلاد الشام سورية وفلسطين ولبنان ، كلمة « معلم » والفرض والمعنى، هنا وهناك واحد كما هو معروف .

على انه لا بد من القول ، بان كلمة استاذ قد تشعبت فيها اساليب الاستعمال في ايامنا حتى انها كثيرا ما غدت تطلق على الشخص العادي من الناس، ولو كان من سوقة القوم وصحاليكهم او حتى اراذلهم؛ كما انها تطلق كذلك على واحد من اثنين من ارباب السن الفكرية . المحامي الذي يتوكل للترافع عن اصحاب القضايا المدنية ومعلم المدرسة مهما كانت درجته من الثقافة او رتبته من الوظيفة .

وعلى الجملة فان كلمة «استاذ» هي اليوم « عمومية » الاستعمال بدون ضابط ولا ميزان ، من اي انسان لاي انسان .

ونعود الى القاب حكم الولايات والاطراف في الدولة العباسية ، فنقول : انه عندما تراخت قبضة السلطة المركزية التي كانت تمارسها بغداد في علاقاتها مع مجالها في الولايات والاطراف التابعة لها ، واستشرى نفوذ هؤلاء العمال واصبحوا يتسامون الى الانفراد بالسلطة في مناطقهم ، عندما اصبح الامر كذلك نزع منهم الى مشاركة الخليفة بمظاهر المسك من مراسيم والقاب حتى اصبح الخليفة يجد نفسه

وقد أصبح شبه مجرد من كل حول ومن كل طول ، ان ينزل عند رغبات هؤلاء الموظفين الكبار في دولته ، وأن يلبي رغباتهم ويحقق مطالبهم وأن يمنحهم من الألقاب السلطانية ما يتطلعون اليه راغبا أم كارها على حد سواء .

ويصف لنا ابن مسكويه في كتابه « تجارب الأمم » حالة الخلافة في تلك الأيام حين لم يبق للخليفة من آثار السلطان الا نقش اسمه على السكة والدعاء له فوق أهواد المنابر ، لا أكثر ولا أقل ، فيروي لنا هذا المؤرخ عن المطيع لله العباسي (سنة 361 هـ) انه لما سأل بختيار تزويده بالمال لأجل الغزو والجهاد ، أجابه الخليفة على طلبه بقوله :

« أن الغزو يلزمني اذا كانت الدنيا في يدي ، والي تدبير الاموال والرجال ، واما الآن ، وليس لي منها الا القوت القاصر من كفائي ، وهي في ايديكم وايدي اصحاب الاطراف ، فما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء ، مما تنظر الائمة فيه ، وانما لكم مني هذا الاسم الذي يخطب به على منابركم ، تسكتون به وعيائكم ، فان احببتم ان اهتزل ، اهتزلت من هذا المقدار أيضا ، وتركتكم والامر كله ! ... »

وهكذا ، لما أصبح لقب الخلافة في مثل هذا التفاهت والوهن ، وعدم النفوذ وقلة الجدوى ، اذا بالقب الحکم والسلطان تأخذ سبيلها الى اولئك العمال الذين هم من حيث المبدأ والوضع القانوني مجرد موظفين لدى الخليفة خاضعين لولايته في التعيين والاعزل والسلطة والصلاحيه .

ويقال ان اول من اتخذ الألقاب لنفسه من هؤلاء الموظفين هو الحسين بن قاسم بن عبد الله الذي لقبه الخليفة المكتفي « بولي الدولة » فكان هذا الأمير اول من لقب بالأصالة الى الدولة في الاسلام

ثم وافت الدلالة لآل بويه الديلم ، فسمى الحسن بن بويه بن فناخسرو الديلمي « بركن الدولة » وهو الذي كان صاحب اصهبان والسري وهمدان ، وجميع عراق المعجم ، واستمر في الملك اربعا واربعين سنة وشهرا وتسعة ايام ، ونحا نحوه في اتخاذ الألقاب ابناؤه الذين نسم عليهم الممالك التي كانت تحت يده اثناء حياته فتلقب ب« بولي الدولة » حتى ان اولهم فناخسرو اضاف الى لقبه « عضد الدولة » لقباً ثانيا طلبه من الخليفة الطائع لله ، وهو « تاج الملة » ثم انه لم يكتف بهذين اللقبين الساميين ،

وتطلع الى لقب ثالث ، يجعله فوق جميع اصحاب الألقاب من امثاله الماصرين له ، فتلقب بشاهنشاه (اي ملك الملوك) وامر خطباء المساجد ان يشركوه بالدعاء الى جانب الخليفة نفسه بهذا اللقب الاخير وهذا اللقب الذي كان الفقهاء يمانعون في اطلاقه على أي انسان ، مهما سما مركزه وقويت شوكته ، لما فيه من المعاني التي لا يجوز ان تقال الا لله عز وجل الذي هو جلت قدرته ، ملك الملوك وحده دون سائر خلقه من بني الانسان .

ولقد كان اطلاق اللقب على احد الحكام من قبل الخليفة ، يتم وسط مراسم حكومية تجري في غاية الابهة والفخامة ، فلقد حكى صاحب تاريخ الاسلام في اثناء الكلام من تلقيب عضد الدولة الذي اشرفنا اليه من قبل ، بتاج الملة :

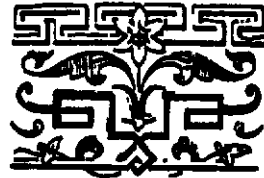
ان الخليفة ، الطائع لله ، جلس في هذه المناسبة على السرير ، وحوله مائة بالسيوف والزينة ، وبين يديه مصحف عثمان وعلى كتفه البردة ويده القضيب ، وهو متقلد سيف النبي صلي الله عليه وسلم ، وضربت ستارة بعضها عضد الدولة ، وساله ان تكون حجابا للطائع حتى لا تقع عليه عين احد من الجند قبله . ودخل الاتراك والديلم وليس مع احد منهم حديد .. ووقف الاشراف واصحاب المراتب من الجانبين ، ثم اذن لعضد الدولة ثم رفعت الستارة . فقبل عضد الدولة الارض ، فارتاع زياد القائد لذلك وقال ، بالفارسية : « ما هذا ايها الملك ، اهدا هو الله عز وجل ! » فالتفت اليه عبد العزيز ابن يوسف وقال له : « ففهمه » فقال له : « هذا خليفة الله في الارض » ثم استمر (اي عضد الدولة) يقبل الارض سبع مرات ، فالتفت الطائع الى خالص ، الخادم ، فقال : استدنه فصعد عضد الدولة ، فقبل الارض دفعتين ، فقال له ادن الي ، الى ان دنا وقبل رجله ، وثنى الطائع بيمينه عليه ، وامره فجلس على كرسي بعد ان كثر عليه « اجلس » وهو يستعفي ، فقال له ، اقم لتجلس ، فقال : عندي معلوم ، فقال ، نيتك موثوق بها ، وعقيدتك مسكون اليها ، فاواماً براسه . ثم قال له الطائع : قد رايت ان افوض اليك ما وكل الله الي من امور الرعية في شرق الارض وغربها وتديرها في جميع جهاتها سوى خاصتي واسبابي . فتول ذلك مستخيرا بالله ، قال عضد الدولة يعينني الله على طاعة مولانا وخدمته ، واريد وجوه القواد ان يسموا لفظ امير المؤمنين ، فقال

الله ، وانهاك عما نهاك عنه ، وإبراء الى الله مما سوى ذلك، انهض على اسم الله . »

ثم اخذ الطائع سيفا كان بين المخذتين فقلده به مضافا الى السيف الذي قلده مع الخلعة ، وخرج من باب الخاصة ، وسار في البلاد . . . »

والجدير بالذكر ، أن حكام الديلم من بني بويه المذكورين ، كانوا قدوة في هذا الباب ، لمن جاء بعدهم من أرباب الحكم في ولايات الإمبراطورية الإسلامية المباسية ، خارج بغداد ، فكثرت الاسماء التي التصقت بها الالقاب من مثل **صمصام الدولة** ، و**غضنفر الدولة** ، و**شرف الدولة** وما شابه ذلك .

الطائع : هاتوا الحسين بن موسى ، ومحمد بن عمر وابن معروف ، وابن أم شيبان ، والزينبي ، فقدموا . فأعاد الطائع لله القول بالتفويض ثم التفت الى طريف الخادم ، فقال ، يا طريف ، تفاض عليه الخلع ويتوج فنهض الى الرواق ، وألبس الخلع-وخرج فأومأ يقبل الارض ، فلم يطلق لكثرة ما عليه ، فقال له الطائع : حسبك ، حسبك ، وأمره بالجلوس ، ثم استلمى الطائع تقديم الويتة ، فقدم لواوين واستخار الله ، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعقدتهما ثم قال : يقرأ كتابه فقريء فقال له الطائع : « خار الله لك ولنا وللمسلمين ، أمرك بما أمرك



تطور الفكر العلمي وكيفية التقنيات بالمغرب منذ العصور الوسطى

الأستاذ: عبد العزيز بن عبد الله الرباط

التكد الموصلي وابن سينا والرازي وداخرين ونظمت صناعة الطب منذ عام 295 هـ (2) باترار الخليفة المتندر نظام الامتحانات فتخرج في عام 319 هـ وحدها ببغداد 860 طبيبا واجري اول امتحان للصيدلة ايام المعتمم عام 221 هـ واول مارستان بنى في الاسلام كان بالشام في عهد الوليد الأموي عام 86 هـ (3) ثم في مصر في عهد أحمد بن طولون وكان في المارستان المعضدي اربعة وعشرون طبيبا فيهم الكحالون والطبائميون والجراحون .

ومن اطباء الأندلس وصيادلته في هذا العصر ابن جلجل (وهو اعظم طبيب طبائمي) والوليد المدحجي الذي دخل الأندلس مع عبد الرحمن بن معاوية وهو طبيبه الخاص، وعبد المالك بن حبيب السلمي المرادسي القرطبي المتوفى عام 238 هـ ، واول من أدخل الطب الى المغرب هو اسحاق بن عمران وابن الجزار صاحب « زاد المسافر وتوت الحاضر » وهو أحمد بن ابراهيم بن ابي خالد المتوفى عام 395 هـ (4) ومحمد بن عبدون الذي اشرف على مارستان القاهرة ورجع الى

لقد استعرضنا مختلف العوامل التي كان لها اثر قوي او ضعيف في تطور الفكر واللغة بالمغرب ومن تلك المؤثرات العناصر الحضارية الاموية والقيروانية والاندرلسية ثم الثغانية من قرآن ولغة ودين وادب وتصوف غير أن نظرنا الى هذا التطور لن تتم ما لم نستشف من خلال البحوث والدراسات ذات الطابع العلمي ما أمكن للكيمائيين والرياضيين والطبائميين والاطباء والصيدلة والفلكيين والفلاسفة أن يسهموا به من آراء ونظريات ومصطلحات لبلورة اللغة العربية واستكمال تطورها في المغرب ، وبما أن المغرب الاتمى لم يكن يعيش في تفص متغل بالنسبة للشرق العربي وأنه دشن منذ القرن الثالث الهجري مع الأندلس عهد تبادل مكري اوثق فان من الضروري استكناه محتويات هذه الاواني المستطرقة (1) جميعها للتعرف على الهيكل العلمي ومقوماته ، فلي خصوص الطب والصيدلة والكيمياء المستجدة في المغرب الاتمى نلاحظ بان الأندلس ، وبالتالي المغرب ، كانا عالة على الشرق حيث ظهر امثال جابر بن حيان والحسن بن

(1) وهو يبدأ غاليلي Galilée المعروف بـ Vases Communicants

(2) (القطبي ص 130) .

(3) القرطبي في الخطط والاثار ج 2 ص 405 طبعة بولاق .

(4) صبح الأمتى ج 3 ص 337 .

الاندلس عام 360 هـ (5) وأبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي (6) .

ويظهر أن هذه العلوم بدأت تزدهر في المغرب الأيمن منذ هذا العصر حيث كانت جامعة القرويين وملحقها جامع الأندلس بفاس تدرسان الطب ضمن الكتب المتررة وقد أشار لوكلير إلى هذا الأزدهار (7) ولاحظ (8) أن المغرب أشد أقطار الإسلام عمقا من الناحية العلمية وهو يقصد المغرب الثلاثة وخاصة إفريقية ، وقد لاحظ القفطي (9) أن المعز الفاطمي نقل معه إلى مصر كثيرا من الأطباء المغاربة واشتهر تسطنطين التونسي آنذاك كطبيب ماهر وأسس مدرسة طبية منذ القرن الرابع (10) وكان القرنان الخامس والسادس الهجريان أبرز العصور العلمية في الأندلس المسلمة رغم الاضطراب الذي تخضع عن تدخل المرابطين ثم الموحدون وذلك بفضل العناية التي أولاها هؤلاء الخلفاء للعلم والعلماء، اذ يمكن القول - والدكتور لوكلير يؤكد هذا (ج 2 ص 72) بان الفكر لم يسبق له أن تحرر كما وقع في هذا العصر

وشهد بذلك نبوغ أمثال ابن طفيل وابن باجة وابن رشد (الذي هو أعظم فيلسوف أنجبته الأندلس) وبني زهر الذين توارثوا الطب طوال ثلاثة قرون وأعظمهم هو أبو مروان عبد الملك الذي يعتبره بعض المؤرخين أكبر طبيب تخرج من المدرسة العربية ، يضاف إلى هؤلاء الفاطمي (11) وأبو الصلت أمية ابن عبد العزيز الداني اللذان الفسا في تاريخ الطب الطبيعى وابن الموم (12) مؤلف « كتاب الفلاحة » الذي لا يوجد له نظير في الأدب العربي لما يحتوي عليه من معارف تطبيقية ووثائق تديبية ثمينة (13) بل هو أعظم ما أنتجه ، لا العرب وحدهم، بل حتى العصور التديبية (ص 110) .

وأصبحت هذه المصنفات أساسا دراسيا لرجال القرن المقبل أمثال ابن البيطار (14) المالتي وأستاذه ابن العباس النبطي وهما أعظم العلماء النباتيين العرب الذين وصلتنا مؤلفاتهم ولم ينجب الشرق في هذه الأثناء من أعظم العلماء سوى فخر الدين الرازي فاستطاع الأندلس بفضل شبكة علمائه أن يحمل راية الفلسفة والطب في العالم الإسلامي (15) .

- 5) يوجد الجزء الأول من هذا المخطوط في المكتبة الوطنية بالرباط وكذلك مختصر كتاب « الامتصاد » في الادوية المفردة لابن الجزار ومختصر الطب لابن حبيب المرديسي .
- 6) (النسخ ج 1 ص 444) والزهراوي هو صاحب (التعريف لمن هجز عن التأليف) وهم أعظم جراح عربي (لوكلير - الطب العربي ج 1 ص 334) امتدده مؤلفو الجراحة في المصور الوسطى وهو أول من ربط الشرايين ووصف عملية تفتيت حصاة المثانة ومالج الشلل واستعمل خيوط الحرير في الجراحة ويوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط جزء من هذا الكتاب (عدد 1427 د) الذي طبع بالهند وقد مات بعد الأربعمائة كما عند حاجي خليفة والحسن الوزان الذي أرخ وفاته بـ 404 هـ (موافق 1013 م) وهم كازيري Casiri الذي أكد في المجلد الأول من فهرسته (ص 137) أنه عام 500 هـ (لوكلير ج 1 ص 437) .
- 7) نفس المصدر (ج 1 ص 334) .
- 8) (ج 1 ص 407) .
- 9) في (أخبار العلماء بأخبار الحكماء) ص 75 .
- 10) (شهيرات المغرب) للكائوني وهو مخطوط نقل من كتاب حول (الإسبان بالمغرب الأقصى) لعالم فرنسي لم أتبين اسمه بوضوح في المخطوط المذكور .
- 11) هو أبو جعفر أحمد بن محمد وهو غير محمد بن قسوم الفاطمي صاحب « المرشد » في طب العيون ويوجد « كتاب الامشاب » للفاطمي في دار الآثار العربية وهو يحتوي على 380 رسما ملونا لنباتات وعتاتير وحيوانات متقنة الرسم .
- 12) هو أبو زكرياء يحيى بن محمد الذي لا نعلمه الا من خلال مصنعاته ويژهم كازيري أنه عاش في القرن السادس الهجري .
- 13) (لوكلير ج 2 ص 11) .
- 14) ابن البيطار توفي عام 646 أكل عتارا تانلا نبات من ساعته (نصح الطبيب ج 2 ص 874) .
- 15) (لوكلير ج 2 ص 72) .

والموحدين وسار معظمهم في ركاب هؤلاء الملوك الى المغرب حيث تفضوا بتيه حياتهم في العلاج وتدریس الطب - فاناد المغرب كثيرا من نكبة الاندلس .

ويظهر ان علوم الحكمة تقلص ظلها مؤقنا في عهد المنصور عندما حورب الفلاسفة حتى اضطر ابن رشد الى التخلي عن الخوض في ذلك ، والمنصور هذا وان كان لم يقصد اضهاد رجال الطب حيث اناط بابن زهر نفسه مأمورية تمتب الفلاسفة ثقة به الا انه عبد الى تدوين الاحاديث وترتيب الجرايات لحفظها فانتجه الناس اليها انجذابا للمادة فقل المعتنون بالحكمة والطب ، على ان اعتقال المنصور لابن رشد وابن جعفر الذهبي زاد الناس ريبه في مصير الفلاسفة والاطباء ولعل المنصور شعر بخطورة هذه التدابير فاعاد الحظوة الى الرجلين وكلف ابا جعفر بالسهر على مصالح الاطباء وطلبة الطب ، وتلك من المنصور محاولة لا بأس بها لتنظيم المهنة الطبية .

وقد أكد الدكتور رينو Reinaud أن المغرب لم يتم على وجه العموم بدور يذكر في العصر الذي كان الطب وبتية العلوم يتألق نورها في سوريا والعراق ومصر وحتى في اسبانيا المجاورة ، ولكن منذ اواخر القرن الحادي عشر وخاصة الثاني عشر الميلاديين - وهما أبرز عصور اسبانيا المسلمة - امتزج تاريخ الاندلس بتاريخ المغرب تحت راية المرابطين والموحدين « فكيف يمكن اذن أن نفضل بين دراسة الطب بالمغرب ودراسة حياة العلماء الذين انجبتهم الاندلس او الذين تكونوا في مدارسها ثم ساروا في أعقاب ملوك المغرب من اشبيلية او قرطبة الى ماس او مراكش او اغمات ، فللمغرب الحق اذن أن يتبش ابن باجة وابن طفيل وابن رشد « الخ (18) وكانت الحكمة تشمل آنذاك جميع

وبفضل الانبعاث العربي في الاندلس (16) صارت اوربا تنفض عنها اردية الركون واصبح المسيحيون يتوافدون على طليطلة للارتشاف من معين العلم وقد استنجد ريموند Raimonde اسقف المدينة بعلماء العرب لعلاج الفقر اللاتيني واذ ذاك بدأت ترجمة مصنفات العرب العلمية ، ثم ورد جيرار دوكرميون على طليطلة حيث استتر نحواً من نصف ترن نقل خلاله من العربية الى اللاتينية ستة وسبعين كتابا عربيا او افريقيا معربا .

وقد بدأت حركة الترجمة في افريقيا منذ القرن الرابع لهذا قسطنطين التونسي الصقلي قد أسس مدرسة سالرنة وهي أول مدرسة من نوعها في اوربا وكانت مبعث انوار الطب الحديث في العالم الغربي ، ولد حوالي عام 400 بتونس وحمل مخطوطات طبية الى سالرنة Salerno بقيت غذاء اوربا مدة ترون وترجم الى اللاتينية اهم كتب الطب العربي منها « زاد المسافر » لابن الجزار وكتب للرازي واسحق ابن سليمان الاسرائيلي والى نحواً من 24 كتابا في الطب منها قانون الطب في 12 مجلدا و « فياتيكوم » في الطب العام في سبعة اجزاء ومات عام 475 .

وكان القرن السابع في الشرق مصر ازدهار ثم انهيار نسبي للعلوم كما كان قبله القرن السادس في الاندلس ولكن لم يكد يمضي المقدم الاول من القرن السابع (17) حتى بدأ صرح العلم ينهار وطمسست الاضطرابات ذلك الرواء الذي تألق نجه منذ عهد الناصر الاموي طوال ثلاثة ترون .

نعم في العهد الذي كانت الاندلس خاضعة لسلطان مراكش تكونت - كما يقول لوكليز (ج 2 ص 340) جماعة من الاطباء التفتت حول ملوك المرابطين

- (16) وقد نبغ في القرن السابع امثال السويدي صاحب التذكرة المتوفى عام 691 هـ (يوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط مختصر للتذكرة لعبد الوهاب الشعرائي المتوفى عام 973 هـ في 141 ورقة) وابن ابي اصيبعة وجمال الدين القفطي (على بن يوسف المصري الوزير الملقب بالقاضي الاكرم المتوفى في عام 646) وعبد اللطيف البغدادي (المتوفى عام 629 هـ والذي امتاز في وصف اعشاب مصر) وابن النفيس المصري المتوفى عام 687 هـ والذي كان اعظم اطباء عصره وهو صاحب « كتاب الشامل » الذي لم يكمل المؤلف منه سوى 80 مجلداً من بين 300 (يوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط موجز قانون ابن النفيس لعلي بن ابي الحزم القرشي المتوفى عام 687 في 38 ورقة) .
- (17) اي بعد غزوة العقاب التي انهزم فيها الموحدون عام 609 هـ وكانت السبب في هلاك الاندلس كما يقول ابن مغازي في « البيان المغرب » (ج 4 ص 240) .
- (18) الطب القديم بالمغرب - رينو Reinaud نشرة معهد الدروس العليا عدد 1 ص 72 ابن القاضي (درة الحجال ص 117) .

الانتصاد (23) وهو اعظم من ابن سينا ولا يعدله سوى الرازي في الشرق .

وقد ترا عليه ابو الحكم ابن غلندو الاثبيلسي الشاهر عام 535 كتاب « الانتصاد » في سجن مراکش حيث مكث ابن زهر نحو العشر سنين . وكان ابن رشد يفضل ابن زهر على غيره من اهل مصره (24) . وقد نهج ابن زهر في كتاب « التيسير » اسلوبا جديدا في الحكمة القياسية مستخدما التحميم العقلي للوصول الى احسن النتائج فهو طبيب التجربة والتحميم العلمي وليس من صناع اليد كما يقول في « التيسير » ولذلك توصل بفضل قياساته الطبيعية وتجربته الشخصية الى الكشف عن امراض جديدة لم تدرس قبله فقد اهتم بالامراض الرئوية وأجرى عملية القصة المؤدية الى الرئة وتمكن هو بعد ذلك من تشريح القصة في مرض الذبحة لمعالجة المريض وقد اهتم في امراض الجهاز الهضمي واستعمل انبوية مجوفة من القصدير لتغذية المسابين بعسر البلع واستعمل الحتن المغذية واكتشف طفيلية الجرب وسماها سوابة كما بسط طرق العلاج القديمة واوضح ان الطبيعة — اذا اعتبرناها قوة داخلية تدبر

شعب الفلسفة والعلوم وان كان مفهومها سيقتصر في القرون الاخيرة عندما يضمف الفكر العلمي بالمغرب ليتصر على جزء من الطب هو الكعالة أو مرض الميون.

ويظهر ان ابا العلاء زهر بن زهر هو اول طبيب أندلسي ورد على المغرب بعد استيلاء المرابطين على الأندلس وقد كان طبيبا خاصا ليوسف بن تاشفين بعد ان كان طبيب المعتد بن عباد باشبيلية (19) ووالد ابي العلاء هو ابو مروان عبد الملك ابن ابي بكر محمد بن مروان بن زهر الذي تولى رئاسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان (20) وكانت له آراء شاذة في الطب منها منعه من الحمام اعتقادا منه بأنه يعفن الاجسام ويسد تركيب الامزجة (21) وقد تمخضت تجارب ابي العلاء في المغرب من تاليفه لكتاب « التذكرة » الذي ترجمه وطبعه كولان عام 1911 بباريس) وهو مجموعة من الملاحظات سجلها لولده ابن زهر لتعريفه بالادواء الغالبة في مراکش والادوية المناسبة .

وبعدما توفي ابو العلاء امر علي بن يوسف بجمع ملاحظات طبية اخرى كان ابو العلاء سجلها في أوراق وهي « التجربات » (22) وولده هو ابو مروان عبد الملك بن زهر خدم المرابطين مثل ابيه والى كتاب

(19) ذكر المراكشي في « المعجب » ان المعتد استدعى ابا العلاء لمعالجة « الرميكية » عندما كان أسيرا بأفمات .

(20) (النسخ ج 1 ص 445) .

(21) الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي أصيبعة ج 2 ص 64 — 66)

(22) جمعت بمراكش عام 526 هـ يوجد مخطوط منها في الاسكوريال (844) وقد ترجم جان دوكابسو التذكرة من العبرية الى اللاتينية (نسخة من مكتبة كلية الطب بباريس) ثم توالى التراجم عام 1280 والمطبوعات (عشر مرات بين 1490 و 1554) .

وتوجد الآن نسخة في مكتبة مدرسة اللغات الشرقية بباريس يرجع تاريخ طبعتها الى 1531 وهي تحتوي ايضا على كليات ابن رشد .

وهناك رسالة في امراض الكلى كتبها ابو العلاء لعلي بن يوسف ولا توجد سوى ترجمتها باللاتينية المنشورة عام 1497 كما يوجد مخطوط له حول الخواص بمكتبة بباريس ومنه استقى ابن البيطار خواص لحوم الحيوانات ، ولابن العلاء مقالة في شرح رسالة يعقوب بن اسحق الكندي حول تركيب الادوية .

وتوجد نسخة من (جامع اسرار الطب) لابن العلاء في المكتبة الوطنية بالرباط وهي تحتوي على 185 ورقة .

(23) لابراهيم بن يوسف اخي علي (يوجد منه مخطوط بباريس رقم 2959) وكذلك نسخة في الاسكوريال حسب رينو محررة بالعربية ومكتوبة بهروف عبرانية وخرغ من الكتابة عام 515 هـ .

(24) ابن عبد الملك في « الذيل والتكملة » .

شأن الجهاز البشري - تكفي وحدها في الغالب لعلاج
الادواء (25) .

الذي يقتبس منها في « جامع المفردات » . ومن تلامذة
ابن باجة سفيان الاندلسي المتوفى عام 537 الذي كان
أحد أطباء علي بن يوسف وتعاون مع شيخه ابن باجة
في تأليف كتاب التجريبتين (31) .

ومن الاطباء الذين نبغوا في هذا العصر : ابو
جعفر بن هارون الترجالي طبيب يوسف وهو تلميذ
المعاري في الحديث وشيخ ابن رشد في التعاليم والطب
وكان عالما بصناعة الكحل (طب العيون) (32) .

أما الوليد ابن رشد فاهم مصنفاته كتاب الكليات
الذي طلب من ابن زهر اعداد ملحق له (33) في
الجزئيات لتكون جملة كتابيهما كتابا كاملا في الطب، وقد
نتم عليه المنصور وأجبره على المقام باليسانة الآهبة
باليهود قرب ترطبة وقد اقترح ابن رشد في شرحه لابن
سينا ما يعنه الاطباء اليوم وهو تبديل الهواء في
الامراض الرئوية ، أشار الى جزيرة العرب وبلاد النوبة
كمراكز شتوية (34) .

والحنيد أبو بكر بن مروان كان طبيبا شاعرا متين
الدين خدم الدولتين اللبثونية والموحدية (هيد المومن
ويوسف ويعقوب والناصر) تولى عام 596 هـ بمراكش
الف « الترياق الخسيني » ليعقوب المنصور ودرس اليه
ابن يوجان وزير المنصور السم هو وابنة أخته وكانت
هي وأمها عالمتين بالطب لاسيما في امراض النساء
وتدخلن الى نساء المنصور (26) وكان أبو بكر يحفظ
صحيح البخاري (27) ولم يكن في زمانه أعلم منه باللغة
وكان يحفظ شعر ذي الرمة وهو ثلث لغة العرب (28)

أما أبو بكر محمد بن يحيى ابن الصائغ المعروف
بابن باجة (29) فهو شيخ ابن رشد ، وقد استوزره
أبو بكر يحيى بن تاشفين مدة عشرين سنة وكان يشارك
الاطباء في صناعتهم لمحسوده وتلقوه مسموما عام
533 هـ (30) . ولم يصلنا شيء من المؤلفات الطبية
النسوبة لابن باجة ولا يعرف الا عن طريق ابن البيطار

(25) (حضارة العرب) جوستاف لوبون ص 530 من الطبعة الفرنسية . وقد وهم كودار مزعم في كتابه
حول تاريخ المغرب (ص 452) أن أبا مروان ابن زهر يهودي ثم أكد أن ابن زهر استعاض بالمنهج
التجريبي والطريقة العقلية من التقليد في ممارسة فن الطب وكانت له عبقرية فذة تطورت بفضلها شمس
ثلاث حاول توحيدها وهي الصيدلة والجراحة والطب العام .

(26) (ابن أبي أصيبعة ص 67) .

(27) (الانيس المطرب) (ج 2 ص 180)

(28) (المطرب لابن دحية) .

(29) المتولى بفاس (ابن أبي أصيبعة ج 2 ص 63)

(30) وقد زعم مونك أن ابن رشد لم يتلمذ لابن باجة الذي مات عام 1138 (525 هـ) أي عندما كان لابن
رشد 12 سنة وابن أبي أصيبعة كتب تاريخه بعد وفاة ابن رشد بأربعين سنة .
(مزيج من الفلسفة اليهودية والعربية ص 420) .

ويذكرون أن وفاته كانت سنة 533 هـ بفاس فيكون قد أتبع بذلك لابن رشد ان يتلمذ له .
كما خطأ عمر فروخ في كتابه « ابن طفيل وقصة حي بن يقظان » ص 31 « المراكشي » حينما زعم أن ابن
طفيل ترا على ابن باجة » .

وأضطرب الفتح بن خاتقان في ابن باجة حيث نسبته في الثلاثد للتعطيل وانحلال العقيدة وحلاه في
« مطمح الانفس في ذكر رجال الاندلس » بالخير والدين والاستقامة (والسولة ج 3 ص 262) .

(31) (لوكلير تاريخ الطب العربي) (ج 2 ص 79)

(32) ابن أبي أصيبعة (ج 2 ص 75) وذكر ابن عذارى في « البيان المغرب » (ج 4 ص 49) ان الخليفة
أبا يعقوب اعتل عام 573 فموتت عليه الاطباء في الاندلس للمعالجة الى ان وجد الراحة » .

(33) وذكر أيضا ان أبا يعقوب لما خرج في الغزوة التي مات اثرها بالاندلس كان الاطباء الحاضرون لديه
هم ابن زهر وابن مقبل وابن تاسم (ج 4 ص 70) .

(34) (حضارة العرب جوستاف لوبون ص 531 من الطبعة الفرنسية) .

وابن رشد هو أول (35) من أشار إلى الدورة الدموية وعللها في كتابه « الكليات » الذي استمد منه ويليام هارفي William Harvey معظم نظرياته . وهناك أطباء آخرون ينيف عدد البارزين منهم على المشيرين ، ازدهر بأبحاثهم القطاع العلمي في عهد المرابطين والموحدين (36) نخص بالذكر منهم عالمين اثنين من سبته هما علي بن يقطان الطبيب الشاهر الذي زار مصر عام 544 هـ ثم اليمن والعراق ، وابن سمعون أبو الحجاج يوسف بن يحيى (37) الذي كان طبيبا ليهون أمير حلب ولملك مصر الظاهر ، وذلك علاوة على ابن الرومية النبطي الاشبيلي أحمد بن محمد بن مخرج المعروف بابن العشاب الذي رحل إلى الشرق عام 614 (38) بعد ما درس اعشاب الاندلس والمغرب واتبس منه تلميذه ابن البيطار ذوقه الخاص وعلمه الواسع، وكان لرحلة ابن البيطار إلى المغرب أثر قوي في نقل المصطلحات البربرية إلى معجمه العربي الجديد الذي أصبح المرجع الأساسي في الشرق وخاصة بمصر حيث عين ابن البيطار رئيس المشابين (39) .

ومن أبرز من ظهر في هذا العصر أيضا الشريف الإدريسي الذي صنف كتابه «الزهوة» في الجغرافية عام 548 هـ (1154 م) ووضع كرة مضية للعالم جعلت منه أستاذ أوروبا كما شحن كتابه في الأدوية بنتائج تجاربه الشخصية الثمينة ، هدت الطبائمي الشرقي الكبير ابن البيطار إلى الانتباس منه في مائتي موضع من كتابه في الاعشاب (40) والامتناد عليه وحده في ثلاثين موضعا مع الإشارة إلى أسمائها بالبربرية . ويتجلى من هذا المرض أن العلوم ازدهرت في المغرب الأقصى إلى القرن السابع وانصهرت معطياتها ومفرداتها في

بوقة مع مصطلحات الشرق العربي عدا غروقي ترجع إلى اللون المحلي كالفانبات والازهار والاعشاب العقاقيرية التي تحمل أسماء خاصة متأثرة بالعقائير الجهوية ونضرب مثلا لذلك بالجوزة الصحراوية التي عرفت في المغرب بهذا الاسم بينما عرفت في كل من الشرق والجزائر بجوزة الشرك (41) وقد استعمل الطبيب هرون بن اسحاق ابن عزرون في أرجوزته التي استدرک ليها على الحميات الواردة في أرجوزة ابن سينا (وهو من رجال القرن الرابع عشر في عهد عبد الرحمان الثالث) نحو ثلاثين كلمة مغربية أندلسية بدل مقابلها الفصح منها :

- تين مكة (اخضر)
والحلحال (= اسطوخودوس)
والمقربان (= اسقولونديريون Scolofendre)
والناسوخ (= أشق)
(Gomme Ammoniaque
وشيبة العجوز (= امستين Absinthe)
والمجينة (= اكليل الملك Mellilot)
وحبة حلاوة (= أنيسون Anis)
والرجلة (= بقلة حمقاء Pourpier)
ويربوز (= بقلة يمانية) Blette)
وحبق الأترج (= ترنجان Basilic citronnelle)
والصمصام (= خلاف Saule ou Peuplier)
والجزر البري (= دوتو Carotte sauvage)
والناعم (= بزر الرازيانج Graine de fenouil)
والبرستم المكور (زراوند مدحرج)
(Aristoloché ronde
والهندبا (= سريس Chicorée)
والحمودة (= ستمونيا Scammonée)

- (35) ابن النفيس المصري ، اكتشف الدورة الدموية الصغرى وهي الدورة الرئوية قبل الغربيين بثلاثة قرون (نشرة المعهد المصري ج 26 عام 1934 - بحث بقلم ماكس مايرهوف ص 33) وقد أشار ابن النفيس إلى ذلك في « الكتاب الشامل في الطب » الذي كان يحتوي على 300 مجلد وقد أهدى مؤلفه منه 80 مجلدا لمستشفى قلاوون .
(36) تحدثنا عن جيمهم في كتابنا « الطب والاطباء بالمغرب » المطبعة الاقتصادية 1960 بالرباط .
(37) القنطري ج 2 ص 160 و 193 و 256 .
(38) توفي عام 637 هـ وصنف كتابا في الحشائش رتبته على حروف المعجم وناق أهل زمانه في معرفة النبات (نفع الطيب ج 1 ص 635) وتلميذه ابن البيطار هو أعظم نباتي العرب الذي تارنه لوكلير (ج 2 ص 225) بالفانقي والشريف الإدريسي ورشيد الدين الصوري والنبطي .
(39) نفع الطيب ج 2 ص 683 .
(40) لوكلير Leclert (ج 2 ص 680)
(41) ابن البيطار في « جامع المفردات » وعبد الرزاق الجزائري في « كشف الرموز في بيان الاعشاب » (طبعة الجزائر 1903 و 1917) .

— الجفن — الحاجب — الحبو — والحدبة — حك
الورك (أي حك وهو مغرز رأس الفخذ) حلقوم —
حنجرة — خرطوم — أما في عموم الحيوان فنذكر من
المفردات :

الحيوان — البغل — الجبج (خلية النحل)
والجمل والحمار والبرغوث والبق والنحل — والبموض
والنساج والتيس — والشمبان — والحية — والحنش
والانمى — والجحش والجراد والجرثومة والجرو
والجماد والحجل — والحدأة ، والحرجة (جماعة الفم
والابل) والحظيرة والحلس والحوار (ولد الناتة)
والحوت والحولي — والحيتان (الدراج) (الحيقون
في زعير) وختل الصياد — والخروف والدلن —
ودوارة البطن (أمعائه) والديك — والذباب — والدب
— والخيل — والخيال — والخطاف — والخناش —
والخنفساء الخ .

أما في عصر المرينيين فإن الملكة العلمية تضاملت
وصار حفظ النصوص هو الغالب لا في علوم الآلة
كالنحو أو علوم الشريعة بل حتى في المنطق والحساب
والطب وسائر العلوم العقلية (42) ويظهر أن هذه الآلة
الفكرية قد أصابت بشلل جزئي تطاعات علمية في
الشرق حيث بدأ عصر الانحطاط العلمي في القرن
الثامن وبداية التاسع على أثر السيول الجارفة التي
حطمت في طريقها معالم الدنيا تحت أمرة جنكيز خان
وتيمورلنك ، وإذا كان ابن بطوطة قد تحدث لنا عن
المدرسة النظامية التي كانت ما زالت قائمة البنيان فإن
أساتذتها وطلبتها اندرسوا وقد لاحظ لوكليز أنه أمكن
في هذه الفترة تسجيل نحو الأربعة عا لما نصلهم من
الاندلس لا يوجد من بينهم طبيب مشهور لقلة الطرارة
والاكتفاء بالجمع والتأليف (43) .

ويرى بعض المستشرقين أن جامعة فاس التي
ظلت تدريس الطب بكتب أبقراط وجالينوس وديوجينيس
المعربة لم تكن لتعتمد جامعات العواصم العربية
الأخرى (44). والواقع أن الفكر العلمي بدأ يتحجر
ليجهد على النصوص الظاهرة بالرغم مما يقال من

والحبق القرنفلي (= شاهسبرم Petit basilic)
ومشيشترو أو (= نمناع Menthe فونذج)
وحب الملوك (= تراسيا Cerise)
والكروية البرية (= تردمان Carvi sauvage)
وقصة الحية (= تنطوريون Centaurée)
والشمع الأبيض (= Cire blanche = موم)
وغير ذلك .

وكان النباتيون يسمون الشجارين والحشائشيين
بالشرق بينما يعرفون بالعشابين في المغرب ومنهم ابن
المشاب المعروف بابن الرومية .

ولعل العامية المغربية من أغنى اللهجات العربية
الدارجة في مصطلحات العلوم بالرغم من وجود مرادفات
بربرية ولنضرب لذلك أمثلة مقتبسة من معجمنا في
« الأصول العربية للعامية المغربية » .

ففي خصوص الأعشاب والأزهار : بابونج
(بابنوج) — بسباس (المعجم الوسيط) مقدونس
(معدنوس ترغلس) — الترنج (الكباد بالشام) —
ترياق (دواء للسموم) الجلبان — حب الرشاد —
الحرف — الججلان — جلنجين — الجوز — الباذنجان
— البهيرة (البستان) — برقوق — أجاص — البصل
— العنصل — الفول — البطيخ — البرسيم — التبن —
الثوم — الحطب — الحرمل — الحشيش —
الحلبة — حلفاء — حماض — حمص — حناء — حنظل
— خبيزة — خزامى — خس — خشفاش — خشاش
— خوخ — خيار — ذرة .

وفي العلوم : التوتيا — الجلود (الصخر) —
الجدول — الجذري — الجذام — الجذر — الجليد —
الحادور (المكان المنحدر) — الحارة (الفضاء) —
حامض الرثة أي مر النفس — الحبل (حمل المرأة)
والحرقة والحصاحص (الأرض الحجرية) — الحكة
والحراج — والخنان والدمل الخ .

ومن أعضاء الجسم : بمصوم (عظم بين
الابيتين) (المعجم الوسيط) جمجمة — أنف الأنف

(42) « نشر الثاني » ج 2 ص 97 « وسلوة الأنفاس » ج 1 ص 74 نقلا عن كتاب لعلي بن ميمون
النسفي .

(43) كتاب الطب العربي لوكليز (ج 2 ص 258) .

(44) ليفي بروفنصال Lévy-Provençal (هسبريس Hesperis عام 1952 ص 3) ولوكليز « الطب
العربي » (ج 1 ص 575) وقد وصف كل من الرحالة باديا ليليش المعروف بعلي العباسي والدكتور
رينو Renaud (الطب القديم بالمغرب ص 77) مدينة فاس بأنها أئنة إفريقيا أي شبيهة بعاصمة
الفكر اليوناني بأوربا .

وجود مدرسة للطب في سلا (45) ومن ظهور دراسات مغربية حول علل وطرق علاج «الطاعون الاسود» (46) الذي ظهر في منتصف المائة الثامنة .

وأبرز من ظهر من الاطباء انما عاشوا في اوائل عهد المرينيين امثال ابي العباس الشريفي السلوي الذي قرا الطب في الشرق على ابن بنان (47) ومحمد ابن خليل السكوني الذي صنف في الخواص الطبية والكليات في الاغذية والبيطرة ومن ركوب الخيل وتدبير الحروب (48) .

اما في القرن الثامن فان العلماء أصبحت لهم مشاركة محدودة مثل احمد ابن علي المياني المراكشي الذي جمع بين الشعر والكتابة والطب (49) بينما كانت لهذه المشاركة سمة الضلعة والعمق عند النبطى مثلا الى اوائل القرن السابع حيث كان الى جانب اختصاصه في علم النبات اماما في الحديث حافظا نابتا .. « لوجود القدر المشترك بين صناعتى الحديث والنبات اذ موادهما - كما يقول ابن الخطيب في الاحاطة - الرحلة والتقييد وتصحيح الاصول » ، وقد شملت المشاركة جوانب شتى عديدة من العلوم والتقنيات اهمها الرياضيات والهندسة والهيئة . وكان العرب اساتذة النهضة الاوربية في الحساب (50) وقد مند سيديو Sedillot (51) ما زعمه بعض المستشرقين من ان علماء العرب انما اقتبسوا من الاغريق مشيرين الى ما ابدعه الفكر العربي في هذا المجال مثل ادراج الخطوط الماسة للدائرة Tangentes في الحسابات ، والاستعاضة عن الاساليب المعقدة بحلول مبسطة أصبحت اساسا في حساب المثلثات الحديث Trigonométrie

وقد لاحظ العالم ثال Charles انه كان للعرب فضل التفكير في تطبيق الجبر على الهندسة ،

وتأكد ذلك بعد ان نشرت مؤلفات محمد بن موسى الخوارزمي منذ عام 1836 م من طرف روزن Rosen

ومن بينها بحث في الجبر حلت مشاكله في المعادلات الثلاثية بطرق هندسية، ويقال بان الخوارزمي هذا لم يحل سوى المعادلات من الدرجة الثانية Equation de 2° Degré وان الذي حل معادلات الدرجة الثالثة هو عمر ابن ابراهيم (52) ولعل لفظي الخوريتم واللوفريرت مشتقتان من اسم الخوارزمي الذي يعتبر اقدم الرياضيين العرب حيث عاش في عصر المأمون العباسي. ونقلت كتبه في الجبر والمقابلة الى اللاتينية ، وقد ابدع العرب في علم المثلثات نظرا لتطبيقاتها في علم الفلك .

واسهم الغرب الاسلامي اي المغرب الكبير والانفلس في بلورة هذا الاشعاع العلمي العربي نظير ابن حمزة المغربي في القرن الرابع واستعمل طرقا جديدة في اللوفريرت ، واشتهر في الانفلس ابو عبيدة مسلم بن احمد ويحيى ابن يحيى المعروف بابن السبينة وابو القاسم اصبح بن السمع (له تاليف منها المدخل الى الهندسة في تفسير اقليدس ، وكتاب كبيسر في الهندسة) وابو القاسم ابن الصغار وابو الحسن الزهراوي (كان عالما بالعدد والطب والهندسة له كتاب شريف في المعاملات) وابو الحكم عمر الكرماني (من الراسخين في العدد والهندسة) وابو مسلم بن خلدون (كان متصفا في الفلسفة والهندسة والنجوم والطب) وتلميذه ابن برفوث (اختصاصي في العلوم الرياضية) وتلميذه ابو الحسن مختار الرمياني (كان بصيرا بالهندسة والنجوم) وهبده الله بن احمد السرقسطي (ناقد في الهندسة والعدد) ومحمد بن الليث (بارع في العدد والهندسة) وابو هي القرطبي

(45) ورد في الجزء الاول من سلسلة « مدن المغرب وقياته » المتعلق بالرباط ونهايته (ص 32 و 225) ان « المدرسة البوعنانية » المنسوبة الى ابي عنان المريني بسلا كانت « مدرسة للطب » ونسب ذلك الى « الاستقما » الذي لم يشر اليه عند تعرضه للمدرسة (ج 2 ص 151) .

(46) الطب القديم بالمغرب - رينو - ص 47 .

(47) توفى بالفيوم عام 641 هـ (الاعلام للمراكشي ج 1 ص 351) .

(48) توفى عام 646 (الاعلام ج 3 ص 145) .

(49) جذوة الاتباس ص 73) .

(50) كويي Gautier في كتابه « عادات المسلمين واهرامهم » ص 238 .

(51) تاريخ الطب العربي - لوكليز ج 1 ص 320 .

(52) « حاضر العالم الاسلامي » (ج 1 ص 151)

وأبو عمران موسى بن حسن بن أبي شامة من
أهل المعرفة بالبناء والهندسة وهو صانع « البيلة » و
« الخسة » بصحن القرويين عام 599 هـ (58).

وفي عهد المرينيين ظهر كثير من المهندسين ، ففي
عام 674 هـ خرج يعقوب المريني إلى ضفة وادي فاس
« ومعه أهل المعرفة بالهندسة والبناء » توقف على
المدينة البيضاء (فاس الجديد) وشرع في حفر
أساسها (59).

ومن هؤلاء العلماء :

محمد بن عبد الله المعروف بابن حجلة شيخ ابن
البناء في الحساب (60).

ويوسف بن أحمد بن حكم التجيبي قاضي الجماعة
بفاس أخذ عنه ابن البناء الحساب والتعالم (61).

ومحمد بن علي المعروف بالشريف أستاذ ابن
البناء المراكشي الذي كان يذاكره مسائل من كتاب
الاركان لاتلديس (62).

(بصير بالهندسة ، رحل إلى مصر عام 442 هـ) وأبو
الوثابي الطليطي (الهندسة) (النسخ ج 2 ص 874)
ومن العلماء الذين برزوا في الهندسة والرياضيات
بالمغرب الاتصفي في مختلف العصور : أبو بكر بن
الصايغ المعروف بابن باجة Avempace له تعاليف في
الهندسة (53).

والحاج يعيش الذي صنع لعبد المؤمن ابن علي
مقصورة من الخشب لها ستة اضلاع تسع أكثر من
الف رجل وقد وضعت على حركات هندسية ترفع بها
لخروجه وتنخفض لدخوله (54).

والمهندس عبيد الله بن يونس الأندلسي الذي
استخرج المياه التي تسقى بها بساتين مراكش بصنعة
هندسية (55).

وأبو جعفر بن الحسن بن أحمد بن حسان
القناضي الذي كان عالما بالهندسة وسائر التعالم (56)

وعبد الله بن حجاج المعروف بابن الياسمين
الناسي وهو بربري توفي بمراكش عام 600 أو
أوائل 601 هـ وتوجد نسخ من أرجوزته في الجبر
والمقابلة بخزائن باريز وبرلين وأكسفورد والإسكوريال
والقاهرة (57).

53) توفي بفاس (« عيون الانباء في طبقات الاطباء » لابن أبي أصيبعة ص 63) وكانت ولماته عام 533 هـ
(الاعلام للمعبس بن ابراهيم المراكشي ج 8 ص 6) .

54) فإذا قرب وقت الرواح إلى الجامع يوم الجمعة دارت الحركات بعد ربع البسط من موضع المقصورة
تنتقل الاضلاع في زمان واحد ولا يفوت بعضها بعضا بدقيقة ، وكان باب النبر مسدودا فإذا قام
الخطيب ليطلع عليه انفتح الباب وخرج النبر في دفعة واحدة بحركة واحدة لا يسبح لها حس ولا
يرى ، وذكر القري في النسخ ان آثار هذه المقصورة كانت باقية عام 1010 هـ .

55) نزهة المشتاق للادريسي ص 67 من الجزء المطبوع حول أفريقيا والأندلس .

56) انتقل إلى فاس حيث توفي في حدود ستمائة (الجذوة لابن القاضي ص 72) .

57) ومن شرح الأرجوزة حسب بروكلمان ابن الهائم المصدري المتوفى سنة 815 هـ (وهو مخطوط
بأكسفورد والقاهرة) والقلصادي وهو « تحفة الناسمين في شرح أرجوزة ابن الياسمين » (مخطوط
بخزانة مكتب الهند بلندن والخزانة العامة بالرباط) وسبط المارديني المتوفى سنة 900 ويسمى
« اللعة الماردينية في شرح الياسمينية » (مخطوط ببرلين والقاهرة واسطنبول) وله أرجوزة في أعمال
الجذور توجد بخزانة الإسكوريال (راجع بحث الأستاذ محمد الفاسي مجلة رسالة المغرب 1942
(السنة الأولى - عدد 1) ومن شرح الأرجوزة سعيد المقباتي التلمساني الملقب برئيس المتفلاء
(نيل الابتهاج ص 106) .

58) (الجذوة بين 37 و 57) .

59) (السلوة ج 3 ص 145) .

60) الجذوة ص 76 .

61) الجذوة ص 346 .

62) توفي عام 682 هـ (الاعلام ج 3 ص 192) .

في الحساب عارف بالمنطق والهندسة (من أهل القرن
الثامن) (69) .

ومحمد الشريف التلمساني من علماء الحساب
والهندسة والهيئة ، كان لسان الدين ابن الخطيب اذا
الف تأليفا بمثله اليه وطلب منه أن يكتب عليه بخطه (70)
وجمال الدين المارديني خليل بن يوسف المهندس
المتوفى عام 872 هـ (71) .

ومحمد التوري حائظ فاس الحيسوبي الطبيب
المتوفى عام 872 هـ (72) .

وامير المؤمنين في الفرائض والحساب ابراهيم
المصودي ، توفى بفاس عام 912 أو 913 هـ (73) .

واحمد الغزالي الفاسي كان استاذاً مرضياً
حيسوبياً له معرفة بالفلك توفي عام 920 هـ (74) .

ومحمد بن تاسم بن توزت التلمساني « استخدم
مقله في حل مشاكل الهندسة » وهو من مواليد نهاية
القرن التاسع الهجري (75) .

وابو العباس بن البنا العددي المراكشي له
« التلخيص » في الحساب ومقدمة في اقليدس واختصار
في الفلاحة (63) .

وابو جعفر بن صفوان الامام في الحساب وهو
تلميذ ابن البنا (64) .

وعلي اليفرنى المكتاسي الشهير بالطنجي امام في
الفرائض والحساب في وقته توفى عام 734 هـ (65)

ومهد الله بن محمد بن احمد التلمساني ولد سنة
748 ترا الهندسة بكتاب اقليدس على والده بفاس (66)

وعلي بن احمد التلمساني موقت القرويين أيام
أبي عنان المريني صنع « المنجاة » المقابلة للمدرسة
العنانية عام 758 هـ (67) .

وعبد الرحمن اللجائي تلميذ ابن البنا في العلوم
التعليمية توفي عام 773 حسب تلميذه ابن قنفذ (68)
واحد الاوسى المراكشي المعروف بابن الشماع امام

(63) توفى عام 221 هـ على قول ابن قنفذ (نيل الابتهاج ص 42) كان يقصد شيخه عبد الرحمان
الهميري فيما اشكل عليه من مسائل الهندسة (137) وله أيضا جزء في « المساحات » (الجذوة
ص 77) .

ذكر ابن القاضي في « درة الحجال » (القسم الاول ص 5) أن له كتابا في الجبر والمقابلة سماه
« الاصول » وكذلك « رفع الحجاب عن تلخيص أعمال الحساب » زيادة على « تلخيص أعمال الحساب »
وذكر عباس بن ابراهيم في الاعلام أن كتاب « الجبر والمقابلة » موجود في المكتبة الخديوية (ج 1
ص 379) ومن شرح تلخيص ابن البناء احمد بن رجب ابن طنبغا القاهري المتوفى عام 850 هـ
المعروف بابن الجدي ومن اختصره وسماه « بالحواوي ابو شهاب القراني المعروف بابن الهائم
المتوفى عام 815 ونظمه محمد بن غازي المكتاسي وابن القاضي صاحب « الجذوة » (ص 384) ومن
شرح التلخيص ابو العباس بن قنفذ في كتاب سماه « حظ النقاد عن وجوه الحساب » ولابن قنفذ هذا
« بغية الفرائض من الحساب والفرائض » (الاعلام ج 2 ص 17) .

(64) (الاعلام ج 2 ص 2) .

(65) (الدرر ص 441) وهو بن عبد الرحمان بن غيم (نيل الابتهاج لابن بابا السوداني ص 192) .

(66) (نيل الابتهاج ص 127) .

(67) (جذوة الاقتباس لابن القاضي ص 31) .

(68) السلوة ج 1 ص 304 .

(69) الاعلام ج 2 ص 10 .

(70) نيل الابتهاج ص 258 و 264 .

(71) له « غاية الانتفاع بالبخش الذي في طرف توس الانتفاع » طبع حجر ، فاس .

(72) السلوة ج 2 ص 116 .

(73) درة الحجال (ص 107) (وسلوة الانفاس (ج 2 ص 4) تلميذه ابراهيم الزواوي تقيه كفو من

السودان (الدرر ص 111)

(74) درة الحجال ص 91 .

(75) نيل الابتهاج ص 340 .

ومحمد بن هلال « امام التعاليم في سبته وشارح
المجسطي في الهيئة » مات عام 949 هـ (76) .

ومحمد بن يوسف المعروف بابن مشون من
اساتذة الرية رحل الى سبته ونظم رجزا في علم
الجبر والمقابلة ، توفي عام 989 (77) .

اما في عصر السعديين فلم ينبغ من الاطباء
والرياضيين والجغرافيين وغيرهم من العلماء سوى
عدد محدود ، منهم الطبيب بن عزوز المراكشي صاحب
ذهاب الكسوف (78) وعبد الرحمن سقين الفاسي
المحدث الاديب الذي كان يدرس الفية ابن سينا (79) .
وابو القاسم الوزير الفسائي صاحب شرح حميات ابن
عزرون « و » وحديقة الازهار في شرح ماهية العشب
والعقار « (80) .

وقد نشر الدكتور رينو في نشرة معهد الدروس
المغربية العليا (81) دراسة حول « حديقة الازهار » ذكر
فيها ان هذا الكتاب « يمتاز بمنهاجه الواضح جسدا في
الوصف النباتي الذي يتسم غالبا بطابع من الاصاله
والطرافه ، وتلما يخلو الكتاب من الاشارة الى منابت
الاعشاب التي توجد بالقرب من فاس وبذلك يزودنا
بمعلومات ثمينة حول معظم المواد الصيدلية بفاس ،
فهي اذن محاولة مبيدة لترتيب ثلاثي يدخل منسرا
جديدا في وصف اعشاب المدرسة الصيدلية الشرقية » .

ومن اطباء هذا العصر وعلمائه :

عبد الوهاب الزقاق الذي كانت له مشاركة في
الادب والاصلين والطب والتفسير والحديث والنحو
وولي القضاء بفاس (توفي عام 961 هـ) .

وطبيب المنصور ابو عبد الله محمد الطيب (82) .
ومحمد الاندلسي الذي كان مولعا بالكيمياء
والرياضيات والطب والهيئة والطبيعة (83) .

وداود بن عبد الله البغدادي ثم التلمساني الطبيب
الماهر (84) .

واحمد بن عبد الحميد المعروف بالمرید المراكشي
الذي كان اماما في جميع الفنون حكيم ماهر في
الطب (85) .

وعبد الرحمن الفاسي الذي انفرد بتحقيق تعاليم
وتحدث في كتابه « الاتنوم في مبادئ العلوم » عن الطب
وعمليات التشريح وفنون العلاج وعن البيطرة وعلم
الزردية أي طب الحيوان وعن الصيدلة وهو علم
الاقرباذين وآخر هؤلاء الاطباء أحمد بن محمد بن
حمدون بن الحاج الذي ساقه رينو كانبودج أخير
للطبيب العالم ، له كتاب « الدرر الطبية » في الطب
والطبائع والهواء والاغذية والاشربة والامراض وطرق
علاجها والادوية مع تقسيم فني جديد لهذه الادوية .

والسلطان أحمد المنصور الذهبي له قدم راسخ في
المنطق والحساب والهيئة والهندسة (86) .

واحمد بن قاسم معيوب كان له معرفة بالتعاليم
من حساب وهيئة (87) .

واحمد بن القاضي الكناسي المؤرخ له (غنية
الرائض في طبقات أهل الحساب والفرائض)
(مفتوحة) و « المدخل » في الهندسة ، ونظم تلخيص
ابن البنا (نشر الثاني ج 1 ص 129) وظهرت في

(76) الاعلام ج 3 ص 263 .

(77) درة الحجال ص 176 .

(78) اقتبس نصل طب العميون من الكحال المشرقي علي بن عيسى (الطب القديم بالمغرب ص 75) .

(79) توفي عام 956 (نيل الابتهاج ص 153) .

(80) الفه للسلطان المنصور السعدي عام 994 (نشر الثاني ج 2 ص 125) .

(81) ج 18 ص 195 .

(82) « نزهة الحادي » طبعة هوداس ص 146 .

(83) قتل عام 980 هـ (الاعلام ج 4 ص 318) .

(84) لقيه ابن القاضي في مصر عام 986 (درة الحجال ص 143) .

(85) توفي عام 1048 (الاعلام لابن ابراهيم ج 2 ص 114) .

(86) نشر الثاني ج 1 ص 77 . فهم كتاب افليدس من غير شيخ لعمرة وجوده بالمغرب مكان يك شكلا في

كل يوم (درة الحجال ص 51) وتفضل ايضا في الجبر والمقابلة (السلوة ج 3 ص 226) .

(87) توفي بمراكش عام 1022 هـ (الاعلام ج 2 ص 82) .

غير أن هذه « العلوم فقدت منذ أوائل القرن الحادي عشر سميتها العلمية فأصبحت مجرد (حرف) تقنية سميت اختصاصيين في الحساب والهندسة والمساحات » (96) وبما يدل على عمق الصبغة وما لاحظته الحسن الوزان من أن العقائريين بناس لم يكونوا قادرين على ترتيب الأشربة والأدهان طبقاً لوصفات الأطباء فكانوا يجتمعون كلهم لاعدادها ثم يرسلونها الى دكاكينهم لتوزيعها وهي ظاهرة ان كانت تنم عن انخفاض في المستوى العلمي فانها تدل مع ذلك على امانة واخلاص للمهنة . وبالرغم من تقلص شبكة العلوم فان الروح العلمية ظلت تكفي الخاصة من العلماء الذين كانوا يشعرون بالفروق الدقيقة في الاتجاهات العلمية ، ويتجلى ذلك في تسميات أبي علي اليوسي للعلوم : الى فلسفة وملية ، وتحديدده لماهية علم الفلسفة الذي يهدف الى « تكميل النفس الناطقة والاطلاع على حقائق الاشياء بقدر الطاقة » واتسه — كما يقول — اما نظري واما عملي، والاول اما مجرد عن المادة مطلقا وهو العلم الالهي ، او في الذهن فقط وهو العلم الرياضي، او مقيد بالمادة وهو العلم الطبيعي. والثاني اما متعلق بنفس الشخص من حيث هي ، ويسمى سياسة النفس وعلم الاخلاق ، او بها وبما يحتاج اليه من شهوات توأما وهو علم تدبير المنزل ، او بها بعم وهو الملكية والسلطنة ..

وتد اصبحت التعاليم تنحصر على عهد العلويين في عمليات تطبيقية منها ما سنه :

محمد السنوي مريو الاندلسي المنجم الحيسوبي الذي وضع مؤلفات في « تقدير قرض النفقات » بعمل

وقته الحرف المهمة التي لم تكن بالمغرب منها الحساب والهندسة والمساحات (88) .

والرحالة محمد بن القاسم ابن القاضي اوحده مصره في علم الحساب والتنجيم والجداول ، له « البرق الوامض في الحساب والفرائض » (89) .

واحمد القلصادي موقت القرويين كان يدرس كتاب القلصادي (90) .

ويعتوب البستاني امام الفرائض والحساب (91) واحمد التتليتي المعارف بالحساب والتعديل والمساحات وبعض مبادئ الهندسة ، وهو شيخ « جماعة الفنون » المذكورة بمراكش ، وهو معاصر لمؤلف درة الحجال (92) .

ومحمد بن سعيد السوسي المرغيثي صاحب المنع في التوقيت (93) .

ومحمد ادراق السوسي .

ومحمد بن محمد بن سليمان الفاسي الروداني ، كان يتقن فنون الرياضة وأقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطي ويعرف أنواع الحساب والمقابلة والارتماطيقي والمساحة معرفة لا يشاركه فيها غيره (94) .

وقد تنافس الناس في ابتناء الآلة التي اخترعها ، وكان يبيعها بثمن غال وقد الف رسالة في وصفها وهي منشورة في الاعلام (ص 350) والآلة عبارة عن كرة مستديرة مسطرة دوائر ورسوما ركبت عليها أخرى مجوفة منقسمة نصفين فيها تخاريم وتجاويف (95) .

(88) الاعلام للمراكشي ج 1 ص 46 . (تولى عام 1025 هـ) .

(89) توفى قتيلا بفاس عام 1040 هـ (السلوة ج 3 ص 287) .

(90) توفى عام 1063 (نشر الثاني للقادري ص 207) أما علي بن محمد القلصادي (810 — 891 هـ) فاصطنع بسطة ، واستوطن غرناطة ومات بباجة بتونس له « شرح الأرجوزة الياسينية في الجبر والمقابلة » و « قانون الحساب » و « كشف الأسرار في الجبر » (الاعلام للزركلي ج 5 ص 163) وله أيضا شرحان على تلخيص ابن البنا والحومي والغنية في الفرائض ، أخذ بمصر من ابن حجر كما في رحلته (النفع ج 2 ص 684) . وقد طبع كتابه « كشف الأسرار من علم حروف الفجار » مرارا بحجر فاس .

(91) كان يترؤها في الهواء ماذا اراد عاملها يصورها في اللوح ضربه بالتضبيب على يده (الجذوة ص 350) . وهذا يدل على استعمال السبورة في شرح العلوم بالمغرب في ذلك العصر .

(92) الدرّة 92 .

(93) توفى عام 1809 م (نشر الثاني ج 2 ص 37)

(94) توفى عام 1094 هـ (الاعلام ج 4 ص 334 نقلا عن خلاصة الاثر) .

(95) نشر الثاني ص 87 .

(96) الاعلام للمراكشي ج 1 ص 46 .

الرموز والأرقام مرتبا على أطوار حياة المنفق عليهم(97)
والأستاذ المطي مريو له مؤلفات في التوثيق ،
منها كتاب في تعديل الكواكب السبعة سماه « كنز
الأسرار » ، وآخر في أبعاد النيرات ورموده ،
وابتكرات أخرى في علم « المزاوئ الرخامية » وغير
ذلك (98) .

وأحمد بن الطاهر المراكشي العالم بالأحكام
النجومية والأزياج والهندسة والجدول (99) .

وأحمد حدو الهنتيفي الأستاذ في الحساب
والرمد والأسماء (100) .

ومحمد متجنوش أستاذ انفراد في علم الحساب
والتنجيم (101) .

وعبد الرحمن لبريس المنطقي الفلكي
الحيسوبي (102) .

ومحمد بن الرئيس بن الحسن على التركي
الضليح في الهندسة والرياضة . ومن أوضاعه في هذه
مثال سماه « الشكل الكوري » شامل لسائر الزوايا
والخطوط وأشكال الهندسة مما تشمله أصول اقليدس
وتهذيب الطوسي (103) .

وأحمد بن عبد الله الثنائي المعروف بالصويري ،
كان عازما بالحساب والتنجيم وعلم الأحكام الفلكية
وعلم الهيئة ، له مؤلفات وتعاليق في الحساب والجبر
والمقابلة وفي اللوغاريتم ، وحل اشكالا هندسية طبقتها
في الرياضيات ، وكان عينه السلطان سيدي محمد بن

عبد الرحمان « رئيس المهندسين » وعينه مولاي
الحسن « رئيس قواد الطبية » (أي المدفعية في
العامة المغربية) وخبينة وزير الحرب (104)

وهناك رياضيون ومهندسون آخرون تتجلى
قيمتهم العلمية فيما صنّفوه من كتب وأبحاث تكفلت
المطبعة الحجرية في فاس بطبعها عندما أنشأها
السلطان محمد الرابع منذ أزيد من قرن (105) .

وقد أُنْدرِس التعليم الرسمي للطب والمعلوم
بجامعة القرويين رغم ما أشار إليه دلفان (106) من
استمرار اعتناء الطلبة آنذاك « بالكامل » للـرازِي
« والقانون » لابن سينا « وزبدة الطب » للجرجاني
« والتذكرة » للسويدي « وتذكرة الانطاكي » وكليات
ابن رشد ومفردات ابن البيطار وكشف الرموز
للجزائري ومع ذلك ظل الأطباء يجرون بمهارة بمضى
الممارسات التشريحية الصغرى (107) .

وقد بدأ المغرب منذ المعهد السمعي يستدعي
« خبراء فنيين » معدودين كطبيب الفرنسي كيوم
بيرار (Guillaume Berard) الذي كانت له ثمانية
متواضعة (108) . وهوبير (Hubert) أستاذ العربية
بجامعة باريس (109) والطبيب الانجليزي لمبريبر
والدكتور براون الذي منحه السلطان مولاي عبد
الرحمن رخصة لممارسة مهنة الطب بالمغرب ، وذلك
علاوة على الأطباء اليهود الذين كانت تستقدمهم
الجالية الاسرائيلية ، أو من كان يولد في الاجزاء
الاحتلة من المغرب أمثال الطبيب النباتي الاسباني
السبتي كريستوف دا كوستا . وشعر المغرب

97 تولى عام 1207 (ج 1 ص 136 - الاغتباط) لأبي جندار .

98 تولى عام 1223 (ج 2 ص 116 - الاغتباط)

99 مات عام 1250 هـ (الأعلام ج 7 ص 214) .

100 وكان يحسن نحواً من ثمانية عشر ملها تولى عام 1285 هـ (السلوة ج 3 ص 82) .

101 توفي عام 1290 - و عمره 31 سنة (ج 1 ص 212) .

102 سافر الى الحج 1307 وهو من مواليد القرن الثالث عشر (ج 2 ص 134 - الاغتباط) .

103 الاغتباط لأبي جندار (ج 2 ص 192)

104 الأعلام (ج 2 ص 267) .

105 راجع مطبوعات المغرب للأستاذ ادريس الادريسي وهي مخطوطة (

106 في كتابه « فاس وجامعتها » طبعة 1889 Delphin

107 رينو - ص 128 (راجع في كتابنا « الطب والأطباء بالمغرب » نماذج لمهارة بعض المحترمين في

هذا المجال ص 72 - 80)

108 رينو - « نشرة معهد الدروس العليا » ج 18 ص 206 .

109 كودار - تاريخ المغرب ص 399 و ص 490 « المغرب الحديث مملكة تنهار » كامبو 1866 ص 16 .

اغلاط سلته ومنظرا بين المصادر المطبوعة ودروسه في مصر وتقاليد اطباء المغرب وصيادته وما يسميه بالطب الجديد والكيمياء الجديدة بأوروبا وأمريكا ، ويأتي أحيانا بأسماء الدواء بالعربية ومختلف لهجاتها ثم باللاتينية والأمرنجية مع تحليل ذلك بالمصطلحات الحديثة العامة كالصميد والتقطير ، وقد نقل من مصر نماذج عديدة من النباتات والعقاقير والأدوية ، ويحكي عن تجارب شيوخه في قصر العيني وأسمايه الشخصي في هذه التجارب وقد ذكر أنه شاهد زرافة مصبرة بالتصمر العيني خلال ترامته على الحيوانات (الضياء ص 57) وشارك في تحضيرات بالمعمل الكيماوي بمصر (ص72)

وقد نقل من نحو الخمسين مؤلفا منهم ابن الخطيب (ص 80) والوزير الفسائي صاحب الحديقة وعبد الرحمن الفاسي وعبد القادر ابن شقرون والطبيب الصيدلي العجلاني والطبيب المصري أحمد بن حسين الرشددي الذي عاش أول القرن الماضي وابن الحشاء صاحب تفسير الألفاظ الطبية واللغوية الواتعة في الكتاب المنصوري (108) . وقد أسس الطبيب مولاي عبد السلام العلمي مصحة صغيرة بفاس قبل بها حتى توفي عام 1323 هـ ، ورسالة العلمي هذه مشهونة بالإصطلاحات الحديثة ووصف العمليات العملية التي كانت تجري بالقصر العيني وأنواع العلوم التي كانت تدرس به مثل علم التشريح الهيكلي والمفصلي والمفصلي والتشريح العصبي والتاريخ الطبيعي والكيمياء الطبية والأقربالين (الصيدلة) وطب الرمد والأمراض الجلدية والدااء الزهري وعلم الحيوانات المصبرة وأحجار المعادن وأمراض النساء والأطفال (في أسبطلية أمراض النساء بمصر) .

ويعطينا كتاب « ضياء النبراس » صورة عن الاختلاف الملحوظ في المصطلحات العلمية بين الشرق العربي والمغرب الأقصى الذي عرف عشرات الأعمشباب والنباتات باللسان البربري انفرد بها المغرب . ويتجلى من الصراع السياسي والعسكري الذي بدأ المغرب يخوضه منذ بداية هذا القرن أن التعليم العربي أصبح يسير رويدا نحو التقلص إلى أن انحصر في جامعة القرويين ورواندها المحدودة التي بعد مهدها بالعلوم . وازدادت اللغة العربية إبان الحماية تقلصا عندما اتخذ الاستعمار اللغة الفرنسية أداة وحيدة للتلقين في المدارس وقام « التعليم الحر » المغرب برد فعل عنيف

بتساؤل الاختصاصيين فأسس مدرسة للفنون بفاس الجديد « ومدرسة مركزية للدلمية » بالجديدة (110) تخرجت منها فئات من الطلبة توجهت لاستكمال دراستها في مصر وكذلك في إنجلترا وأسبانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وأمريكا . وقد تابعت بعثة مكونة من اثني عشر طالبا دراستها في جامعة مونتبيلييه (Montpellier) بفرنسا خلال سنوات (1885 - 1888) درست فيها اللغة الفرنسية والحساب والهندسة التطبيقية والهيئة والرياضيات والكيمياء والتلغراف والتليفون وعلم البصريات والكهرباء والضغط الجوي وترصيف الطرق والسكك الحديدية ومسح الأراضي ولبن تحرير التصميمات الهندسية بالإضافة إلى التمارين العسكرية وبناء الخنادق وأجهزة الدفاع وصنع آلات الحصار ، وحذق هؤلاء الطلبة فأصبحوا يحررون المذكرات ويتأهبون للاضطلاع برسالة تقنية هامة في المغرب الحديث ، وتم الاتفاق بين المغرب وفرنسا على توجيه فوج جديد لاستكمال الأطر المغربية تدريجيا في مدينة فرساي (Versailles) ولكن شيئا من ذلك لم يتم ، حيث تولى الحسن الأول بعد سنوات ودخل المغرب في حضم من الدسائس الدولية عرقلت توثبه للانبعاث ، ووجه الحسن الأول كذلك إلى أوروبا طلبة لدراسة الطب تابع ستة منهم تمارين بالمستشفى الإسباني بطنجة في ميدان الفحص والتفصيد والتشريح وعين ثلاثة من خريجها أطباء في الجيش بكل من طنجة ومراكش ، أما مصر فإنه لم يتوجه إليها عدا الأستاذ عبد السلام العلمي لدراسة الطب بالقاهرة ، وكانها كانت النواة الأولى أراد السلطان الحسن الأول أن يستكنه بها قيمة الدراسة العلمية في الشرق العربي غير أن هذه البعثة لم تجدد كمثيلاتها في أوروبا بالرغم من ارتفاع مستوى التعليم في مصر آنذاك ، والواقع أن المغرب أمام كثيرا من الروح الجديدة التي تتمصها الشريف العلمي الذي ما لبث أن صنف بعد عودته كتابا سماه « ضياء النبراس » في حل مفردات الأنطاكي بلغة فاس (111) ذكر فيه شيوخه في « الإسبطلية الكبرى » بالقصر العيني الذي أسس عام 1827 م بأمر من الخديوي محمد ، ويعتبر هذا الكتاب في نظري نقطة تحول في تاريخ الطب المغربي حيث يحاول المؤلف التوفيق بين الشهور والبروج والأدوية وأنواع النباتات المتداولة في الشرق والغرب وفي المغرب مصححا في بعض الأحيان

(110) الاتحاف لابن زيدان ج 3 ص 367 .

(111) طبع بالمطبعة الحجرية بفاس عام 1318 .

تعريب ، ولذلك يلاحظ أن الأطر ما زالت تستعمل الفرنسية تبعاً للغة الخبراء الفنيين الذين يتل عددهم نسبياً بفضل حركة التعريب (112) على أن هذه المغربية لا تواكب حركة التعريب فقد ظلت لغة معظم الاختصاصيين المغربية أجنبية في تحرير النصوص والخطابات والمناسير وكذلك التخاطب في المحافل والمؤتمرات باستثناء وزارة العدل والمرافق التابعة لها حيث شمل التعريب جميع المحاكم (ولعل المشكل واحد في مجموع أطر المغرب العربي - عدا ليبيا - نظراً لما نتج عن تعميم التعليم (أزيد من مليون طفل اليوم بالمغرب بدلاً من ربع مليون قبل الاستقلال) من هزيمة في تكوين الأطر وضعف في المستوى والظاهرة المغربية هي أن جامعة القرويين نفسها قد تضائل طلبتها لكون ازدواجية اللغة ما زالت مقياساً لتقييم الاهليات في مختلف مجالات الحياة ، ولم تكد تتر أربع سنوات على الاستقلال حتى شعر جلالة المرحوم محمد الخامس بفعل الرواسب التي تباعد بين جناحي العربية خاصة في حقل المصطلح «العلمي والتقني» فدعا عام 1960 إلى عقد «مؤتمر للتعريب» أنبثق عنه في إطار جامعة الدول العربية المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي ، ذلك المكتب الذي يستهدف الاستفادة من تجربة الجناح الشرقي لدمج حركة التعريب في الجناح الغربي ، وقد نشر هذا المكتب عدة معاجم في العلوم بلغات مختلفة ، كما أصدر «اللسان العربي» وهي مجلة دورية للأبحاث اللغوية ونشاط الترجمة والتعريب في العالم العربي ، وأسس مكتبة للعلوم زاخرة بأحدث ما أصدره الشرق من مصنفات في مختلف القطاعات التقنية ، وقد خطط لنفسه تصميماً مشارياً غايتيه الأساسية استكمال الأداة العلمية والتقنية في أسد محدود بتوحيد المصطلحات واستقرارها تعزيزاً لصراع ثقافي تخوضه لغة الضاد كلفة عمل في كثير من المحافل الدولية ، وقد اندرج هذا العمل التنسيقي ضمن مشاريع تسهم فيها المجالس العليا والاتحاد العلمي العربي والجامعات والهيئات الثقافية في مختلف المواسم العربية ومآت الاختصاصيين الذين يرأسلون المكتب الدائم من جميع أنحاء العالم العربي .

وقد بدأ هذا الكناح يؤدي أكله بانواع النخب المغربية - القليلة الصلة بالثقافة العربية - بفعالية لغتنا القومية في مجال الحضارة والعلم كأداة طيبة للتخاطب في الحقل الدولي ، ولكن هذا الائتلاف لن يتم

تعريب تدريس العلوم وخاصة بشمال المغرب حيث توجهت أنواج من الطلبة لاستكمال دروسهم في الشرق، وكانت الحماية الإسبانية في هذه المنطقة أقل مضيافة للمواطنين فنكأثر عدد المتخرجين من الشرق المغربي وشجع الباب المتوح الطلبة على متابعة دروسهم الثانوية في المعاهد المصرية على عكس ما ابتدأه الفرنسيون في منطقة نفوذهم بالجنوب من أساليب المكر والدسائس للقضاء على لغة الضاد . ومع ذلك فقد واصل «التعليم الحر المغرب» رسالته الخالدة محافظاً على كيان اللغة بالرغم من «تفرنس» أغلبية المتقنين وازدواجية ثقافة الأقلية الضئيلة من هذه النخبة التي تزعمت بروحها العربية الإسلامية حركة الثورة ضد الاستعمار . وكان التعليم الحر يستورد خفية من الشرق - وخاصة من مصر - جملة من المصنفات معظمها في الآداب واللغة والنحو وظل الحاجز كثيفاً بين لغة عربية علمية تتطور في الشرق وتواكب النهضة الجديدة وبين عربية تص جناحها في المغرب الأقصى لا كلفة علمية بل كجهد لغة ، وقد تامت الصحابة العربية بدور هام في تجديد الصلة بين الشرق والمغرب متبعة بالبحوث الجديدة ومصطلحاتها المولدة في الاقتصاد والسياسة والقانون وتاريخ المذاهب الشيوعية والاشتراكية والنزعات الأدبية والفنية المستخرقة مقتبسة في ذلك ما راج في الشرق العربي من تعابير ومفردات وطلق المغرب بعد استقلاله في عام 1956 . يتطور ببطء نظراً لتراكم المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فمرسم التخطيطات في شتى الميادين الحضارية وضاعف حصص اللغة العربية فاكتمل الآن تعريب السلك الابتدائي وإن كانت قلة الأطر المغربية الصالحة تهدد بتحجر هذه الحركة، وظل الثانوي في طوره يلقن العلوم بالفرنسية عدا التعليم الحر والأصل أي الإسلامي الذي هو من روافد جامعة القرويين بكلياتها الجديدة (الشريعة بفاس ، وأصول الدين بتطوان ، واللغة العربية بمراكش) كما ظل اقبال المغربية ملحوظاً في مدارس البعثة الفرنسية التي بدأت منذ يناير من سنة (1969) تلقين العربية لتلاميذها . وقد تزايدت حصة اللغة العربية في معظم الأسلاك بينما أحدثت أتمام معربة في كليتي الآداب والحقوق والدرسة العليا للإستاذة مع بناء الكليات التقنية ككلية العلوم ومدرسة المهندسين ومعاهد الفلاحة والأكاديمية العسكرية في معزل عن أي

(112) ما عدا تسماً يسيراً تعمل وزارة الوظيفة العمومية على تعريبه بدروس خاصة تنظمها للموظفين .

هذا وان مواكبة حضارة العصر الحديث لن تكتمل
بالنسبة الينا معاصر العرب الا اذا توازت فيها ذاتينا
العربية مع انسانيتنا الحضارية ، والمقوم الجوهري
لهذه الذاتية هو اللغة العربية التي ظلت — كما يتول
ماسنيون Massignon اداة خالصة لنقل بدائع
الفكر في الحقل الدولي وعنصرا جوهريا للسلام في
مستقبل الامم والشعوب « .

الا اذا استقصينا تدريجيا المصطلحات التقنية التسي
اصبحت حتى عند دول كبرى كفرنسا مثار لغزو ثقافي
بسبب ما تزج به مخابر الكشوف في الاسواق الدولية
من مصطلحات تقنية يبلغ عددها خمسين مصطلحا في
كل يوم



تدريس العربية كلغة مية في الولايات المتحدة الأمريكية

الدكتور ساجي عياد - الدكتور نجيب جريس
الولايات المتحدة

مع الناس في أحداث كل يوم العادية . وهناك من يومن بتعليم الفصحى اولا ثم بعد ذلك العامية عن طريق احدى لهجاتها .

وهذه الحلول المختلفة تبدو غير مرضية بتاتا في نظر آخرين يومنون بأنه اذا كان الهدف من تعليم العامية هو تمكن الطالب من محادثة الرجل العادي العربي فهو يضيع وقته سدى لان بتعليمه العامية سيحدد له لهجة معينة كما انه وان لم يستعملها في مكانها فهو لن يستفيد منها . فمثلا اذا تعلم لهجة مراكش فقط وذهب بعد ذلك الى بنغازي فلن يتمكن التفاهم الكامل معها . اما اذا تعلم الطالب الاجنبي اللغة العربية المكتوبة او بالاحرى الفصحى بدون التعرض الى اللهجات فهذا يعده البعض اسلوبا غير واقعي في تعليم لغة حية كما انه لا يتفق ونظريات علم اللغويات الذي يدور حول محور هام وهو ان الكلام ياتي اولا وان الكتابة انما هي رمز لما ينطق به المتكلم . وعلى هذا يبدو ان الحل المثالي للمشكلة في نظر هؤلاء العلماء لابد ان يكون عمليا ويتفق مع الواقع اللغوي العربي وفي نفس الوقت مع نظريات علم اللغويات الحديثة . معنى هذا انه اذا وافقنا على ان نبدأ تدريس العربية للاجانب بلغة الحديث فلا بد من البدء باللغة العامية . ولكن اية لهجة نختار ؟ والاجابة على هذا السؤال تتوقف الى حد كبير على الهدف من تعلم اللغة نفسها .

بالرغم من ان دخول اللغة العربية في برامج عدد كبير من الجامعات الامريكية ظاهرة حديثة ، فان الاهتمام بها نما نموا مطردا خلال السنوات العشر الاخيرة . وهناك من الادلة ما يفيد بان الدراسات العربية اصبحت ميدانا علميا هاما وان عدد الجامعات الامريكية التي تقدم في برامجها اللغة العربية وحضارتها العريقة تد بلغ أكثر من ثلاثين جامعة .

ولكن هذا الاهتمام وهذا التوسع اثار مشاكل تربوية وأصبح السؤال الذي يردده كل استاذ هو كيف ندرس اللغة العربية ومن اين نبدأ .

فهناك الفصحى والعامية . اما العامية فنحن نعلم ان هناك لهجات عربية عديدة فمنها اللهجة اللبنانية والمصرية والتونسية والمغربية وهكذا .. وتزداد الصورة تعقيدا بان كلا من هذه اللهجات لها لهجات محلية . ففي مصر نرى اللهجة القاهرية واللهجة السعيدية . ثم تزداد المشكلة تعقيدا بان الكتابة العربية نفسها - بدون شكل - تسمح بنطق كلمة واحدة في عدة اوضاع بمعانيها المختلفة . فمثلا (ك ت ب) يمكن نطقها بأشكال مختلفة .

اتدم عدد من اساتذة علم اللغويات والتربية الحديثة على عدد من الحلول . فمنهم من يمتد ان الطالب الامريكي يجب ان يتعلم الفصحى فقط قراءة وكتابة . ومنهم من يدعي ان العامية هي التي يجب ان ندرسها لان الهدف من تعليم اللغة هو الاتصال والتفاهم

لناخذ تعلم الانجليزية كمثل لنا . فالانجليزية الامريكية مثلا التي يتعلمها الاجنبي هي لغة الشمال وليس الجنوب . وفي انجلترا ايضا يتعلم الاجنبي اللغة المعروفة Received English وقد يكون لاختيار هاتين اللغتين عدة اسباب . اولاً : انها لغة مهذبة للحديث . وثانياً ان لها أهمية خاصة في التطبيق والاستعمال العام . بمعنى آخر ان اللغة التي تدرس هي التي تمكن الطالب من تحقيق الاتصال والتفاهم الكامل مع اصحاب هذه اللغة بحيث يفهمهم وهم يفهمونه .

لنعد الآن الى العربية التي هي لغة ما يقرب من تسعين مليون عربي كما انها لغة القرآن الكريم التي يعرفها ما يقرب من سبعمائة مليون مسلم في العالم . ونحن نعلم ايضا انه منذ ظهور الثورة العربية فقد ظهر في الافق العربي يقظة ورغبة قوية في تحقيق الوحدة الثقافية واللغوية . شكراً للتبادل الثقافي ووسائل الاعلام المختلفة في البلدان العربية . اما الفروق اللهجية فلم تعترض قط طريق الوحدة الثقافية . وظهر خلال هذه العملية نوع جديد من لغة الحوار وهو ما يمكن ان نسميه باللغة المهذبة او لغة المتكلمين خصوصاً تلك اللغة التي تتميز بها مراكز الثقافة الكبرى التي يفهما الجميع حتى الذين لا يتكلمونها . وهذا هو بالضبط السبب الاهم في ان الطالب الاجنبي الذي يرغب في تعلم اللغة العربية يجب ان يتجه الى احد هذه المراكز الكبرى حيث يمكنه ان يجد وسيلة للتفاهم تساعده ليس فقط على فهم جزء من العالم العربي بل جزء مهم من الحضارة العربية .

ولا شك ان هنالك مراكز هامة للثقافة العربية مثل القاهرة وبغداد ودمشق وبيروت وناس . وكلنا نعلم ان القاهرة بالذات تمتع بكثير من الامتيازات كما ان لهجتها « المهذبة » او لهجة المتكلمين فيها تعتبر مهمة جداً بالنسبة للطالب الامريكي الذي يبحث عن وسيلة تمكنه من التفاهم مع أكبر عدد من العرب في بلادهم المختلفة . ولكن ليس معنى هذا ان اللهجة المهذبة القاهرية هي الوسيلة الوحيدة لهذا التفاهم بل اللهجة المهذبة الرياطية والبيروتية والبغدادية يمكنها ان تقوم بنفس العملية وتحقق نفس الاهداف .

واللهجة التي يفترضها اصحاب هذه الطريقة الحديثة هي التي يتحدث بها الشباب العربي المتعلم الذي حصل على قسط وافر من التعليم الجامعي . وهي ايضا التي يداع بواسطتها بعض البرامج الاذاعية

العربية في كثير من المدن العربية الكبرى . والسبب في اختيار هذه اللهجة هي انها مفهومة تماماً في جميع البلاد العربية . وشكراً لوسائل الاعلام الحديثة من تلفزة وراديو واللام سينمائية التي تربت هذه اللهجة الى عدد كبير من الشعوب العربية . فهي لغة مقبولة للجميع وتمتع بشهرتها المعروفة واحترامها .

فالذي يقترحه اصحاب هذه النظرية في اول خطوة لتعليم العربية هو البدء باللهجة المهذبة .

وهنا يجب تحديد العلاقة بين ما نسميه « بالعامية » « والفصحى » . غاية لغة من لغات العالم لا تتكون من عنصرين فقط يمكن تحديدهما تحديداً واضحاً . بل بالاحرى تتكون من « مستويات كثيرة » وكل مستوى يرتبط بمستوى ثقافي معين ووظيفية معينة . ولكي يكون استخدام العربية عملاً يجب على الدارس والمدرس ان يكونا متيقظين لهذه المستويات وان العربية نمت وزادت بلافتها على مر الايام والاجيال . وعلى ذلك يمكن ان نميز على الاقل ثلاثة مستويات عامة :

اولاً : العربية الفصحى او لغة القرآن الكريم .

ثانياً : العربية الحديثة وهي تشمل ما تقراه في الصحف اليومية والمجلات والاذاعة . وفي نطاق هذا المستوى لابد من تأكيد الكتابة الرسمية رغم ان هناك الآن كتابة لبعض العامية : الاغاني مثلاً ، والامثال العامية ، والقصص الخرافية .

ثالثاً : العربية الخاصة بالحوار او التحدث اليومي وهي تمثل اللهجة المهذبة التي تحدثت عنها . وهنا يجب ملاحظة ان العامة العرب فيسر المتعلمين يستخدمون الكثير من النماذج بالعربية الفصحى (عند ذكر بعض آيات القرآن الكريم او الحديث الشريف او اصطلاحات معينة مثل « حالا » و « بسرعة » . و « أهلاً وسهلاً » . الخ) .

ولسنا في حاجة الى تأكيد الحقيقة وهي ان هذا التقسيم لا يعني مطلقاً ان كل قسم منفصل تماماً عن الآخر . لهذا ليس من شأن اللغات الحية . ومن هنا يؤكد لنا اصحاب هذا الرأي — وهو رأيي انا ايضا ان « اللهجة المهذبة » تستخدم كقنطرة تسهل الانتقال من لغة الحديث الى اللغة الفصحى بمثل حرف « القاف » يتردد كثيراً في لغة الحديث خصوصاً عند ذكر كلمة « القرآن » و « القاهرة » هذه اللهجة المهذبة تحتوي

على كلمات كثيرة من الفصحى وتتبع أيضا من تروى
تواعد الفصحى .

كما ان اللغة العربية المعاصرة او الحديثة يمكن
بسهولة تمييزها عن الفصحى من طريق الكلمات
الجديدة التي تحتويها . فنحن نقول الآن « تلفزيون »
او « تلفزة » و « فيلا » .

وبالنسبة للعامة يمكن تمييزها عن الفصحى بما
يحدث من تغيير في بعض الاصوات لمثلا نقول « كتب »
بدلا من « كتب » و « ولد » بدلا من « ولد » ولدا -
ولد .

وايضا الولد او الولد بدلا من الولد - الولد -
الولد ، ينتج بدلا من ينتج (باللهجة المهذبة القاهرية
مثلا) .

وايضا تغيير صوتي في بعض الحروف مثل (ت)
بدلا من (ث) فنقول مرة « ثانية » ، وعشرين ثانية ،
(داب) بدلا من (ذاب) و (ازا) بدلا من (اذا) .

ثم ايضا نلاحظ التنخيم : / مرد / و / فرض /

والاساس الهام الذي يبنى عليه تعليم اية لغة
اجنبية هو التقدم من لغة الحديث الى الكتابة او من
الصوت الى الرمز . ولهذا السبب تستخدم الرموز
الصوتية فقط في المرحلة الاولى حتى يمكن للطالب ان
يتقن كل الاصوات ويميز بينها بدقة . ولكي يتم تحقيق
ذلك نقدم نماذج « زوجية » خاصة Minimal Pairs
مثل : (دم) ، (ضم) لتوضيح التنخيم .

(كلب) / (قلب) لتوضيح اهمية نطق احرف
معينة في معنى الكلمة .

(س) / (ساد) لتوضيح اهمية الاصوات
الطويلة .

وفي هذه النماذج يكون التركيز على ابراز اختلاف
واحد فقط لان الاستماع يأتي قبل النطق وان القدرة
على تمييز الاختلاف في الاصوات يأتي قبل اعادة انتاجها .
وبمجرد ان يتمكن الطالب الاجنبي من ترديد النماذج
الصوتية الاساسية يمكنه بسهولة ان ينتقل الى الكتابة
ومنها الى الفصحى .

كيف نقدم الفصحى بعد ذلك ؟

لعلنا نذكر كثيرين منا عندما بدأوا يتعلمون
العربية الفصحى في اول سنة ابتدائية رددوا كلمات

وامعلا مشهورة مثل (قتل) ، (ضرب) ، اما في
اللاتينية مثلا نعلمنا « حب » وما شابهها . وليس
المشكلة في الواقع مشكلة معان ولكن المشكلة هي انه لم
يكن هناك اهتمام بفكرة « التدرج » في تقديم « الاصوات »
وتركيب الجملة او مميزات تركيبية خاصة
Morphological distinction وانتقلت هذه الطريقة الى
العرب في تعليم العربية واصبح الاهتمام منصبا على
المفردات والتواعد الصماء .

وفي السنين الاخيرة لاحظنا ان بعض اساتذة
العربية في الجامعات الامريكية التي تقوم بتدريس
العربية تد الفوا كتبنا خاصة لتعليم العربية للمبتدئين
ووصلوا في تفكيرهم الى اعمال كل المستويات اللغوية
والتركيز على ما اطلقوا عليه اسم « العربية الحديثة »
Modern Standard Arabic وهذا الاسلوب يبدو انهم
قد فشلوا في تقديم العربية كلفة حية لها مستوياتها
الثقافية والنشاطية المختلفة . فالرمز المكتوب هو
التعبير الوحيد للعربية وينتج من هذا انه من المستحيل
للطالب ان يفهم الكثير مما يسمى « العربية الحديثة »
عندما يستمع الى حديث او اغنية عربية بالاذاعة او
خطبة عامة او ادب شعبي . اضف الى
ذلك انه اذا استخدم الفصحى الحديثة في حواراته
يكون يتكلم ككتاب لا يعبر عن واقع لغة الحوار .

وعلى ضوء هذه الانتقادات تقدم الفصحى في
المرحلة الاولى من تعليم العربية في نطاق الاساليب
الآتية :

اولا : ان المحتويات التركيبية يجب ان تقدم بالتدرج
على اساس البساطة في التركيب ، التكرار ،
والقيمة العلمية . وبناء على ذلك فمن الناحية
الصوتية تقدم الاصوات السهلة والتي تماثل
لغة الطالب الاجنبي اولا (محروف الفاء والميم
والحاء والخاء والظن تؤول الى مترة مقبلة)
ومن الناحية الاربابية والصرفية فالجمل الاسمية
تقدم قبل الجمل الفعلية : مثل انا من ليبيا ،
الرباط مدينة جميلة .

ومن الناحية التركيبية تقدم بعض الضمائر
الهامة فقط مثل : انت ، انت ، انتم .

ثانيا : يجب على النماذج التركيبية ان تمثل الثقافة
والحضارة العربية وان تبرز الهام منها . كالصالح
وشهر رمضان المبارك والمائلة العربية وخلافه
بدلا من « اين الفيل يا خليل » او « مقعد مجلس
الوزراء جلسة خطيرة » .

ثالثا : في تطبيق مبدأ التدرج وربط النماذج بالحفارة يتحقق غرضان مهمان : الأول هو ان الطالب في هذه المرحلة الاولى الحرجة يبدأ بالشمور بالنجاح بدون الالتجاء الى « ضغط من الذاكرة » وثانيا ان رغبتة في المزيد من التعليم تزداد ومعها تزداد شهيته لمرة الثقافة الجديدة التي تمثلها اللغة . او بمعنى آخر ان النماذج اللغوية يصبح لها معنى في ذهن المتعلم مما يجعل عملية التعلم ممتعة وفعالة . وكلنا نعلم ان اول اتصال في تعلم لغة اجنبية له اهمية قصوى في مواصلة تعلم تلك اللغة .

نعم فهناك في بعض الاحيان مرق واضح بين كلمة عامية ومقابلها بالفصحى — مثل (بالزاف) و (كثير) ولكن هنا تبدو ابداعية استاذ اللغة في اختيار النماذج المشتركة بين اللهجة المهذبة والفصحى — كالمثلة التي سبق الاشارة اليها . هذا هو القاسم المشترك الذي عليه يبني المعلم المرحلة الاولى من تعليم اللغة العربية للاجانب .

اما من حيث القواعد فكلما ذكرت ان النماذج التي تقدم يشتق منها الطالب القاعدة بدلا من تقديم القاعدة في قالب اجوف لحفظها فقط .

وهنا تلعب التمارين الخاصة بكل درس دورها الهام في عملية التعلم بدلا من سؤال الطالب اهراب ما ياتي : او استخراج اسم المفعول من كل فاعل — نقدم

تمارين من نوع جديد متفق عليه ونظريات اصول التعلم وعلم اللغويات . فتمارين الاستبدال Substitution مثلا والتحويل Transformation وغيرها من التمارين الفعالة التي « تثبتت » ما يتعلمه الطالب .
مثلا : هو من القاهرة

هي

انا

انت

بيروت

هذا مسجد

هذه مدينة

هذا مسجد جميل

هذه مدينة جميلة

اما المفردات فيجب الا تبمثر في الدروس بلا نظام او احكام . فالكلمات التي تتركب منها النماذج التركيبية يجب ان يكون اختيارها في غاية الدقة والتحديد مع تكرارها في الدروس المتتالية حتى يتمكن الطالب من التركيز على النماذج الاساسية التركيبية بدلا من مجرد ضغط كلمات لا معنى لها .

هذا ملخص مختصر لحدث طرق تدريس اللغات الاجنبية ومن ضمنها العربية بمستوياتها التقايبية المختلفة .

أبحاث مختلفة

- العلوم الطبيعية في القرآن
للشيخ طه الولي
- الامداد العلمي في الوطن العربي
المؤتمر الثقافي العربي الثامن
- التانيث في العربية
للاستاذ عبد الحق فاضل
- علم الأصوات الحيوانية عند العرب
للاستاذ عبد الهادي الفضيلي
- ملاحظات حول النقد الادبي
للككتور محمد رجب البيومي
- الحضارة الاسلامية بين الماضي .. والمستقبل
للاستاذ احمد عبد الرحيم السايح
- نقد الكتب
للككتور ممدوح حقي
- الموسيقى لغة السروح
للاستاذ ابراهيم الدرويش المصري

العلوم الطبيعية في القرآن

الشيخ طه الويلبي «بيروت»

الاسترسال ، من شأنه ان يقودنا الى الخروج عن جادة الموضوع الرئيسي الذي نريد ان نأخذ به نفسنا الآن ، وهو الموضوع الذي أردنا قصره على ما جاء في الكتاب الذي تصد به مؤلفه الاستاذ يوسف مروه اثبات العلاقة الحتمية الوثيقة بين التفسير العلمي الحديث للظواهر الكونية المادية البحتة ، وبين المعاني الالهية الخالدة التي تتعلقت بها ، بين حين وحين بعض آيات القرآن الكريم في اثناء دعوتهما الناس من كافة الاجناس الى الايمان بوجود الله الخالق الديان .

على انه ، لا بد لنا من التقديم بين يدي موضوعنا ، ان كتاب الاستاذ مروه الذي تدور فصوله وابوابه ، حول رغبة المؤلف بربط اغراض القرآن الكريم مع ما توصل اليه العلماء المعاصرون من آراء وافكار ونظريات في الجغرافية والفيزياء والفلك وما الى ذلك من العلوم الانسانية الوضعية والمادية ، نقول ، انه لا بد لنا من التقديم بان هذا الكتاب ليس جديدا في بابيه او مادته ، فلقد سبق ان نحا هذا النحو الجدلي ، في دراسة القرآن الكريم وتفسيره ، غير الاستاذ مروه من الكتاب المسلمين الذين ارادوا ان يلتقطوا قفاز التحدي ويرموا به في وجه المستكشفات والاكتراعات العلمية ، من طريق اقامة الدليل العقلي بان القرآن الكريم كان اسبق من كل ما عدها من كتب البشر الى التحدث عن هذه المستكشفات والاكتراعات في العديد من آياته وسوره التي نزل بها الروح الامين بالوحي السماوي ، على قلب الرسول الاعظم سيدنا وسيد الخلق اجمعين محمد صلى الله عليه وسلم .

بين ايدي الناس الان كتاب جديد عنوانه «العلوم الطبيعية في القرآن» من تأليف العالم الفيزيائي الكبير الاستاذ يوسف مروه من افاضل جبال عاملة في جنوبي الجمهورية اللبنانية ، وقد تفضل المؤلف الكريم فاهداني هذا الكتاب . وانه ليهمني التاكيد بانني لدى مطالعته ، وجدتهني امام محاولة جريئة لدواسة القرآن الكريم بأسلوب الرجل المسلم المؤمن الذي اراد ان يتصدى للحملة التي اثارها وخاض غمارها بعض اساتذة الجامعة الامريكية ببيروت تحت شعار التنافس المزعوم بين المعطيات العلمية ، الحديثة ، وبين مسلمات العقيدة الدينية ، القديمة . وليس من شك بان هذه الحملة التي اضطرت بضجيجها اروقة الجامعة المذكورة ورددت صداها بالنقد والتعليق اقلام الكتاب في عدد من الصحف ببيروت وخارجها ، ليس من شك في ان هذه الحملة ليست وليدة العصر الذي نعيش فيه اليوم ، بل انها مألوفة من قبل ، وهي ما زالت تتردد وتتجدد من قديم الزمان حتى اليوم لاسباب متفاوتة من حيث منطلقاتها وغاياتها ما بين الفلق الفكري المجرد وبين النزوات الشخصية المشبوهة .

وليس لنا الان ، ان نرسل القلم على غاربه في جولة استعراض تفصيلي للمراحل التاريخية التي مر بها مبدأ الايمان بالله الذي ارسى قواعده الاديان السماوية مع تلك الطائفة من الكتاب الذين تجلببوا برداه الافكار الفلسفية او قطروا اسماءهم بغافلة من الالجاب العلمية الجذابة ، لاننا نرى ان مثل هذا

ففي أواسط العقد الثالث من النصف الأول للقرن العشرين الذي نحن فيه ، كثر الحديث عن أحد المؤلفين المصريين الذي حاول تفسير القرآن الكريم تفسيراً علمياً يتجاوب فيه مع روح العصر الذي تطورت فيه الأفكار الإنسانية وراح يطلق قلمه وراء ما يسبح عبر الفضاء الرحب من الكواكب والاقمار والشموس ، أو يفوس بهذا القلم ، الى داخل أحشاء الأرض باحثاً في هذه الأحشاء عما يتقلب فيها من عوالم الجماد والحيوان والنبات ليبرهن للناس أن الغلاف الخارجي للكون والاعماق الداخلية فيه ، أحاط به كتاب الله في كلامه الأزلي بالتفصيل والبيان والايضاح ، وهذا المؤلف هو الشيخ طنطاوي جوهرى ، الذي كان استاذاً في دار العلوم المصرية والمتوفى سنة 1358 هـ (1940 م) فقد صنف هذا الشيخ كتاباً تحت عنوان : « الجواهر في تفسير القرآن الكريم » وطوى صفحاته التي تجاوزت المئات عدداً ، على تفسير القرآن الكريم « تفسيراً ينطوي على كل ما وصل اليه البشر من علوم » على حد قوله .

فقد أخذت فكرة تفسير الظواهر الكونية من خلال تفسير القرآن الكريم ، بلب الشيخ طنطاوي جوهرى وملكت عليه أحاسيسه ومشاعره حتى اعتقد بأن العناية الإلهية اختارته من بين سائر الناس للقيام بكبر هذا العمل فأطلق قلمه صير كتابه ببناء وجهه الى المسلمين قاطبة قال فيه :

« يا أمة الإسلام ، آيات معدودات في الفرائض اجتذبت فرما من علم الرياضيات ، فما يالكم أيها الناس بسبعمائة آية ، فيها عجائب الدنيا كلها .. هذا زمان العلوم ، وهذا زمان ظهور الإسلام .. هذا زمان رقيه . باليت شعري ، لماذا لا نعمل في آيات العلوم الكونية ، ما فعله آباؤنا في آيات الميراث ولكني ، أقول ، الحمد لله ، الحمد لله ، انك تقرأ في هذا التفسير (ويقصد كتابه) خلاصات من العلوم ودراساتها أفضل من دراسة علم الفرائض ، لانه فرض كفاية ، أما هذه ، فانها للازدياد في معرفة الله وهي فرض على كل قادر .. ان هذه العلوم التي ادخلناها في تفسير القرآن ، هي التي أففلها الجهلاء المعزرون من صفاء الفقهاء في الإسلام .. فهذا زمان الانقلاب وظهور الحقائق .. والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

ثم ان هذا الشيخ يتابع نداءه مسترسلاً في حماسته واندفاعه ويقول :

« ان نظام التعليم الاسلامي ، لا بد من ارتفاعه ، فنلوم البلاغة ليست هي نهاية علوم القرآن بل هي علوم لفظه ، وما تكتسبها اليوم ، علوم معناه ، وانطباقها على العلوم التي اظهرها الله في الأرض وبعد هذا الزمان سيظهر فيه آثار قوله تعالى « ثم ان علينا بيانه » فان البيان المذكور ، في سورة القيامة ، فسر بمعنى اننا نبينه باسنانك فتقرأ كما قرأه جبريل ، وبمعنى انه اذا اشكل شيء من معانيه فنحن نبينه لك ، وعلينا بيان ما فيه من الاحكام والمعاجيب ، ولا جرم ان ما يتحدد اليوم من العلوم مما ذكر في هذا التفسير ، وما لم يذكره ، من البيان الذي أكد الله انه يظهره لامة الإسلام»

وهكذا ، يمضي الشيخ طنطاوي ، من خلال حماسته بما اقتنع به ، في تحميل كل آية من كل سورة في القرآن الكريم من التأويل والتحليل والعليل ، ما لم ينزل به من عنده الله برهان ولا شاهد ولا دليل .

واذا كان المتقدمون من العلماء قد انفقوا حياتهم في استنباط المعاني التي تؤدي اليها آيات القرآن الكريم لتحديد العقيدة الاسلامية في توحيد الله عز وجل وبيان اغراض الشريعة في ضبط علاقة الناس بخالقهم من جهة وبانفسهم من جهة ثانية ، فان الشيخ طنطاوي جوهرى قد انفق حياته في تتبع هذه الآيات وتخريج معانيها وفق ما توهمه فيها من اشارات الى الدراسات التي يقوم بها رواد العلوم النظرية والمادية وراء مكاتبهم وتحت أضواء مختبراتهم ومعاملهم ثم هو لا يكتفي بمرض آرائه وتقريرها بصورة متحدية جازمة ، بل انه يتوجه باللائمة على اولئك العلماء السابقين بقوله :

« لماذا الف علماء الإسلام عشرات الالوف من الكتب الاسلامية في علم الفقه .. وعلم الفقه ليس له في القرآن الا آيات قلائل لا تصل مائة وخمسين آية ؟ فلماذا كثر التأليف في علم الفقه ، وقل جدا في علوم الكائنات التي لا تخلو منها سورة ؟ بل هي تبلغ سبعمائة وخمسين آية صريحة ، وهناك آيات أخرى دلالتها تقرب من الصراحة ، فهل يجوز في عقل او شرع ان يبرع المسلمون في علم آياته القليلة ، ويجهلوا علما ، آياته وهي كثيرة جدا ، ان آباءنا برعوا في الفقه ، فلنبرع نحن الآن في علم الكائنات ، لنتم به لترقي الاممة » .

واذا نحن أتينا على قراءة كتابه « الجواهر في تفسير القرآن » نجده يحشد في هذا الكتاب الفريد من نوعه كثيرا من صور النباتات والحيوانات ومناظر

علم الفضاء	11 آية
علم الحيوان	12 آية
علم الزراعة	21 آية
علم الاحياء	32 آية
الجغرافية العامة	73 آية
علم السلالات البشرية	10 آيات
علم طبقات الارض	20 آية
علم الكون وتاريخ الاحداث الكونية	36 آية
وصف العلم والعلماء والحث على طلب العلم	
64 آية	

وجريا على العادة التي يتبناها كثير من الكتاب المسلمين بالاستشهاد على صدق الدعوة الاسلامية وصحة ما جاء في القرآن الكريم من قوانين تشريعية ومفاهيم اجتماعية واخلاقية ، فانا نجد الاستاذ يوسف مروه يستهل كتابه تحت عنوانه : « آراء وافكار حول القرآن » بطائفة غير قليلة من الاقوال التي وردت في كتب غير المسلمين من علماء اوربا وفلاسفتها ونختار من هذه الاقوال قول رينورت :

« يجب ان نعترف بان العلوم الطبيعية والفلك والفلسفة والرياضيات التي انعشت اوربا في القرن العاشر مكتسبة من القرآن » .

« وقول ريتونورت » :

« يجب ان نعترف ان العلوم الطبيعية والفلك والفلسفة مكتسبة من القرآن . فجميع العلماء مدينون له ولعل الاستاذ مروه والذين سبقوه او يحاكونه في الاستنجاد باقوال الغربيين لدعم الايمان بالاسلام والقرآن ، لعله وهؤلاء انما يريدون العمل بالقول المأثور . والفضل ما شهدت به الاعداء . ولسنا ندرى اذا كانت شهادة الاعداء تصلح دالما لان تكون دليلا يمكننا الاحتجاج به فيما ندلي من آراء واجتهادات وتفسيرات وتاويلات بصدق القرآن الكريم بالذات لا سيما اذا كانت هذه الشهادة تريد ان تصنف كلام الله في مداد التقارير العلمية التي كثيرا ما يناقض بعضها بعضا بين حين وآخر بسبب ما يلابس البحوث العلمية عادة من تطورات مع تقدم الافكار البشرية التي تخضع لظروف الحضارة المليئة بالمفاجآت غير المنتظرة .

لطبيعة وتجارب العلوم لكي يؤكد لقائله ان ما يقوله في تفسيره من طرائف وغرائب هو الحقيقة بعينها بناء على ما يقدمه من تلك الصور والمشاهد الحسية .

وعندما تعوزه الصور والمشاهد الحسية فانه يستنجد بما جاء عن افلاطون في فلسفته او بما رده اخوان الصفا في رسائلهم فاذا لم يجد عند افلاطون او اخوان الصفا ما يرتكز عليه في آرائه فانه لا يتورع عن الاعتماد على الارقام العددية التي ينظمها حساب الجمل المعروف .

ومن الغريب حقا ، ان نجد الاستاذ يوسف مروه يعالج موضوعه في كتابه « العلوم الطبيعية في القرآن » بنفس الاسلوب الذي اعتمده الشيخ طنطاوي جوهرى في كتابه « الجواهر في تفسير القرآن » حتى يتكاد يخيل لنا ان كلا الرجلين نهلا من معين واحد وهما يدركان القرآن الكريم ويفسران آياته . فالاستاذ يوسف مروه يؤكد في كتابه المذكور ان « ميزة القرآن الكبرى انه يورد صورة بسيطة واضحة وسهلة للكون والطبيعة تنسجم تماما مع صورة الطبيعة البسيطة التي كشفت عنها الفيزياء الحديثة . »

ومثما فعل الشيخ طنطاوي جوهرى حين احصى في القرآن الكريم حوالي سبعمائة وخمسين آية من الايات التي تحتوي على مبادئ العلوم الكونية فان الاستاذ يوسف مروه قام بدوره باحصاء هذا النوع من الايات فقال :

« واذا عبرنا بطريقة كمية عن هذه المواضيع العلمية القرآنية ومقدار ورودها ووجودها في القرآن لتبين لنا اكثر من عشر الايات القرآنية تتعلق بمواضيع العلوم الطبيعية وعلى وجه التدقيق 670 آية تبحث في شتى المواضيع العلمية موزعة كما يلي :

الرياضيات	61 آية
الفيزياء	64 آية
الذرة	5 آيات
الكيمياء	9 آيات
النسبية	62 آية
الفلك	100 آية
المناخيات	20 آية
الماليات	14 آية
الرياضيات	57 آية

وعندما وصل الاستاذ مروه الى آخر هذا
الفصل اعلن قائلا :

« وانني في محاولتي هذه سأقتصر على اهم
واخطر مواضع العلم الحديث وهي الذرة والفضاء
والنسبية في الباطني لنفي التنافس بين العلم والدين» .

ولم ينس الاستاذ مروه ، وهو في ذرة حماسه
لابتات الانسجام التام بين العلوم الطبيعية وبين
معاني الايات القرآنية، لم ينس ان يشير الى آخرين من
العلماء المسلمين الذين عالجوا بدقة وتفصيل مدى
انطباق وتوافق هذه الايات او بعضها مع مواضيع العلم
الحديث وذكر منهم الاساتذة احمد امين واحمد
محمود سليمان والشيخ طنطاوي جوهرى (السدي
تناولناه في حديثنا هذا من قبل) وكذلك الدكتور
احمد زكي في كتابه « مع الله في السماء »

واذا كان الاستاذ مروه قد اختار لمواجهة
التحديات المصرية الحديثة للاسلام بالكشف عن
المعطيات العلمية التي فصلت بها آيات القراءن الكريم
فان الاسلوب الذي التزمه في كتابه للتعبير عن هذه
المواجهة قد تجاوز من غير شك الاغراض التي ارادها
الله في هذه الايات حتى انتهى به الامر اخيرا الى انتزاع
القرآن الكريم من حدود مقاصده التشريعية والتوجيهية
وحشره حشرا غير طبيعي الى جانب الكتب الوضعية
التي طوى اصحابها صفحاتها على مبادئ نظرية تخضع
في طبيعتها لقوانين العقل البشري هذا العقل الذي
هو مستعد دائما وابدا ، لان يرفض اليوم ما قبله
بالامس ، وان ينفي في الغد ما اثبتته اليوم وهكذا تبعا
لما يعرض له من ظواهر الاشياء التي يعالجها وهو في
طريقه الى الحقيقة العلمية المطلقة التي يبشر بها
الانسان في مسيرته الحضارية غير المحدودة في هذه
الحياة .

وان من يعنى قراءة المقدمة التي استهل بها
الاستاذ يوسف مروه كتابه لا بد انه يلاحظ بان الكاتب
الفاضل ، كان شديد الحرص على تأكيد دور القراءن
الكريم في حث المسلمين على اعتماد العقل والتفكير
واحصى 64 آية من آياته تحت عنوان « وصف العلم
والعلماء والحث على طلب العلم » ولم يكتف بذلك بل
انه اختار من آثار الرحوم الشيخ مصطفى الغلاييني ما
كتبه من نحو اكثر من ثلث قرن حول الدين والعلم
وجعله في مطلع كتابه وقال : « اهجبت بدقة وعمق
بعثه ورايت من الواجب ان انقل للقارئ بعض ما كتبه

على اننا نرى بانه لا يجوز لنا حمل آراء الاستاذ
مروه وامثاله من الكتاب والعلماء المسلمين على محمل
التنطع في جر آيات القراءن الكريم الى ساحة الابحاث
العلمية البحت بدافع من الفضول والرغبة في التجديد
بما لا طائل منه لصالح القراءن واهدافه الدينية
والدنيوية . بل نحن نرى ان ما يذهب اليه الاستاذ مروه
واحزابه في هذا الصدد ، انما هو في الواقع ، رد
فعل عفوي لمواجهة التحديات العنيفة التي تفرضها
الافكار المبهورة بما بلغته الحضارة الانسانية من تقدم
وتطور وازدهار في هذا العصر . كما انه يعتبر بمثابة
جواب غير مباشر على الشكوك التي تراود بعض
الافهام السقيمة التي اقلت على كاهل الدين الاسلامي
وزر ما يعانيه المسلمون اليوم من مظاهر التقصير عن
ادراك شأو الحضارة الغربية في مستواها العلمي
الرفيع .

وها هو الاستاذ يوسف مروه يعلن في اوائل
الفصل الثامن من كتابه الذي نحن بصدده :

« ان الغاية الرئيسية من هذه الفصول المتواضعة
هي :

اولا : ان نثبت للمؤمنين والمتعصبين ضد طلب
العلوم الحديثة ، ان القراءن قد دعا وشدد في طلب
جميع العلوم (الدينية والطبيعية) بلا استثناء ، ولذلك
فاننا ندعو رجال الدين للاطلاع بانفسهم على معطيات
العلم الحديث لان عدم المامهم بهذه المعطيات قد
شجع على انتشار الكفر والاحاد بين افراد شباب
المسلمين المثقف ، ذلك ان بعض رجال الدين الذين
يجهلون كل شيء عن العلم الحديث ، قد فشلوا فشلا
ذريعا في توجيه الشباب المسلم الى التمسك بتعاليم
الدين الحنيف .

ثانيا : ان نثبت للمثقفين المسلمين وغير
المسلمين الذين يحاربون الدين باسم العلم ، ان هذا
الدين قائم على العلم وان آيات القراءن وتعاليمه
تتسجم انسجاما كليا مع معطيات العلم الحديث
في ادق واخطر مباحثه وتجاربه واكتشافاته من ذرة
وفضاء ونسبية وغير ذلك من المواضيع العلمية الخطيرة
ولنؤكد ان العلم الذي دعا القراءن الى طلبه ، والذي
اقبل عليه المسلمون ، لم يكن العلوم الدينية والشريعة
فحسب ، بل دعا الى طلب العلوم الطبيعية ايضا وان
تراث الاسلام في حقل العلوم الطبيعية لهو اكبر دليل
على ما نقول :

هذا المفقيد العالم كتقديم للموضوع الخطير السدي
اعالجه .

وانا لا ندري ، لماذا يصر الاستاذ مروه على
اقناع قارئه بان الاسلام يدعو الى التعلم ويطلب الى
الناس احترام العلماء ، مع العلم بان احدا منهم لم
يرغم يوما بان هذا الدين يدعو الى الجهل او يطلب الى
اتباعه تقدير الاميين . حتى خصوم النبي محمد صلى
الله عليه وسلم واعداء رسالته السماوية ، فانهم لم
يعلوا في شنائهم للنبي ورسالته الى حد اتهامها بانها ضد
العلم واهله . ولو ان المؤلف حصر جهوده في اقناع
قارئه بموضوعه الاساسي ، وهو توافق الآيات الكريمة
مع ما حققه الانسان المعاصر في حقل العلوم الطبيعية ،
لو انه حصر جهوده في هذا الموضوع فقط لكان وفر
على نفسه وعلى قارئه كثيرا من الوقت والجهد .

ثم ان الاستاذ مروه كما يقول الشيخ موسى
الصدر ، ساير ذلك الذي قال في كلمته ان علماء الدين
يحمون مسؤولية عدم تفسير النصوص القرآنية
والسنن المطهرة . على ضوء العلوم الحديثة . واني من
رأى الشيخ المذكور بان الاطلاع على ظروف علماء الدين
الاسلامي يكشف انهم بدلو اصعاف امكاناتهم في سبيل
هذه الغاية الشريفة وقدموا عشرات الكتب بهذا
الصدد ، حتى ان بعضهم القوا كتباً في خواص العلم
التجريبية زائدا على تاليف كتب تحاول عرض النصوص
والاحكام الدينية بصورة علمية دقيقة في حقل الفلسفة
والاقتصاد والاجتماع والثقافة والحقوق وغيرها .

ونحن نزيد على ما قاله الشيخ الصدر بهذا
الصدد بأنه لا يوجد كتاب في طول الارض وعرسها من
بداية التاريخ حتى اليوم ، خدسه أهله من العلماء مثلما
خدم علماء المسلمين كتاب الله وان رفوف المكتبات
تكاد تنوء بأحمالها من آلاف الكتب التي تتناول القرآن
بالدرس والتحقيق والشرح والتفسير وبيسان دوره
الجبار في توجيه البشر بمختلف اجناسهم والوانهم الى
الحقائق الازلية التي تضمنتها آياته البينات .

ولعلنا نستطيع ان نلفت نظر الاستاذ المؤلف الى
الكتاب الذي ألفه سماحة الشيخ نديم الجسر مفتي
طرابلس ولبنان الشمالي تحت عنوان « قصة الايمان
بين الفلسفة والعلم والقرآن » لان هذا الكتاب الذي
صدر مؤخرا وأهدت طباعته مرارا ، من شأنه على ما
نعقده ان يقنع الاستاذ مروه بان أهل العلم الصحيح
من شيوخ المسلمين لم يبخلوا في أداء واجبههم نحو

القرودان الكريم في العاضن كما ان السلف الصالح من
امثالهم وزملائهم ، لم يبخلوا كذلك في الماضي في القيام
بهذا الواجب . على ان الفرق بين الاستاذ مروه وبين
هؤلاء وأولئك انهم فهموا القرآن الكريم على حقيقته
وعلى طبيعته في التشريع التنظيمي والتوجيه الاخلاقي
بينما اراد استاذنا الفاضل ان نفهم هذا الدستور
الالهي عبر الانفعالات النفسية التي اثارها موجة
التحديات المصرية الوافدة علينا من آفاق العالم
الغربي .

وهنا ، اجدني اعود مرة اخرى الى تأييد وجهة
نظر الشيخ موسى الصدر الذي يقول :

« ان القرآن الكريم كتاب دين وهداية ، وليس من
مهمته الابحاث العلمية وذكر القوانين التجريبية ،
او وضع أسس للانتاج الثقافي البشري ، فالقرآن
الكريم يحاول ان يصنع الانسان الكامل الذي هو مبدا
العلوم وغايتها ، ويتقن هذه المحاولة بأحكامه الفردية
والاجتماعية وتعاليمه المقدسة .

ويقول الشيخ الصدر كذلك :

« واعد لاؤكد ان تناول القرآن لهذه المباحث
(اي العلوم الكونية) هو استطراد ذكر وامثال ، وليس
من مهمة القرآن وضع الاسس ونقل القوانين العلمية ،
شان الكتب العلمية .

ونحسب انه لا يمكننا ان نزيد على كلام الشيخ
الصدر ما يزيده بيانا وايضاحا فوق ما هو عليه من
البيان والوضوح ، اذ لا يعقل ان يأتي القرآن الكريم
ولا اي كتاب سماوي آخر الى الناس بالقواعد المادية
والطبيعية التي يقوم عليها الكون لان مهمة الدين ، اي
دين ، هي ان يأخذ البشر بالمبادئ التوجيهية التي
ترسم امامهم طريق الايمان بالله عز وجل والعمل بما
فيه انضباطهم وصلاحتهم في هذه الحياة الدنيا . وليس
من مهمة الدين ، في قليل او كثير ، ان يتناول العناصر
التي يتألف منها الكون في مادته المجردة الا في حدود
المقدار الذي يضرب به المثل للمظة والاعتبار
والتأمل .

ومثل الكتب السماوية في هذا ، مثل الدساتير
التي يضنها قادة الامم لضبط الافراد والمجتمعات في
نطاق الروابط التي تحكم اواصرهم وتشدهم الى
المعيش بعضهم مع بعض دون اي تناقض ولا اصطدام .

ورد فعلا في سورة الجمعة حيث يقول تعالى « وتتركوك قالما » فكانت تكتة ما يزال الناس يتبادلونها حتى اليوم ...

وبعد ، فلقد اطلنا الكلام في نقد كتاب « العلوم الطبيعية في القرآن » حتى كلنا نوهم قارئنا بأن الاستاذ يوسف مروه قد خرج من جهده في هذا الكتاب على غير طائل ، بينما نحن ، علم الله ، ما لهذا قصدنا وما كنا لنضبط هذا المؤلف العالم حقه من التنويه بالروح الدينية العارمة التي تشيع في كل من سطور كتابه ، بل وفي كل كلمة من كلماته ، وما كنا كذلك ، لنجد له فضله في الإنكباب على دراسة كتاب الله سورة سورة ، وآية آية ، كي يخرج من هذه الدراسة بهذا الكتاب الغد الذي تضمن من المعلومات القيمة ما يدل على الثقافة العلمية الغزيرة التي يتمتع بها مؤلفه لا سيما في حقول الفيزياء وما إليها من نظريات حديثة مما يجعله في نظرنا ونظر كل منصف مفخرة شباب العرب والاسلام في هذا العصر ، بل نحن خرجنا بمد دراسة كتابه ، على قناعة وثيقة بأن هذا الشاب النابغة يستحق ان يوضع اسمه بين أسماء فطاحل العلماء المسلمين الذين اضافوا لثرائنا القومي صفحة مشرفة ليس في تاريخ العرب والاسلام وحسب بل في تاريخ الفكر الانساني قاطبة . وانه جدير بامتنا ان تباهل بمكانته العامية وان تفاخر بذهنه المتفتح أكثر الامم تقدا وابعدها شأوا في مضمار الحضارة والتطور والازدهار .

وإذا كان لنا ما نختم به هذا الحديث ، فإننا نختمه بالتمني على المسؤولين العرب ، بأن يفيدوا من مواهب الاستاذ مروه وكفائاته في علوم الذرة والفيزياء والكيمياء . هذه العلوم التي أصبحت اليوم ، ميدانا تتزاحم فيه الامم الحية لاحتراق قصب السبق في خدمة اغراضها القومية وتحقيق انتصاراتها العلمية من أجل مستقبل افضل للمجتمع الانساني والحضارة العالمية .

وان الطريقة التي اخذ بها الاستاذ يوسف مروه في تفسير القرآن وتاويل آياته وفق النظريات العلمية الحديثة يمكننا ان نقول فيها ما سبق ان قاله في امثالها غيرنا من جهاذة العلماء المسلمين امثال الشيخ رشيد رضا الذي نجده ، في مقدمة تفسيره «اللمعان» يعني على من تآثروا في تفسيرهم بالتزعة العلمية المادية . وان الشيخ رشيد قد نعا على الفخر الرازي ما اورده في تفسيره من العلوم الحادثة في الملة ، واعتبر ان هذا العمل من شأنه ان يصرف الانسان عن القرآن وهديه ، كما توجه بمثل هذا اللوم على الذين قلدوا الفخر الرازي في طريقتة من المفسرين المعاصرين . فلقد قال .. وقد زاد الفخر الرازي صارخا آخر عن القرآن هو ما بورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده ، كاهيئة الفلكية اليونانية وغيرها ، وقلده بعض المعاصرين (ويقصد الشيخ طنطاوي جوهرى) بايراد مثل هذا من علوم العصر وفنونه الكثيرة الواسعة فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية ، فصولا طويلة بمناسبة كلمة مفردة ، كالسما والارض من علوم الفلك والنبات والحيوان ، تصد القارىء مما انزل الله لاجله القرآن .

وبمناسبة الكلام عن جنوح بعض المفسرين الى الاستطراد في تاويل بعض آيات القرآن الكريم على غير مقاصدها الاخلاقية والتشريعة . فاننا لا نرى باسا من ايراد قصة ذلك المستشرق الذي اراد ان يياسط الامام الشيخ محمد عبده فقال له : انتم معشر المسلمين تزعمون ان القرآن يحتوي على كل شيء من العلوم والاحداث كما جاء في الآية 38 من سورة الانعام: « ما فرطنا في الكتاب من شيء » فهل ورد في القرآن ذكر لاسم شركة « كوك » الانكليزية للسفريات . فما كان من الاستاذ الامام الا ان اجابه ، على سبيل المباشرة ، لذلك فورا اجل فان اسم هذه الشركة

الإعداد العلمي في الوطن العربي

أصدر المؤتمر الثقافي العربي الثامن الذي انعقد بالقاهرة بين 20 و 30 ديسمبر (كانون أول) 1969 توصيات في موضوع اعداد المعلمين في الوطن العربي جاء فيه :

شأن معرفة العلمية والحضارية ، وكان لها اثرها الواضح في النهضة العلمية الاوربية .

واعتمادا على طبيعة اللغة العربية وسعتها ومرونتها وقدرتها على التطور والاستيعاب والتعبير من العلم الحديث وتطبيقاته ، وقد تمثل ذلك في التجربة الرائدة التي نهضت بعينها الجامعة السورية خلال نصف قرن بالتدريس والتأليف في الكليات العلمية العملية باللغة العربية ، والتي تتطلب من الجامعات العربية الأخرى الإسراع الى التعاون والدمج والمساندة.

ومع الاعتراف بالصعاب الحالية التي تمتعرض سبيل استعمال اللغة العربية لغة تدريس وبحث علمي في الكليات الجامعية والمعاهد ، والتي تستدعي :

- 1 - اعداد هيئة التدريس .
- 2 - ترجمة المصطلحات وتعميها وتوحيدها .
- 3 - استكمال النقص في المراجع والصادر العلمية .

وهي الصعاب التي أمكن التغلب عليها عملا في مراحل التعليم العام وفي كليات الحقوق وفي الدراسات الاجتماعية والنفسية ، التي أصبح التدريس فيها منذ زمن باللغة العربية في كثير من البلاد العربية أمرا واقعا وحقيقة مخررة ، بعد ان كان التدريس فيها

« التوصية الأولى »

اللغة العربية لغة العلم في التعليم العالي :

لما كانت اللغة القومية لكل أمة هي الوعاء الفكري للمواطن ، إذ أنها أداة التفكير كما أنها وسيلة التعبير. وتحقيقا للأهداف العلمية والتربوية لوضع المادة العلمية في متناول ادراك الطالب وفهمه دون هوائق لغوية خارجية تزيد من صعوبة المادة وتميل على الإبطاء في استيعابها .

وإيماننا بأن تأصيل العلم والتفكير العلمي لدى أمة يتطلب استعمال لغتها القومية في كل من التدريس والبحث العلمي في جميع مراحل الدراسة .

وإدراكنا أن استعمال اللغة القومية في التدريس والبحث العلمي يزيد من ارتباط العلماء بشعوبهم ومن ارتباط العلم وتطبيقاته بقضايا وطنهم وحاجات أمتهم ومتطلباتها ، ويساعد على الاحتفاظ بهم والحد من هجرتهم .

وتقديرا للحقيقة التاريخية المعروفة أن اللغة العربية وسعت في عصور ازدهارها جميع جوانب

بلغات اجنبية ، وكانت الافتراضات على تعريبها والصعاب امام ذلك هي الافتراضات والصعاب نفسها التي تثار الآن في مجال استعمال اللغة العربية للتدريس والبحث العلميين .

ومع التأكيد على ضرورة بذل مزيد من العناية باللغات الاجنبية لتكون نافذة تطل على سير العلم في البلاد الاخرى ووسيلة لمتابعة التطور العلمي في العالم.

فان المؤتمر يوصي بما يلي :

1 - المبادرة الى استعمال اللغة العربية لغة للتدريس والبحث العلمي في جميع مراحل الدراسة بالكليات والمعاهد العلمية والتقنية في البلاد العربية ، على ان يصدر في كل بلد عربي تشريع ملزم بذلك ، وان يكون البدء بتنفيذه في السنة الاولى (الصف الاول) بظك الكليات والمعاهد في بداية العام الدراسي التالي مباشرة لصدور التشريع ، وان ينص على ان يكون التنفيذ في السنوات (الصفوف) التالية متتابعاً عاماً بعد آخر دون فواصل زمنية .

2 - انشاء مركز لترجمة امهات الكتب والمراجع اللازمة لتعريب التدريس في الكليات والمعاهد العلمية .

3 - اعادة تاسيس اتحاد الجامعات اللغوية العربية الذي سبق ان وافق مجلس جامعة الدول العربية على تاسيسه وعلى نظامه الاساسي ، وحث مجلس جامعة الدول العربية على ان يرصد له اعتماداً مالياً كافياً يمكنه من القيام برسائلته العلمية والقومية الجليلة في مجالي التعريب والترجمة العلمية . على ان يتطور هذا الاتحاد في المستقبل ليصبح مجعماً لغوياً عربياً مركزياً وتصبح الجامعات الاخرى في البلاد العربية فروماً له .

4 - ارتباط المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي بالرباط باتحاد الجامعات وفقاً لترتيب خاص يمنع الازدواج في العمل والتكرار في الجهد .

5 - حث الحكومات العربية التي لا توجد في بلادها مجامع على تاسيس مجامع لغوية ، تكون رسالتها العمل في نطاق التطور نفسه على قيام نهضة لغوية فكرية بشتى الوسائل وتكون في

الوقت نفسه شعباً لاتحاد المجامع ودعامة له في عمله .

6 - تاسيس الجمعيات العلمية لمختلف فروع العلم في كل بلد عربي لتكون عوناً للجامعات والمجامع واتحادها والاتحاد العلمي العربي في النهوض بالتعريب والترجمة العلمية .

7 - بذل مزيد من العناية باللغات الاجنبية في التعليم الاعدادي والثانوي والجامعي ، والعمل على رفع مستواها للاستفادة بها في نشر البحوث العلمية العربية على الصعيد العالمي .

« التوصية الثانية »

السياسة العامة للاعداد العلمي :

لما كان المؤتمر يدرك ان المعركة التي تخوضها الامة العربية هي معركة حضارية في المقام الاول وان الامة العربية في حاجة الى تقدم حضاري يستفيد من العلم مضموناً واسلوباً في تدعيم الجبهة العربية ، ولما كان المؤتمر يرى ان التفاعل بين الحركة العلمية والتطور الصناعي والانتاجي امر ضروري للنهوض بها جميعاً ، فانه يوصي بما يلي :

1 - وضع الخطط طويلة الامد لتربية الجماهير العربية تربية علمية اصيلة تقوم على الايمان بالاسلوب العلمي في التفكير والوعي بسدور العلم في تطوير الحياة الانسانية ، وباهمية العمل العلمي في حل المشكلات .

2 - ان تقوم اجهزة التعليم والاعلام بالعمل على ازالة العراقيل التي تعوق الحركة العلمية حتى يفسح لها مجال العمل على رفع مستوع الثقافة العلمية بين الجماهير واشاعة الفكر العلمي وتاصيل النظرة العلمية للامور وتربية الاجيال الصاعدة تربية علمية شاملة .

3 - اعتبار عملية الاعداد العلمي عملية متكاملة تبدأ مع الطفل وتستمر حتى الدراسات العليا وان هذا التكامل يقتضي الربط بين مراحل الاعداد المختلفة وتحديد مستوياتها في كل مرحلة ، ولذلك فالمؤتمر يوصي بانشاء هيئات او مجالس دائمة تكون مسؤولة عن تطوير خطط ومناهج الدراسات العلمية في المراحل المختلفة ورسم

سياسة شاملة للاعداد العلمي ، والقيام بالدراسات والابحاث الخاصة بتحديد نومييات الاعداد ومستوياته .

4 - توثيق العلاقات بين المؤسسات العلمية ومراكز الانتاج والخدمات بحيث يتم تبادل الخبرات العلمية فيما بينها والعمل على حل المشكلات التي تواجهها تلك المراكز ، واتاحة الفرصة لتدريب الطلاب العلميين بصورة دورية في مراكز الانتاج والخدمات وانتقاء موضوعات البحث من المشكلات التي تطرحها هذه المؤسسات والمراكز .

« التوصية الثالثة »

الاعداد العلمي في التعليم العام :

يقدر المؤتمر الجهود التي تبذلها جميع الدول العربية في مجال تدريس المواد العلمية في التعليم العام ، ويرى وجوب اعطاء مزيد من الاهتمام لتحسين نوعية الاعداد العلمي في جميع مدارس التعليم العام نظرا لاهميته سواء لاعداد المواطن القادر على مواجهة مشكلات مجتمعه والمساهمة في حلها او لامداد العلميين المتخصصين .

ولذلك يوصى المؤتمر بما يلي :

1 - العناية اثناء تدريس العلوم في المرحلة الاولى بالدراسات التطبيقية على الطبيعة ، أي ان تقرر عملية التعليم بالشاهدة ما أمكن ذلك وان تنمي المبادرة الفردية واكتساب بعض المهارات العلمية بحيث يمكن تنمية الشخصية العلمية المزودة ببعض المعارف العلمية الاساسية .

2 - اعادة صياغة المناهج العلمية بحيث تهتم بأساسيات المعرفة العلمية دون ازديادها بالتفصيلات على ان تجري عملية متابعة وتقييم لهذه المناهج باستمرار في ما تسفر عنه من نتائج وما يستجد من احتياجات تمثيا مع التطور العلمي الحديث .

3 - تطوير أساليب التدريس ، وهذا يرتبط باعداد المعلم ، ولذلك فالمؤتمر يوصي بالاهتمام باعداد المدرس وتوفير الجو والظروف المناسبة لكي يقوم بدوره على احسن وجه ، وذلك عن طريق تحسين ظروفه المادية والمعنوية وتزويده

بوسائل التدريس اللازمة ومدته باستمرار بالجديد في العلم وفي طرق التدريس وتنظيم السدورات التدريبية والتجديدية المناسبة .

4 - الاهتمام بمزج الاعداد العلمي بالاعداد الانساني والقيومي ، وبوجه خاص اثناء احساس الطالب بالانتماء للوطن وادراكه لمسؤولياته تجاهه .

5 - العناية بتدريس اللغة العربية باعتبار ان اللغة القومية هي الوسيلة المثلى للتعبير عن الافكار العلمية وتبادلها بين اجزاء الوطن العربي . كما يؤكد ضرورة العناية بتدريس اللغات الاجنبية لانها وسيلة هامة من وسائل تحصيل العلم .

6 - العناية بالمدارس المهنية وزيادة عددها وتنوعها طبقا لمتطلبات خطط التنمية على ان يرتفع مستوى الدراسة العلمية النظرية في هذه المدارس الى ما لا يقل عن مستواه في المدارس العامة على ان لا يكون ذلك على حساب النواحي المهنية مع اتاحة الفرصة للمتخرج في هذه المدارس بمواصلة دراسته في التعليم التقني العالي اذا كان صالحا لذلك ، على ان يراعى في قبول الطلاب في هذه المدارس الميل والكفاءة .

« التوصية الرابعة »

الاعداد العلمي في المرحلة الجامعية :

يقدر المؤتمر الجهد الذي تبذله جميع الدول العربية في التوسع في التعليم الجامعي العالي ، ويرى ان الوقت قد حان للاهتمام بنوعية الاعداد في هذه المرحلة بما يلي باحتياجات الامة العربية . ولهذا يوصى المؤتمر بما يأتي :

1 - ان تحدد كل دولة عربية اهداف التعليم الجامعي بصورة واضحة في ضوء احتياجاتها المحلية من علميين على مختلف انواعهم ، اخذة في الاعتبار الحاجات القومية على نطاق الوطن العربي .

2 - ولما كان تحديد التخصصات وانواعها ومجالاتها امرا يرتبط بخطط التنمية الوطنية والقومية ، فان المؤتمر يوصي بانه اذا لم تتوافر خطط للتنمية طويلة الامد فيفضل ان تكون التخصصات مريضة تتيح للمتخرجين في الجامعة العمل في مجالات متنوعة بحيث يستطيعون سد حاجات

مختلف القطاعات والمشروعات التي يتقرر
انشاؤها في المستقبل .

3 - تجنب الازدواج بين الاعداد الاكاديمي والاعداد
التطبيقي ومرعاة الاحتياجات الفعلية للمجتمع

5 - زيادة الاهتمام بالعلوم الانسانية والاجتماعية في
الكليات العملية العملية .

6 - لما كان توفير المختبرات والاجهزة العلمية
والمكتبات يحتاج الى نفقات كبيرة قد لا تتحملها
الطاقات المحلية ، فان المؤتمر يوصي بالتنسيق
بين مراكز البحث والجامعات بحيث يستفاد
من الامكانيات الموجودة وذلك بانشاء معامل
وكتبات مركزية وتوفير خدمات التوثيق العلمي.
وفي هذا المجال يوصي المؤتمر بان تتبنى البلاد
العربية مشروع انشاء مؤسسة عربية لتصنيع
وصيانة ادوات واجهزة المختبرات والوسائل
التعليمية .

7 - توفير اعضاء هيئات التدريس اللازمين للتقيام
بابعاء التدريس بحيث تصل نسبة هيئة التدريس
الى الطلاب في اقرب وقت ممكن الى النسب
المقبولة عالميا .

8 - ان تتحمل الجامعات والمعاهد العليا مسؤولياتها
في متابعة النمو العلمي للخريجين عن طريق
البرامج التدريبية ووسائل النشر والاعلام
ومراكز خدمة الخريجين .

« التوصية الخامسة »

اعداد الباحثين العلميين :

ان المؤتمر اذ يدرك ان اية نهضة علمية اصيلية
تقوم اساسا على اكتاف مجموعة من الباحثين في
المجالات المختلفة ، تادرين على تنشيط حركة البحث
العلمي وربطها بالحركة الاجتماعية والاقتصادية ،
فانه يوجه النظر الى ضرورة الاهتمام باعدادهم وتوفير
الظروف الملائمة لهم ، وفي هذا المجال يوصي بما يلي :

1 - لما كانت اساليب البحث العلمي واهدافه في
الجامعات قد تختلف عنها في مؤسسات البحث
العلمي الاخرى والتي ينبغي ان يرتبط العمل فيها
باحتياجات تنمية المجتمع ، فان المؤتمر يوصي
عند تقويم اداء العلميين العاملين في مجالات

البحوث التطويرية والتطبيقية بالاعتماد على
الانتاج العلمي بدلا من الاقتصار على اعداد
رسائل الماجستير والدكتوراه .

2 - لما كان خريج الجامعة يحتاج قبل قيامه بالبحث
الى تدريب خاص يكسبه المهارات الاساسية
اللازمة للبحث فان المؤتمر يوصي بانشاء
دراسات خاصة للخريجين الذين يدخلون ميدان
البحث العلمي وتكوين مهملهم فيها للتعرف على
صلاحياتهم لمتابعة البحث العلمي .

3 - تشجيع الربط بين بحوث الماجستير والدكتوراه
وغيرها من البحوث الجامعية وبين احتياجات
المجتمع ما أمكن ذلك .

4 - يرى المؤتمر ان هناك حاجة الى مزيد من الاهتمام
بالدبلومات المهنية التطبيقية بحيث تتنوع وتأخذ
صورة ذات طبيعة تطبيقية يقصد بها اعداد
المختصين المهنيين اعدادا علميا وعمليا للعمل
في فروع التخصص التي يحتاجها المجتمع .

5 - تشجيع الباحثين على متابعة تكوينهم العلمي
بالانتساب الى دراسات ودورات تدريبية لرفع
مستواهم بشكل مستمر .

6 - الاهتمام باعداد وتدريب اخصائين في التوثيق
والنشر العلمي .

7 - الاهتمام باعداد وتدريب اخصائين في اعمال
الادارة العلمية والتخطيط العلمي .

« التوصية السادسة »

اعداد الفنيين والمعاونين في البحث العلمي :

لاحظ المؤتمر ان مرافق المؤسسات العلمية
والانتاجية لاسيما المراكز الصناعية في الوطن العربي
تعماني نقصا كبيرا في الفنيين ، مع ان العمل في هذه
المرافق يستند الى خدمات الفنيين في عمليات التنفيذ
بقدر ما يحتاج الى المهندسين والعلميين من ذوي
الاختصاصات العالية في عمليات التصميم والبحث .
لذلك يوصي المؤتمر بما يلي :

1 - الاهتمام باعداد ورعاية الفنيين والمعاونين في
شؤون البحث العلمي في قطاعاته المختلفة بخامة
الغنائم التالية :

١ - القيد التي تفرض في بعض البلدان العربية على حرية المعلمين في التفكير والعمل وعدم الاستقرار في مجالات العمل العلمي وهيئاته : مما يضر باستمرارية العمل .

كما يوصي المؤتمر كل دولة عربية بالعمل على الاحتفاظ بالمعلمين داخل الوطن العربي وعلى حسن الاستفادة من طاقاتهم ، وعلى ترغيب من هاجر منهم في العودة ، وذلك بتوفير المناخ العلمي اللائم والمشجع من طريق اتخاذ الإجراءات التالية :

1 - توفير الدخل المادي الكافي الذي يضمن تكريس كل جهود المعلمين لواجباتهم العلمية مع وضع الحوافز المادية والمعنوية لهم .

2 - رفع القيود على تحركات المعلمين داخل الوطن العربي للاغراض العلمية واطفاء العلماء العرب الاولوية في شغل الشواغر في الوطن العربي ضمن برنامج المنظمات الدولية .

3 - انشاء مركز عربي لجمع بيانات عن احتياجات الوطن العربي من المعلمين في حقول التخصص المختلفة وكذلك جمع بيانات عن القوى العلمية العربية العاملة في الوطن العربي وخارجه ، وذلك من أجل التنسيق بين احتياجات الدول العربية المختلفة بما يضمن توزيعا متكاملا للمعلمين واستخدام أكبر عدد ممكن منهم داخل الوطن العربي .

4 - مبادرة الدول العربية الى وضع خطط مشتركة تحدد فيها مشكلاتها العلمية واحتياجاتها من المعلمين وترصد لها الإمكانيات اللازمة لتنفيذ الخطة العربية المشتركة وحل ما يعترضها من عقبات .

5 - متابعة القيام بدراسات ميدانية تهدف الى التعرف على المشكلات التي واجهها ويواجهها المعلمون العرب داخل الوطن العربي ومسببات هجرتهم .

6 - اعادة النظر في مؤهلات المعلمين في مختلف الحقول الإنمائية في البلاد العربية وشغل تلك الحقول بذوي المؤهلات العلمية التسايرة المتخصصة .

١ - المختصون بصيانة واصلاح الاجهزة العلمية .

ب - المختصون باجهزة القياس الدقيقة والتحليلات ومختلف التحضيرات العلمية

ج - الفنيون المدربون على الاجهزة الالكترونية واجهزة الصناعات الكيميائية والتمدينية وغيرها .

د - الفنيون في اعمال التصميم والتجارب نصف الصناعية .

هـ - الفنيون في اعمال الرسم والتصوير العلمي.

و - الفنيون اللازمون للمعاونة في اعمال المكتبات والتوثيق والنشر العلمي .

ويجب ان يكون اعداد الفنيين متناسبا مع متطلبات العمل .

2 - تشجيع الفنيين ماديا ومعنويا وذلك بتحسين اوضاعهم المادية وتنمية الشعور بان عمل الفنيين لا يقل اهمية عن الاممال العلمية الاخرى.

3 - ان يكون المشرفون على اعداد وتدريب الفنيين من مدرسين ومدربين من ذوي الخبرة الفنيين المترسين بمثل هذه الاممال .

« التوصية السابعة »

هجرة المعلمين ووسائل الاحتفاظ بهم :

يوصي المؤتمر بان تراجع كل دولة عربية الظروف التي تدفع المعلمين العرب الى الهجرة مثل :

— ضعف التصميم المادي للعمل العلمي وقلة دخل المعلمين التي تصرفهم عن تكريس جهودهم للعمل العلمي المنتج .

— عزلة المعلمين بعضهم عن بعض على الصعيدين المحلي والعربي وعدم اشتراكهم في وضع خطط التنمية في بلادهم .

— التركيب البيروقراطي لكثير من المؤسسات العلمية وطرق التوظيف فيها والتي أدت الى وضع كثير من غير المناسبين في مسؤوليات حساسة في ميدان العمل العلمي ومن ثم سلبية كثير من المعلمين العائدين بعد تدريبهم وتأهيلهم في الخارج .

7 - مبادرة الهيئات العلمية الى خلق مدارس البحث العلمي المرتبطة باحتياجات المجتمع كوسيلة لربط العلمين بجمعهم وللحفاظ على العلمين الذين يعودون الى هذه الهيئات من الخارج ولتوضيح الدور الذي يجب ان يلعبه الممثل العلمي في بناء المجتمع العربي .

8 - انشاء صندوق عربي يتولى تنفيذ برنامج لتبادل العلماء العرب داخل الوطن العربي من جهة وبين المؤسسات العلمية العربية ونظيراتها في الدول المتقدمة من جهة اخرى .

9 - اتخاذ الاجراءات الضرورية للحد ما يمكن من خروج الطلبة العرب للدراسة الجامعية الاولى الى الجامعات الاجنبية خشية انصارهم في المجتمعات الاجنبية التي يذهبون اليها .

« التوصية الثامنة »

مسح الامكانيات العلمية :

يوصي المؤتمر ان تقوم كل دولة عربية بالمعمل على تحقيق مسح شامل وكامل للمؤسسات البحث فيها وذلك من حيث تركيبها واماكنها وتجهيزاتها وقدراتها والعاملين فيها (مؤهلاتهم وخبراتهم) وتمويلها والجهات التي تنبمها ومواقع اختصاصاتها ونشاطها وذلك تمهيدا للاستفادة من امكانياتها في خطط الانماء والبحث العلمي ولاستكمال نواتجها وتمهيدا لاستحداث وحدات جديدة في اماكن وميادين تميز على ضوء الحاجات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية، كما يوصي بان يكون جمع هذه البيانات والاحصاءات مستمرا ، وان تعمل ادارات الامانة العامة للجامعة العربية (الادارة الثقافية - قسم العلوم والتكنولوجيا وغيرها) على جمع هذه البيانات عن الدول العربية وتصنيفها ونشرها .

« التوصية التاسعة »

تنظيم البحث العلمي على النطاق المحلي :

يوصي المؤتمر بان تمعد كل دولة عربية الى انشاء هيئة مركزية على اعلى مستوى تتمتع بالاستقلال الاداري والمالي وتكون مهمتها وضع السياسة العلمية الوطنية وتوجيه البحث العلمي وتنسيقه وتشجيعه

واعداد الباحثين والعلمين على ضوء خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

ويوصي المؤتمر بان تنظم البلاد العربية مؤسسات البحث العلمي ليها على ضوء المسح الذي تجريه ، وهي تؤكد ضرورة وضع خطة علمية تستهدف التنسيق بين مختلف مراكز البحث بحيث تستفيد الى اقصى حد من الامكانيات العلمية المتوفرة وتوجهها الى تناول مواضيع البحث ذات الاهمية بالنسبة لحسن استغلال الموارد الطبيعية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية . كما يوصي المؤتمر بان تتوخى خطة انشاء وتدميم مراكز البحث تمكين هذه المراكز من تحقيق دورها في ميادين البحث الاساسي والتطبيقي والتكنولوجي وفي اعداد العلمين والباحثين الرئيسيين والمساعدين على السواء . وان يتم توزيع البحوث على المؤسسات العلمية بحيث تاتي متكاملة في خدمة المصلحة الانمائية العامة وبحيث تتجنب التكرار والازدواجية مع التأكيد على اهمية دور الجامعات في البحث العلمي ، وبحيث يقوم البحث العلمي بسدوره كجسر لنقل التكنولوجيا الحديثة الى البلاد العربية .

« التوصية العاشرة »

تنظيم البحث العلمي على نطاق الوطن العربي:

ان التنسيق بين جهود الدول العربية في المجال العلمي ضرورة ملحة لتحقيق اهدافها التومية ومبور نجوة التخلف، وبخاصة ان المشكلات التي تواجهها هذه الدول في حقول التنمية الاقتصادية والاجتماعية تتشابه موضوعيا ، مما يحتم عليها ان تتعاون وان تنسيق جهودها لحانا بالتقدم العلمي والتكنولوجي المعاصر ، وبخاصة ان التحديات الراهنة والمقبلة التي تواجه وستواجه الامة العربية تد وصلت الى مرحلة بالغة الخطورة ، وان عناصر التقدم العلمي من موارد بشرية وامكانات مادية وطبيعية ليست موزعة بشكل متوازن على رقعة الوطن العربي .

لذلك يؤكد المؤتمر اهمية التعاون العربي في حقل البحث العلمي ، وضرورة التنسيق والتوثيق وتبادل الخبرات والمعرفة ، ويوصي بما يلي :

اولا - ان يبادر العلميون في مختلف الحقول اينسا وجدوا في الوطن العربي الى انشاء جمعيات علمية عربية تضم الاختصاصيين في الحقول العلمية

التراصة والتداخلة في جميع البلدان العربية
وعلى سبيل المثال تنشأ الجمعيات الآتية :

أ - جمعية العلوم الرياضية والفيزيائية .

ب - جمعية العلوم البيولوجية .

ج - جمعية العلوم الكيميائية والبيولوجية .

د - جمعية العلوم الهندسية .

هـ - جمعية العلوم الطبية .

و - جمعية العلوم الزراعية .

ز - جمعية العلوم الاجتماعية .

ح - جمعية العلوم الادارية .

ط - جمعية العلوم الاقتصادية .

على ان تتضمن مهام هذه الجمعيات اصدار دوريات علمية لنشر البحوث على مستوى الوطن العربي وعقد المؤتمرات العلمية الدورية

ثانياً - ان يقوم اتحاد الجامعات العربية - وهو اطار مناسب للتنسيق العلمي بين الجامعات العربية - بدور اكثر فعالية في هذا المجال . ويحتاج ذلك الى :

1 - مزيد من الدعم المادي من الجامعات والحكومات العربية .

2 - توسيع قاعدة المؤتمر العام لاتحاد الجامعات ليشمل ممثلين لاهضاء هيئة التدريس من غير اهضاء مجالس الجامعات ومن مختلف التخصصات العلمية ، وعلى ان يعقد المؤتمر العام للاتحاد مرة كل عام .

3 - تنشيط عمل لجان الاتحاد الفنية واشراك اكبر عدد ممكن من اهضاء هيئة التدريس الرافعين والقادرين على المساهمة فيها .

4 - عقد مؤتمرات دورية تمثل اتسام التخصص في كل جامعة لتنسيق شؤونها العلمية والتعليمية .

5 - عقد حلقات دراسية لبحث المشكلات التي تواجه التعليم الجامعي في الوطن العربي مع الاهتمام بوجه خاص في المراحل القادمة بالوضوعات الآتية :

أ - مركز الاتسام العلمية وخصوصا البحث منها نظرا لتداخل لمروع العلم المتقاربة ولتجنب بعثرة الامكانيات .

ب - التنسيق فيما بين الاتسام التخصصية في الجامعات المختلفة لتوزيع اهتماماتها في مجال البحوث والدراسات العليا وتوزيعها بحيث تصبح متكاملة ومتفاعلة .

ج - اعداد ونشر دليل سنوي لاهضاء هيئة التدريس والعاملين في الجامعات العربية في مختلف حقول التدريس .

د - التنسيق بين الجامعات العربية في مجال المشاركة العربية في المؤتمرات العلمية والدولية وتنظيم الاستفادة منها .

هـ - اعداد دراسة تستهدف وضع مبادئ سليمة لتكلفة تعليم وتأهيل الطالب في مراحل التعليم العام والتعليم الجامعي .

ثالثاً - انشاء مجلس علمي عربي يضم البلاد العربية وتكون من بين مهامه الامور الآتية :

1 - انشاء وادارة مراكز البحوث الاتلمية .

2 - انشاء وادارة مراكز الخدمات العلمية الاتلمية .

3 - انشاء وادارة مراكز اتلمية لتدريب الفنيين العلميين .

4 - انشاء وادارة مركز للتوثيق العلمي .

5 - انشاء مركز يتابع تطور الحركة العلمية لدى العدو واستعمال العلم في جميع مجالات حياته .

6 - تميم البحث العلمي عن طريق تقديم المنح للباحثين حينما كانوا في الوطن العربي .

7 - تبسيط العلوم ونشر الثقافة العلمية باللغة العربية لمختلف فئات الشعب .

ويرى المؤتمر ان يستفيد هذا المجلس ما امكن مما هو متوفر من مؤسسات علمية تقوم الآن في البلدان العربية وذلك اما بتقويتها او بالحاق اتسام للخدمات والبحث فيها .

ويرى المؤتمر كمدخل لتحقيق ذلك ان تبادر الامة العامة لجامعة الدول العربية (قسم العلوم

والتكنولوجيا) الردموة عدد من العلماء الاكفيااء في الوطن العربي لوضع مشروع نظام هذا المجلس وعرضه على مجلس الجامعة في اول اجتماع مقبل له .

« التوصية الحادية عشرة »

التعاون العلمي العربي :

ينوه المؤتمر بأهمية التعاون العربي في مجال البحوث العلمية والمراكز الاتليبية المشتركة (من امثال مركز النظائر المشعة والمركز الاتليبي العربي لدراسات المناطق الجافة والاراضي القاحلة ومراكز البحوث التي اترها مركز التنمية الصناعية التابع للجامعة العربية) ، وبالنشاط الذي يقوم على نطاق الوطن العربي وينوه بأهمية « المجلس العربي المشترك للطاقة الذرية » الذي قرر انشاءه مؤتمر القمة الثاني .

ويوصي بأن يكون انشاء مراكز البحوث الاتليبية مرتبطا بموضوعات علمية تهم الوطن العربي والتنمية الاقتصادية فيه .

« التوصية الثانية عشرة »

التوثيق والنشر العلمي :

نظرا لان نتائج البحوث العلمية اصبحت تنشر في العالم في ملايين من التقارير العلمية بمشترات اللغات، فقد اصبح التوثيق العلمي من اهم الامور التي يجب ان تعنى بها مؤسسات البحث العلمي ، ويمتد التوثيق العلمي الكامل اليوم على اجهزة حديثة بالفة النفقة لذلك يوصي المؤتمر بأن تتعاون البلاد العربية على انشاء مركز للتوثيق العلمي يستخدم الوسائل والاجهزة الحديثة ويكون في خدمة البحث العلمي على الصعيد العربي كله .

« التوصية الثالثة عشرة »

تنظيم براءات الاختراع والملكية الصناعية :

يوصي المؤتمر بانشاء وتنظيم جهاز براءات الاختراع في كل دولة عربية، على ان يكون الجهاز ادارة استقبال اسرار التكنولوجيا الرفقة بطلبات براءات الاختراع ، واداة ارسال تلك الوثائق الى مراكز البحث العلمي

والجامعات والمصانع ، واداة متابعة تعميم تطبيق أحدث الاختراعات في الصناعات الرئيسية . على ان تتبع ادارة براءات الاختراع الجهاز العلمي المركزي في الدولة ، وان يتمتع الجهاز بكيان ذاتي . ويتمين ان يتضمن جهاز براءات الاختراع فضلا عن الادارة التقليدية التي تختص بالاجراءات والسجيل ، ادارة تكنولوجية واقتصادية ، وادارة وثائق واعلام ، وادارة ابحاث قانونية وعلاقات دولية .

ويوصي المؤتمر البلاد العربية بالعمل على اعداد فئة من العلماء والقانونيين والاقتصاديين والخصائيين الوثائق والمكتبات تخصص علماء وعلماء في براءات الاختراع والملكية الصناعية .

« التوصية الرابعة عشرة »

يوصي المؤتمر بالتعاون بين الدول العربية في مجال الملكية الصناعية بتكوين مركز للملكية الصناعية ووثائق براءات الاختراع . ويختص المركز بالعمل على تنسيق تشريعات الملكية الصناعية في الدول العربية وتوجيه حركة التشريع لتحقيق مصالح الدول العربية وحماية حقوق المخترعين العرب كما يختص بالتبام بالابحاث الخاصة بالاتفاقيات الدولية في الملكية الصناعية واعمال وثائق براءات الاختراع ونشر هذه الوثائق .

« التوصية الخامسة عشرة »

تمويل البحث العلمي :

يوصي المؤتمر بأن تخصص كل دولة عربية للبحث العلمي ما لا يقل عن الواحد بالمائة من الدخل القومي العام على ان ترتفع هذه النسبة الى اثنين بالمائة في ظرف ثلاثة اعوام . ويكون توزيع اعتمادات هذه المخصصات مرتبطا بخطة البحث العلمي التسي تنبثق من خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

« التوصية السادسة عشرة »

دور العلم والعلميين في مواجهة التحديات :

لما كان الاعداد العلمي يحتاج الى وحدة تكسر وعمل بين جميع الاجهزة المسؤولة منه ، ولما كان هذا الاعداد يتم ضمن اطار اجتماعي يوجهه نحو

5 - انشاء معاهد تكنولوجية متخصصة او اضافة
مروع للمعاهد القائمة تختص بالدراسات
والبحوث ذات الصلة بالعمل العسكري وفي هذا
المجال ، يوصي المؤتمر الدول العربية التي توجد
بها نواة لمثل هذه المعاهد ان تضمها في خدمة
المعلم العربي الشامل بغرض تثبيتها لتحقيق
اهدافنا القومية .

6 - الاهتمام بايجاد جهاز من العلماء المتخصصين
ضمن القيادة العسكرية لكل دولة عربية في
اطار الدفاع المشترك. ويكون هذا الجهاز مسؤولا
عن تقديم معوناته بشأن وضع العلم واجهزته
وبحوثه في خدمة العمل العسكري .

7 - تعبئة جميع الطاقات العلمية العربية الموجودة في
الوطن العربي وخارجه لتوجيهها نحو خدمة
مطلبات المرحلة الحالية ، وفي هذا المجال يشير
المؤتمر بصلة خاصة الى توجيه قدرات البحث
العلمي لانتاج اسلحة مناسبة بموارد متاحة داخل
الوطن العربي ، هذا الى جانب تدريب ابناء الامة
العربية على المهارات الحربية والادارية المناسبة.

8 - بناشد المؤتمر اجهزة الاعلام في الوطن العربي
اعطاء مزيد من الاهتمام لنشر الوعي العسكري
العلمي حتى يكون جميع المراد الامة العربية
على مستوى متطلبات المرحلة سواء بالنسبة
للعمل العسكري المباشر او بالنسبة لوسائل
الدفاع المدني .

غاياته المرجوة ، ولما كان للعلم دور رئيسي في مواجهة
مطلبات المرحلة المستمرة مع الامبريالية وقاعدتها
الصهيونية وهو دور لن يتحقق الا باتخاذ التدابير
اللازمة على المستوى الوطني وعلى المستوى القومي
لان المؤتمر يوصي بما يلي :

1 - ضرورة وضع سياسة عامة للاعداد العلمي
تنبثق من واقع الوطن العربي وتكون على
مستوى التحديات التي تواجهه عسكريا واقتصاديا
وحضاريا ، وتحقق متطلباته واحتياجاته في ضوء
خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية
والتعبئة العسكرية .

2 - الاسراع باجراء الدراسات الخاصة بالمدو
وطاقاته وامكانياته وسياساته العلمية والطرق
التي يتبعها في المجالات السياسية والاقتصادية
والعسكرية والعلمية والتكنولوجية واجراء
دراسات من طاقاتها العربية التي يجب حشدتها
من اجل المواجهة الحالية والمستقبلية مع العدو .
وفي هذا المجال أيضا يشير المؤتمر الى اهمية
الاستمارة بملحقين علميين يتم تعيينهم في الدول
المختلفة لجمع المعلومات العلمية .

3 - تنظيم وتدريب برامج ثقافية عامة وناهج في
التعليم العام والجامعي تناول عدونا وطاقاته
وطرق مواجهته والتعريف كذلك بالانجازات
العربية .

4 - الاهتمام بالدراسات التي تهدف الى رفع مستوى
العلوم ذات التطبيقات العسكرية في الجامعات
والمعاهد الفنية العالية .

النيث في العرس

الرويني

الأستاذ عبدالحق فاضل - الدار البيضاء

العدد من الثلاثة الى العشرة ، فقالوا مثلا : (سبعة) رجال ، بدلا من : سبع رجال .

ولا يحق لنا التبادي أكثر من هذا في عرض رأي الباحث المستشرق اعتمادا على الذاكرة بعد هذا الإمد المتطاوول ، مخافة أن نظلم الرجل فنمزو اليه ما نتوهم انه قاله وهو لم يقله ، أو قاله على نحو آخر . لكننا نذكر أننا حين قرأنا ذلك البحث لم نعتنع بتأويلاته ولو أننا تقبلناه على انه مقال طريف ومحاولة جريئة لتفسير ظاهرة لغوية غريبة ، من زاوية جديدة .

أما بصدد النقطة الاولى فإن الكثير من أسماء الجمادات لا يخضع للقاعدة المذكورة فقد وردت في العربية مؤنثات من الجمادات لا مشابهة لها بالانوثة كالمصا والفأس والذراع ، ومذكرات لا شبه لها بالذكورة كالوادي والغار ، والجب المرادف للبئر المؤنثة .

وأما بصدد النقطة الثانية ماذا اعتبرنا التانيث في بعض الحالات تكريبا للمرأة حيث قيل سبعة رجال فإن الباحث لم يذكر لهما نظن ان اسم العدد يذكر أيضا مع المؤنث — مما يقلل هيئة المرأة ويفل من سطوتها — ليقال (سبع) نساء ، بدلا من سبعة نساء . ولعل المستشرق الفاضل قد ذكر ذلك وفسره بطريقة لم نقتنعنا على كل حال .

قرأت منذ أكثر من عشرين عاما — في مطبوع ما ، لعله مجلة غاب عن بالي عنوانها — لمستشرق نسبت اسمها — بحثا شائقا حاول فيه تفسير ظاهرة التانيث في لغتنا بما فيها من غرابة ومفارقات . والذي تستطيع الذاكرة ان تستعيده الآن من ذلك البحث هو التفتتان الاساسيتان اللتان عليهما كان مدار الموضوع .

النقطة الاولى قوله ان العرب انثوا من الجمادات ما هو شبيه بالانوثة مما كان مثقوبا أو هيقا أو موطوا أو نحو ذلك ، كالرحي والبئر والارض . وبوسعنا جريا على هذه النظرية ان نضيف الى ذلك من الجمادات المؤنثة التي تشبه المرأة ما كان ساميا كالسما ، وهاجا كالشمس ، ومقلبا كالريح ، ومحرقا كالجحيم ، ومدبرا كال حرب ..

والنقطة الثانية قوله ان العرب كانوا قد مروا في احد عهودهم القديس بمرحلة الامومة كغيرهم من الامم ، أي مرحلة سيادة المرأة الام على العائلة قبل الانتقال الى مرحلة الابوة أي سيادة الرجل الاب . ويخيل لي ان المستشرق قد استشهد على رايه هذا بنبذة من كلام هيرودتس عن علاقة مغايرة للبالوف الحديث كانت على عهد قائمة بين الرجل والمرأة ، لدى بعض العرب ، ولا نعتب ان ذلك الاستشهاد كان وائيا بمرامه لانه لا يدل على سيادة المرأة فيما نذكر . وعلى أية حال كان من تاثير سيطرة الانثى الام ، على قوله ، ان العرب انثوا الكثير من أسماء الاشياء غير المؤنثة ، حتى من الذكور البشر ، كتانيث اسم

ولاندري الآن ما اذا كان قد فاته كذلك ان الجمادات
تؤنث وتذكر في اللاتينية وبناتها . فهل نمزو ذلك
الى مشابهة المسيمات للذكورة والانوثة او الى سيطرة
الام على الرومان قبل ان تتوطد لديهم سيطرة الاب
ايضا ؟

اشارة ، فمن العائهم الهزة بها مفتوحة ومضمومة
ومكسورة نشأت حركات الازراب ، ومن الحاق النون
بها نشأ التنوين بمختلف حالاته .

التاء :

والذي يهديننا اليه استعراض الضمائر العربية
في شتى احوالها وصورها هو ان هذه العناصر
الضميرية البدائية الثلاثة لم تنشأ في مكان واحد عند
تفريق معين من الازرابين (العرب الاوائل) ، بل ان
كل طائفة منهم كانت تستعمل واحدا من هذه الضمائر.
تفريق منهم كانوا يستعملون ضمير (تا) كما كان لتفريق
ثان يستعملون ضمير (آ) وتفريق ثالث ضمير (نا)
كالدلي فصانه وعلناه في كتابنا الإنف الذكر ، فلا حاجة
للامادة فيه هنا .

وهكذا كان نصيب التاء ان الحقوا كأخويها
الضميرين الآخرين بالاسماء والاعمال . وهذا هو سر
وجود التاء في بعض الاسماء مثل : جبهة ، هضبة ،
اجمة ، مقدرة ، خشية .

فليس التانيث هو الغرض من التاء في أسماء هذه
الاشياء المجردة من اي اثر لاي تانيث أو تذكير ، وانما
التاء هنا مجرد بقية أثرية من عهد لغوي مندرس بميد
كانوا فيه يلحون بها بكل الاسماء والاعمال .

وقد كان من نتيجة اختلاط التقبيل الذين يستعملون
التاء بغيرهم من الازرابين الذين لا يستعملونها ان
ضعف شأنها وتقل استعمالها حتى انها سقطت من كثير
من الاعمال مثل : عمل ونعمل ويفعلون ، ومن معظم
الاسماء مثل : جبل ، طير ، نهر ، أرض ، كوكب ،
تراب ، بحر ... وبقية عالقة باسماء أخرى كالتسي
ذكرناها : هضبة ، جبهة ، الخ ... وبقية متأرجحة في
اسماء أخرى حيث يمكن حذفها وإثباتها في مثل : ليل
ونجم .

فلنا ان التاء الحقوا بالاسماء والاعمال لاداء
معنى الضمائر أو أسماء الاشارة أول الأمر ، لكن
تطاول الاحتباب وتعاقب الاجيال جعلها تظهر أولا في
صور مختلفة بسبب اختلاف القوم في نطقها كما قلنا ،

ويلاحظ ان اسم الجباد الخلو (1) في اللاتينيات
اما مذكر فقط واما مؤنث فقط . واما في العربية لسان
الكثير من أسماء الاخلاء يجوز فيها التذكير والتانيث .
فهذا يصف رأي المستشرق الباحث في قوله ان لشابهة
الاشياء بالانوثة علاقة بالمسألة . ولو نحن مضينا في
التطبيق قياسا على نظريته لقلنا ان جواز التذكير
والتانيث في الكثير من أسماء الاخلاء في العربية يدل
على مرور العرب بعهد سادت فيه الخنثى على العائلة .

قبل الادلاء برائنا في تفسير ظاهرة التانيث
يطالبنا الإنصاف ان نحى هذا الجهد المخلص الذي
أنفقه الفضال المستشرق — المجهول لدينا في الوقت
الحاضر ، وقد نهتدي الى معرفة اسمه ذات يوم —
نحو وامثاله من الباحثين الاجانب ، الذين قاموا بعملية
استكشاف واسعة المجال في قارة التراث العربي ومنه
تراث اللغة ، قد اسدوا الى العربية خدمات قيصة
مشكورة ، ولا عتب عليهم ان اخطأوا أحيانا ، فان لهم
الفضل انهم اسابوا أحيانا كثيرة أخرى .

الضمائر العربية :

اذا حللنا الضمائر العربية — انا ، انت ، هو ..
الخ — نجد انها تتألف من ثلاثة عناصر أساسية : الالف
والنون والتاء . وقد تطرقتنا في كتابنا « مخابرات لغوية »
(في فصل اسرار الضمائر) (2) بشيء من التفصيل الى
هذه العناصر الضميرية الثلاثة التي نطقها الانسان
الاقدم (آ) و (نا) و (وسا) أول الأمر ، ثم
تطورت لتتعدد صيغها وتنوعت معانيها ، اي ان
الاقدمين كانوا يفتخرون في نطق هذه الضمائر المنشآت
لها صيغ كثيرة ، وكانوا لفرهم اللغوي يستعملون كلا
من تلك الصيغ في مختلف المعاني التي يتوقون اليها
الانصاح عنها ولا يجدون الالفاظ المعبرة عن كل منها .
وكانوا يلحون هذه العناصر البدائية الثلاثة
(آ ، نا ، تا) بالاسماء والاعمال كضمائر أو أسماء

(1) نستعمل كلمة الخلو — زنة الصنو والشلو — بمعنى الشيء الخالي من الانوثة والذكورة . وموطنها :

(2) وفي مجلة « اللسان العربي » العدد الخامس ، لسنة 1967 .

وتؤدي ثانيا أفراسا مختلفة بسبب الفقر اللغوي الذي المعنا اليه. ما اضطرهم الى استعمال الكلمة الواحدة في اكثر من معنى واحد .

ومن اختلاف الطوائف الازهرية في نطقها نجدها في لغتنا مضمومة ومفتوحة ومكسورة وساكنة . ومن بقايا استعمالها بمعنى مختلف الضمائر سوف يستغرب القارئ ان نقول له ان (تو) ما زالت تعني أنسا بالمرية ، وأن (تا) تعني أنت المخاطب ، و (تي) تعني أنت المخاطبة ، و (ات) تعني هي . لكننا نجد هذا كله جليا مدهشا في الفعل الماضي ، فالتاء المضمومة تعني أنا في فعلت (= فعل + تو) ، والمفتوحة تعني أنت في : فعلت (= فعل + تا) ، والمكسورة تعني أنت في : فعلت (= فعل + تي) ، والساكنة تعني هي في : فعلت (= فعل + ات) . وهذه الصيغة الاخيرة (ات) قد ذابت همزتها كما تذوب همزة في كثير من الحالات التي سميت فيها همزة وصل .

وظائف التاء :

أوضحنا في كتابنا المذكور كيف تفقد الضمائر أحيانا وظائفها أي معانيها ، أو تعاض منها وظائف أخرى . وقد كان شأن التاء في هذا شأن غيرها من الضمائر فقد تقلبت عليها أحداث لغوية أهدتها وظيفتها أحيانا وأبدلتها بها وظائف أخرى أحيانا أخرى ، في ظروف تطورية مثيرة ، نجملها فيما يلي :

أولا : فقدت التاء وظيفتها تماما في بعض الاسماء مثل : نجمة وضلعة وماءة — فيجوز لك حذف التاء من هذه الاسماء فتقول : نجم وضلوع وماء ، بنفس المعنى . أي ان التاء هنا لم تستطع ان تجد لها وظيفة ما أو تخصص بحالة معينة تميزها عن حالة تجسرد الاسم من التاء . فممكننا على هذا ان نسميها (التاء الزائدة)

ثانيا : وجدت التاء لنفسها بعض الوظائف تؤديها في بعض الحالات ، من ذلك انها تغير معاني بعض الالفاظ مثل : الظهير والهاجر والجر . فهذه الالفاظ تكتسب معاني جديدة ليست لها أية علاقة بمعانيها الاصلية حين تلتحق بها التاء فتصبح : المهاجرة والظهير والجرة . فهذه قد يجوز تسميتها (تاء التغيير).

ثالثا : صارت التاء تختلق معنى لبعض الالفاظ التي لا معنى لها . وبمعبر آخر ان التاء صارت جزءا متما لبعض الاسماء بحيث تصبح لا معنى لها اذا

حذفت التاء منها ، مثل : الامسية والبكرة والرنة والبورة — فلا معنى لالفاظ الامسي والبكر والريه والبور . أي ان التاء هنا قد التصقت ببناء الكلمة فاصبحت جزءا من نسيجها كحروفها الاصلية . وهذه يصح ان نسميها (التاء اللازمة) .

رابعا : صارت التاء اداة لتكوين بعض المصادر كما في الفعلين: دحرج واستقام ، بمصدرهما: دحرجة واستقامة — وهي قاعدة قياسية لا حيد عنها ، أما في الفعل المضعف فان التاء وجوبية أحيانا في مثل : وصى توصية وعبا تمبنة .. وجوازية أحيانا في مثل : قدم تتدما أو تتديما ، وكرم تكريمة أو تكريما .. ومنوعة أحيانا كما في علم تعليما وكسر تكسيرا ، فلا يقال تعلمة وتكسرة . وهذه أجدر بأن تسمى (التاء المصدرية).

خامسا : صارت التاء تؤدي معنى الحرفة في مثل: الكهانة والسفارة والسدانة والعيافة — أي حرفة الكاهن والسفير والسادن والعائف . وهذه نسميها (تاء الحرفة) .

سادسا : صارت التاء تؤدي أيضا معنى توكيد الصفات في مثل : النسابة والدواقة والراوية . فاذا حذفنا التاء من هذه الصفات فقلنا النساب والذواق والراوي ، ضعفت قوة المعنى ، على حين انه لا يجوز حذفها من بعض الصفات المؤكدة بها مثل الطلعة والهمزة واللمزة (بضم الاول وفتح الثاني في اللفظ الثالث) — أي الكثير التطلع والهماز واللماز ، فلا يقال فيها : الطلع والهمز واللمز ، وهذه التاء أجدر بأن تسمى (تاء التوكيد) . وهي تاء لازمة في نفس الوقت في الطلعة والهمزة واللمزة .

سابعا : صارت التاء تدل على معنى الامراد في بعض الاسماء كالشجرة والحمامة والسكة ، فاذا حذفنا من هذه الاسماء أمثالها صارت تدل على الجمع أي اسم الجنس : الشجر ، الحمام ، السمك ، ولا يمكن اعتبارها تاء تانيث حتى في الحمامة والسمكة وغيرها من الاحياء ، لان الكثير من أمثال هذه الاسماء تطلق على الذكر والانثى دون تمييز . وتتجلى وظيفة الامراد على نحو أوضح في مصادر بعض الاعمال . فالنظرة هي النظر مرة واحدة ، والابتسامة والضربة والاكله هي الابتسام والضرب والاكل مرة واحدة . فهي إذن (تاء الامراد) .

ثامنا : على العكس من هذا صارت التاء تعني الجمع في أسماء أخرى مثل : المعدناني والطحطاني

والضري واليماني والسياف والخيال . فقد جمعوا على مدنانية وتحطانية ومخرية ويمانية وسياحة وخيالة — أي بمجرد إضافة التاء الى الاسم المفرد دون تغيير في تركيب بنائه . على حين ان بعض الاسماء تتغير بنيتها اذا جمعت بالتاء مثل جمع الماضي والبازي على مشاة وبزاة ، وجمع للقائد والسائق على قيادة وساعة ، وجمع الضماني والمنذري على فسانسة ومناذرة ، وجمع الكاتب والفاعل على كتبة وعملة ، وجمع الدب والفيل على دببة وفيلة .

ومن الطريف ان التاء صارت اداة الجمع في بعض اللغات الآرية ايضا كالانجليزية والفرنسية والاسبانية ، لكن بعد ابدالها سينا (s) ، وابدال التاء سينا . موضوع له اهميته اللغوية الخاصة ، وقد اوضحناه في كتابنا الآنف الذكر ، والعدد المذكور من مجلة « اللسان العربي » .

هذا في الاسم ، غير ان معالية التاء في ميدان الجمع شملت الفعل ايضا ، كما في : تالت الازراب وتقول الرجال ، فالتاء هنا تعني الجمع لا التانيث كما توهم النحاة ، بدليل ان التاء في تولنا (انفضت الناس) تحل محل واو الجمع في تولنا (الناس انفضوا) ، وانها في تولنا : (تفعل الرجال) تعمل عمل السواو والنون في تولنا (الرجال يفعلون) . وهذه التاء ما هي الا (تاء الجمع) .

تاسعا : واخيرا ناتي الى تاء النحويين ، أي التاء التي تدل على التانيث في اسما بني الانسان والحيوان أي الكائنات المنقسمة الى اناث وفكور مثل : امرأة وهرة ونمرة وسعيدة وعاقلة — تانيثا لمره وهر ونمر وسميد ومائل . وهي نفس التاء الملحقة بالفعل الماضي في تولهم : جاءت وذهبت — تانيثا لتولهم : جاء وذهب

وكانت التاء الملحقة بالاسماء تنطق صريحة فيما نعتقد حتى عند الوقف عليها في آخر الكلام كما هي الحال في الفعل الماضي (فعلت هي) . وما زال بعض العرب على ذلك أي ينطقون تاء التانيث في الاسماء حتى عند الوقوف عليها فيقولون حين يقرأون في الفصحى : الشجاعت والحرارت والانسانيت — وهي احدى اللهجات في لبنان . ومثل ذلك يفعل الاتراك والفرس في الالفاظ العربية الثالثة المستعملة في لغتيهما مثل : محبت امانت ، سلطنت ، انسانيت ، ملت .

وقد نطق بعض العرب اسما الاناث بعد الفتحة قبل التاء ، ولا يزال على ذلك بعضهم كالمصريين في نطق ثريات وعنايات (اسم علم للانثى) ، ومع الزمن تخصصت هذه الصيغة الجديدة لدى الاميريين بجمع المؤنث السالم ، مثل جيلات وراحيات وفائيات .

في اللاتينية :

وبعض العرب المعاصرين ينطقون تاء التانيث في لغاتهم الدارجة في بعض الاسماء ويهملونها في بعض ، كالمراقبين الذين ينطقونها في مثل : المسوات والحيات والشريت ، ويهملون نطقها في مثل : الحرية والتربية والصلاة .

واهمال نطق التاء في بعض الالفاظ منحدر من اصل عربي عريق لئما يظهر ، منشؤه ان بعض الاميريين صاروا يستقونها في الاسم عند الوقف عليها في آخر الكلام فقط — كما هي الحال في الفصحى التي يومنا . وبذلك زالت التاء وبقي منها اثر هو الهاء الساكنة ، ومن هنا صارت المعاجم العربية تسميها (الهاء) بدل (التاء) . والواقع انها ليست هاء بالمعنى الصحيح لئى على الاغلب تنطق مجرد مفتحة على آخر الاسم . ويظهر ان بعض اللهجات القديمت اتخذت ذلك قاعدة عامة لها حتى عند وقوع التاء في داخل الجملة ، وقد بقيت هذه القاعدة في بعض اللغات الآرية كالاتينية والاطالية ، ففي اللاتينية يقال : filia (بنت) ، و amica (صديقة) ، و lupa (ذئبة) — تانيثا لتولهم filius و amicus و lupus . وهذه المؤنثات الثلاث توجد بنفسها في الايطالية — غير ان البنث تكتب filia (وتنطق filia ايضا) . اما مذكراتها في الايطالية فهي : figlio و

amico و lupo

واما في الفرنسية فان التاء تنطق صريحة في الالفاظ المؤنثة بها مثل toutes (جميع) ، للمؤنث) و cette (هذه) و coite (هادئة) — ومذكراتها tous و ce و coi يضاف الى ذلك في الفرنسية ان تصغير الاناث ايضا يتم بالحاق التاء في مثل : table (مائدة) و casse (صندوق) و française (فرنسية) — وتصغيرها : tablette و francette

ونأتي الآن الى تلك القاعدة الشذوية التي حيرت الالهام واعتبرت من بدوات اللغة العربية ونزواتها البوهيمية ، وهي قاعدة تانيث العدد (من الثلاثة الى العشرة) مع الذكور وتذكيره مع الاناث . ، لنتمهما على ضوء تحليل وظائف التاء . فما تفسيرها يا ترى؟

مفتاح هذا اللغز هو التفريق بين وظيفتي الجمع والتانيث . فقبل كل شيء يجب ان نعترف بان التاء في (الثلاثة) وأخواتها إنما هي تاء جمع لا تاء تانيث، فحين تال أجدادنا البداية في عهد جاهلي سحيق : سبمة نمرسان ، لم يخطر لهم أن يؤنثوا النمرسان مثلما لم يخطر لهم أن يؤنثوا اليمانيين والغازين والخيالين حين سموهم : يمانية وغزاة وخيالة .

أما في حالة عد الاناث فقد استشكلوا اجتساع التامين — تاء جمع العدد وتاء تانيث المعدد — في مثل (خمسة بقران) فاستطوا احدى التامين ، تخليفا . ولقد كان التطور اللغوي منطوقا جدا هذه المرة إذ أسقط تاء الجمع ، لا تاء التانيث ، لان معنى الجمع مفهوم بذاته في اسم العدد . أما لو أنهم أسقطوا تاء التانيث من البقرات والفتيات والوالدات لتغير معنى التانيث الذي اراده القائل ، فذلك امتنعوا منه .

وحذف تاء الجمع من المعدد ينطبق كذلك على جميع أسماء الاخلاء (الجمادات) المنتهية بالتاء كالتخيلات والهضبات والجففات ، ثم سرى ذلك على جمع أسماء الاخلاء المؤنثة ، ولو لم تكن منتهية بالتاء ، كالعصبي والدور والمؤوس والحروب .

هذا التفسير يؤيده لنا أنهم وازنوا — لفرض التخفيف أيضا — بين التامين — وكلتاها للجمع — في الاعداد المعشرة ، فصاروا اذا نطقوا التاء في احد شطري العدد استطوها من الآخر ، فقالوا : خمسة عشر حصانا وخمس عشرة نمرسا ، أي أنهم استعملوا تاء واحدة لكل من الذكر والمؤنث في كل من الحالتين .

لم يكن فرض القوم اذن تانيث الرجال ولا تذكير النساء ترضية لغزوز المرأة واعتراهما ببأسها .

صلاة القول ان التاء وردت في معان مختلفة متعددة متميزة ذكرنا ما يحضرنا منها هنا باجمال ، ولا ندري ان كنا قد اغفلنا بعض حالاتها المهمة ، لكننا نتوقع على كل حال ان المستقبل سينتج بحونا منفصلة في هذا الموضوع بعد التشبع الطويل والاستقراء الشامل، وما نرجو لحدیثنا هذا السريع الا أن يكون خميرة لذلك المستقبل .

ويكفينا الآن ما تقدم بنا من مظاهر التاء النسبي سببها بحسب وظائفها : التاء الزائدة ، وتاء التغيير، والتاء اللازمة ، والتاء المصدرية ، وتاء العرمة ، وتاء التوكيد ، وتاء الامراء ، وتاء الجمع . وأخيرا تاء التانيث . افليس من العجب العجيب ان النحاة المشهورين بتدقيقاتهم المبالغ فيها في بعض التوافه ، لم يميزوا بين حالات التاء المختلفة هذه بل احتطبوها جميعا ، خبط عشواء ، وكدسوها تحت اسم تاء التانيث ؟

وقبل ان ندرغ من حديث التاء وننتقل الى مظهر آخر من مظاهر التانيث في العربية يجدر بنا ان نلاحظ ان الاعتباطات التطورية قد عملت عملها في خلط وظائف التاء بعضها ببعض شأنها في مختلف التطورات اللغوية . أي اننا نجد للتاء أكثر من وظيفة واحدة في الكلمة الواحدة أحيانا ، مثل : تعمل أنت وتعمل هي ، تعملان انتما وتعملان هما الغائبتان ، اقبلت الجارية واقبلت الفرسان . ومثل ذلك: المرأة العدنانية والعرب العدنانية . بل قد تجتمع في الكلمة الواحدة ثلاث وظائف مثل (النسابة) وهي تمنى المرأة النسابة أو الرجل النساب أو الرجال النسابين . وشبيه بذلك (السفارة) التي اكتسبت الآن معنى حديثا بالإضافة الى معناها القديم — فقد صارت السفارة تطلق على المؤسسة الرسمية التي يرأسها السفير .

غير ان هذا الاختلاط في المعاني لا يرفع الملامة من النحويين الذين لم يتفهموا شيئا من نشاطات النساء أصلا ، فقد كان عليهم — جزاهم الله رفعا ونصبيا ووقاهم الكسر والجر — أن يميزوا بين بعضها وبعضها ويسموا كلا منها باسمه كما ميزوا مثلا بين حالات النسب الكثيرة في الاسماء وسموا كلا منها باسمه .

هو وهي :

هذا جانب من حكاية التانيث ، فلننتقل الآن الى الجانب الآخر منها لتتضح ابعاده في ضمير الغائب (هو) وتطوراته .

ان تانيث الاسم يعرف من صيغته مثل : جبيلة وذلفاء وعطشى ، او من معناه مثل : مريض وظئير وحامل ، او من الضمير الدال عليه مثل : هي ، هن .

والذي نعتقده ان العرب كانوا اول الامر يستعملون ضمير (هو) 'لدلالة على الذكر والانثى والخلو جبيما - انسانا وحيوانا وجمادا .. وما زال الامر على ذلك في الفارسية التي ينطق فيها هذا الضمير بصورته البدئية (او - نا) ، اي كما كان ينطقه العرب قبل ان يبدلوا همزته هاءا . نعتي ان العرب كانوا في يهودهم اللغوية الاولى يتولون : هو الرجل ، هو المرأة ، هو الشمس ، هو القمر . ثم ظهرت فئة منهم نطقت (هو) بالكسر : (هي) بنفس المعنى . ثم اختلطت هذه الفئة من العرب بغيرها من اللغات العربية لصار المختلطون يقول بعضهم (هو) وبعضهم (هي) ، ثم نشأ منها جيل يستعمل كلا الضميرين بمعنى واحد . وما يدل على ان الضمير (هي) كان يستعمل اولا للذكر انه ما يزال كذلك في الانكليزية بنفس النطق (هي : he) . كذلك اطلق الساميون القدامى في ارض بابل ضمير (هي) - قبل ابدال همزته هاءا - بصيغة (ايا - Ea) على الاله الذكر (ماء القمر)

وبمرور الزمن تخصصت في العربية صيغة (هو) بالذكر وصيغة (هي) بالمؤنث . وتظهر (هي) بمعنى التانيث في اللاتينية (ايا : ea) اي نفس اسم الاله (ماء القمر) .

ومثل هذا التخصص بالوف في التطور اللغوي حين تظهر لفظتان بمعنى واحد مع وجود معنى آخر لا لفظ له . فالمعادة ان المعنى المحتاج الى لفظ يعبر به من وجوده يختطف احد اللغتين المترادفتين . وهكذا اختطف معنى التانيث (هي) واستأثر بها لنفسه .

نعمندئذ تماثمت نواحي التانيث والتذكير في العربية . ذلك بان الجماد كذي الروح لا يد من الإشارة اليه بضمير ما . وقد كان يقال للجماد (هو)

و (هي) دون تمييز عندما كان معنى الكلمتين واحدا ، اي هاما لثلاثة اصناف : الذكور ، والاناث ، والاخلاء . وهكذا صار بعضهم يقول : هو الروح وهو العنق وهو السكين وهو الطريق وهو السبيل .. وبعضهم يقول : هي الروح وهي العنق وهي السكين وهي الطريق وهي السبيل ، اي انهم اضطروا الى تذكير الجماد الخلو او تانيثه لانهم لم يجدوا ضميرا ثالثا يخصصه به كما خص الانكليز مثلا ضمير it بالخلو الغائب المبرد (لكنهم استعملوا نفس الضمائر للمذكر والمؤنث والخلو في الحالات الاخرى اي في حالات الخطاب والجمع) . ومع الزمن استقر التانيث في العربية لبعض الاغلاء كالنار والحرب والدار ، واستقر التذكير لبعضها كالجبل والنهر والليل والنهار ، وظل بعضها الآخر هائما مترددا بين الحالين اي يؤنث ويذكر دون تمييز كالروح والعنق والسكين ..

من جهة اخرى نجد ان التاء ايضا قد تخصصت بالتانيث في مثل الوالدة والمرأة والسحابة والجنية ، ومن هنا صارت المادة ان تعامل كل اسماء الاغلاء المنتهية بالتاء بمعاملة المؤنث وكانها توهم قدامى العرب - كما توهم النحاة من بعدهم - ان تاء البانة والركوة والخيبة والرابية ايضا تعنى التانيث فقالوا : هي البانة وهي الركوة وهي الخيبة .

وبتعبير آخر ان التانيث (الحقيقي) قد تعامل فيه ضمير (هي) في مثل هي الاثان ، مع تاء التانيث في مثل الضئبة والفتاة ، نصارت (هي) تستعمل كتاعدة عامة مع اسماء الاناث سواء اكانت منتهية بالتاء ام لم تكن ، ومع اسماء الاغلاء المنتهية بالتاء . وقد هومت هذه الاسماء بمعاملة الاناث في مختلف حالات الكلام ، نصاروا يقولون : هي الاثان وهي الشمعة وهي الغابات .

اما ما يدل على الذكر والانثى من الاسماء فيسر التانية مثل الفرس فيؤنث اذا تصدوا الانثى ويذكر اذا تصدوا الذكر .

واما الاسماء التي يجوز نطقها بالتاء وبدونها كالنجم والليلية فقد انثوها مع التاء وذكرها بدونها فقالوا : هو النجم وهي النجمة وهذا الليل وهذه الليلية ، وذلك الماء وتلك الماءة . لكن الضدعة انثوها في كلتا الحالتين فقالوا : تلك الضدعة وهذه الضدع ، لانهم اعتبروها انثى في كلتا الحالتين ، اما ذكر الضدع نسوه العلجوم .

صفة التانيث أو استقر في الكلام تانيثه حتى في
الدرجات كالشمس والأرض والحرب والنار ..

ونشهد القدامى العرب أنهم أصابوا حين انشوا
بعض الأسماء مع خلوها من علامة التانيث كالظنر
والمرضع والحامل ، لأن هذه الصفات لا تكون إلا في
الانثى ، ولو أنهم - العرب - شذوا حين ميموا صفة
الولادة على الرجل . ويبطل استفراب القاريء لقولنا
هذا إذا تذكر أنهم يسمون الأب (الوالد) مع استحالة
الولادة عليه . واضفاء صفة الولادة على الأب وهو
منها براء ليس كذلك من باب مجاملة المرأة أو الخضوع
لسطوتها ، وإنما جاء من اطلاق (الوالدين) على الأم
الوالدة والأب ، كما اطلقوا (القرين) على الشمس
والقمر . وقد اطلقوا عليهما (الأبوين) أيضاً ، لكنهم
لم يسموا الوالدة أبة كما سمو الأب والدا .

إلا أن ذلك المنطق - في الظنر والحامل والمرضع
- يطير هباء في مثل : الخادم والعامر والرسول
والضيف وأمثالها من الأسماء التي تطلق على الذكر
والانثى ، أي أن الصيغة في هذه الأسماء يمكن اعتبارها
خنثى ، وإنما تكون ذكراً أو أنثى حين تميزها قرينة من
الضمان أو غيرها حيث يقال : هي الخادم ، وهن
العامرات ، وتلك الرسول ، وهذه الضيف .. أو : هو
الخادم وهم العامرون ..

تانيث الجموع :

والآن وقد رأينا التانيث في حالته ، أي نشوئه
من إضافة التاء أولاً ومن استعمال ضمير (هي) ثانياً ،
نأتي إلى ظاهرة أخرى منشؤها اختلاط معنى الجمع
بالتانيث ، في كلتا الحالتين .

إن معاملة بعض الإخلاء من الجمادات معاملة
الانثى قد سرت عداها إلى جموع تلك الجمادات ثم
إلى جموع كل الجمادات ، فصارت تؤنث بالتاء ويشار
إليها بما يخص الأنثى المفردة من الضمان وأسماء
الإشارة والصفات ، ما تجتمع نماذجها في مثل قولك :
تلك هي (الجبال) السماء الزاهية التي تسر رائحتها .
مجميع اللفاظ في هذه العبارة خاصة بالانثى مع أنها
تدل على الجبال التي مفردة (الجبل) مذكر .

وإذا كانت حياة الاستقرار والاجتماع في صعيد
قد أدت إلى ثبوت القواعد اللغوية ، مثل التانيث
بالمفتحة كتعامدة عامة في اللاتينية ، فإن حياة النقلة في
العربية وتكرار امتراق أهلها واجتماعهم على غير نظام
قد جعل من العربية مختبراً لغوياً تقع فيه تجارب لغوية
كثيرة التنوع والتمديد دائمة التفاعل والتخضض
والتولد . (وقد استمرت العربية تصدر نماذج منها إلى
الخارج ، لغات ولهجات ، على السنة الآريين والهاميين
والساميين ، منذ سحيق العصور) .

وبنتيجة ذلك التفاعل والتخضض والتولد في العربية
صار بعض القبائل يؤنث بعض أسماء الإخلاء كما
رأينا ، وبعض القبائل يذكرها ، وبعضهم يؤنثها
ويذكرها . فلماذا اختالف اللغويون فيما يؤنثون ويذكرون
من أسماء الجمادات لأن بعضهم يروي عن هذه
الطائفة وبعضهم عن تلك .

وقد أخذ المحدثون من معاصرينا يميلون إلى
اعتبار (هو) ضميراً عاماً للتذكير والتجريد من
المنسل (أ) ، مما ، مثل اليوم من يقولون (هي الطريق)
وأقل منهم من يقولون (هي السوق) فيما عدا قولهم :
السوق السوداء والسوق المشتركة . وأما كلمة (السلم)
فلا نظن أننا ترائناها مؤنثة لأحد من المحدثين ولا حتى
المتنطسين منهم . وأما (الرمح والغول) فلا نذكر أنهما
مرا بنا شخصياً مؤنثين في شعر أو نثر حديث ولا قديم ،
بالرغم من أن اللغويين أدرجوها ضمن الأسماء
المؤنثة .

وفي اللهجة المصرية يؤنثون الأمضاء والهناء مثلاً
وينطقونها الإمضة والهنة لانتهائهما بالمفتحة ، وفي
اللهجة المغربية يؤنثون الزيت لانتهائه بالتاء . وبعض
المراشيين يؤنثون الرأس والباب والبطن ، بل أن بعض
ضعاف الكتاب من معاصرينا يفعلون ذلك أيضاً ، وقد
وجدناه حتى عند ذوي الأسماء الأمامية (أي التي
طبقت شهرتها الأماق) .

هذه البلبلة التي كانت شغلاً شاملاً للغويين
القدامى ، هي التي حدث ببعضهم إلى أن يقول بجواز
التانيث والتذكير في جميع أسماء الجمادات التي لا تدل
صيحقتها على التانيث . وأصوب من هذا هو الاتجاه
الذي ينتحيه التطور في هذا الجيل كالذي نوهنا به ،
أي تغليب التذكير على الأسماء الخلوة ، إلا ما ورد في

(1) نعصد بالمنسل - زنة المبرد - آلة التناسل للذكر والانثى .

وتعامل الاخلاء احيانا بمعاملة جمع المؤنث السالم
يقال « انهن عصور مطاولات ودهور داهرات » .

ماذا أضفنا الى هذا جموع المؤنثات الحقيقية
من بني الانسان والحيوان علاوة على بعض أسماء
الذكور التي تجمع بالتاء كاليمانية والخيالة ، وتقول
الرجال وتعمل - مما ظنوه تائبا - أتضح لنا لماذا
تغلب التائيب على أكثر الجموع ، وعرفنا لماذا قال
شعروا النحاة :

ان تومي تجمعوها ويقتلي تحدثوا
لا أبالي بجمعهم كل جمع مؤنثا

وما سمينا شعروا لغاية شعره لكن لانه رعم
بالاضافة الى ذلك ان (كل جمع) مؤنث ، متجاهلا
جموع الذكور مثل : هم الرجال ، نملوا ، ويعملون ،
وماعلون . ولو قد قال بدلا من ذلك « رب جمع مؤنث »
لاحسن وأصاب ، بمعنى أن (رب) للتكثير لا للتليل .

فهذا فيما نظن موجز حكاية هذا التائيب الفوضوي
الذي بلبل بال اللغويين والنحويين ، قديما وحديثا ،
من شرقيين ومستشرقين - المسؤول في احدائه
ضمير (هي) الذي خدع العرب الاتدميين بمعنييه
للتذكير والتائيب ، وشريكته في الجرم (التاء) التي
خدعت العرب الاتدميين والنحاة من بعدهم بمعانيها
الكثيرة المتشابهة .

علم الأصوات الحيوانية عند العرب

الأستاذ عبدالهادي الفيضي أستاذ اللغة العربية بكلية اللغة
"النجف الأشرف" بعراقه

وثالثة أمادها وهو يربط على ظهر الكلب أو كتفه
وتقبل وضع المسحوق في فمه أيضا .
فكانت النتيجة ذاتها .

فاهتدى من هذا الى ان المنبهات البديلة أو ما
يسمىها بـ (المنبهات الشرطية) تستدعي الاستجابة
أو ما سماه بـ (الفعل المنعكس الشرطي) كما
تستدعيها المنبهات الطبيعية .

وقد اطلق على تعلم الحيوان الاستجابة للمنبهات
الشرطية مصطلح (التعلم الشرطي) .

وانتهى أيضا الى ان هذا اللون من التعلم موجود
في جميع الحيوانات حتى أحطها .. والى انه يستطيع
بواسطة تفسير جميع مظاهر السلوك الانساني
والحيواني (1) .

ونحن عندما نرجع الى تراثنا العلمي العربي نجد
جذور هذه النظرية تبدأ وبتفصيل من قبل العلامة
النحوي العربي رضي الدين الاسترأبادي المعروف بـ
(الرضي) والمتوفى عام 684 هـ ، وذلك في كتابه
النحوي (شرح الكافية) عذد دراسته موضوع
(الاصوات) .

قال :

« وثالثها : أصوات يصوت بها للحيوانات عند

يعزو تاريخ علم النفس وضع نظرية التعلم
الشرطي الى العالم الفسيولوجي الروسي إيفان
پتروفيش بانلوف Pavlov المتوفى 1936 م .

وهي من مهمات نظريات التعلم ومن مهمات
موضوعات علم النفس .

ويعني التعلم الشرطي : ذلك الترابط الآلي بين
الاستجابات الطبيعية والمنبهات الصناعية الشرطية ،
والذي تنوب فيه اشارات ورموز اشارة السلوك عن
المنبه الاصلي .

وقد توصل اليها العلامة بانلوف من تجاربه التي
أجراها على الكلب الذي كان يثبت على مائدة التجارب .

حيث كان يضع على لسان الكلب مقدارا من
مسحوق اللحم المجفف ، قارعا جرسا كهربائيا قبيل
وضع المسحوق في فم الكلب .

ولاحظ بعد ان كرر التجربة اكثر من مرة ان قرع
الجرس الكهربائي وحده كاف في المراز لعاب الكلب .

واعاد التجربة مستبدلا قرع الجرس باضاءة
مصباح امام الكلب وتقبل وضع المسحوق في فمه أيضا .

ولاحظ ان اضاءة المصباح وحدها بعد تكرار
التجربة كافية في أن يسيل لعاب الكلب عند رؤيتها .

(1) أصول علم النفس للدكتور أحمد عزت راجح 281.

طلب شيء منها ، أما المجيء كالفاظ الدعاء نحو
(هوت) و (قوس) ونحوهما ، وأما الذهاب كـ
(هلا) و (هج) و (هجا) ونحوها ، وأما أمر آخر
كـ (ساء) للشرب و (هذع) للتسكين .

وهذه الالفاظ ليست بما يخاطب به هذه
الحيوانات المعجم حتى يقال انها أوامر . أو نواه — كما
ذهب اليه بعضهم — لانها لا تصلح لكونها مخاطبة ،
لعدم فهمها للكلام كما قال الله تعالى : (كمثل الذي
ينفق بما لا يسمع الا دعاء ونداء) (1) ، بل كان اصلها
ان الشخص كان يتعمد انقياد بعض الحيوانات لشيء
من هذه الاعمال فيصوت لها اما بصوت غير مركب من
الحروف كالصليخ للدابة عند ايرادها الماء ، وغير ذلك ،
وأما بصوت معين مركب من حروف معينة لا معنى تحته
ثم يحرضه مقارنا لذلك التصويت على ذلك الأمر اما
بضربه وتأديبه ، واما بايناسه واطعائه ، فكان
الحيوان يمثل المراد منه اما رهبة من الضرب أو رغبة
في ذلك البسر .

وكان يتكرر مقارنة ذلك التصويت لذلك الضرب
أو البر الى ان يكتفي الطالب بذلك الصوت ممن
للضرب أو البر لانه كان يتصور الحيوان من ذلك
الصوت ما يصحبه من الضرب أو ضده فيمثل عقيب
الصوت عادة ودربة مضار ذلك الصوت المركب ممن
الحروف كالامر والنهي لذلك الحيوان .

وانما وضعوا مثل هذا الغرض صوتا مركبا من
الحروف ولم يقتنعوا بسادج الصوت لان الصوت من
حيث هو هو مشتبه الأفراد وتمايزها بالتقطيع والاعتماد
على المخارج سهل ، فلما كان الاعمال المطلوبة ممن
الحيوانات مختلفة أرادوا اختلاف العلامات الدالة عليها
فركبوا من الحروف .

وما ذكرنا من الترتيب يتبين منه كيفية تعليم
الحيوانات كالدب والقرد والكلب وغير ذلك .

هذا . . وانا لا ارى منعا من ارتكاب صيرورة
هذه الاصوات المقارنة في الاصل للضرب أو البر لما
استغنى بها الطالب عنهما اسماء اعمال بمعنى الامر

— كما ذهب اليه بعضهم — فتكون أوامر ونواهي ،
لان الله سبحانه وتعالى جعل العجاوات في فهم المطلوب
من هذه الاصوات بمنزلة العقلاء ، فلا بأس بان تخاطب
وتكلم بما تفهمه كالعقلاء « (2) .

وفي ضوء المقارنة بين هذا النص (الذي نقلته
بكامله ليماد منه) وبين تجارب بالملوف ونتائجها ..
نستطيع ان ننتهي الى ان الرضي كان سابقا في الاهتداء
الى هذه النظرية (نظرية التعلم الشرطي) .

وربما انماها من ملاحظاته المتكررة لحيياة
الحيوان وسلوكه حيث لم يذكر تاريخيا انه قام بتجارب
مماثلة لما قام به بالملوف .

والنظرية كما تأتي نتيجة لتجارب تجري في معامل
الترويض ، تأتي ايضا نتيجة للملاحظة المنظمة
الدقيقة للسلوك .

ونستطيع ان نعلل عدم اعطاء اهتداء الرضي
للمنظرية الاهتمام الفرسي المطلوب ، بمجيئه سابقا
بقرون لوجود علم النفس ، ولانه كان في مجال غير
نفسى وهو المجال النحوي .

وعامل آخر عدم دراسة نظريات الرضي لغوية
وغيرها من قبل الباحثين العرب أو غيرهم — فيما
اعلمه .

نقد خلف الرضي ثروة علمية ضخمة ، وذلك في
كتابه (شرح الكافية) في علم النحو العربي (وشرح
الشمسية) في علم الصرف العربي ، اللذين هالج فيهما
مسائل ذبنيك الملمين ونظرياتها معالجة واهية اصبحت
بالاصالة في الراي والمبني في البحث والانتهاى الى آراء
خاصة ذات قيمة مهمة في المجالين اللغوي والنحوي
منحته لقب (المحقق) بين العلماء (ونجم الائمة)
باستحقاق .

وأخيرا :

للعالم بالملوف تأكيد النظرية بالتجربة العملية ،
وبلورتها الى مصطلح أخذ مجاله العلمي .

(1) 171 / البقرة .

(2) شرح الكافية 80/2 و 81 .

ملاحظات حول النقد الأدبي

الدكتور محمد رجب السيوي "القاهرة"

بمعنى المعبى والانتقام نقد جاء في قولهم نقدته الحية بمعنى لدفته ، ونقدت رأسه بأصبعي بمعنى ضربته ونعيا يروى من حديث أبي الدرداء ان نقدت الناس نقدوك بمعنى ان عبتهم عابوك ومن هنا رجح بعض الباحثين غلبة معنى النقد على مدلول المؤاخذة والتخطئة مشيرا الى ان اللغة قد وضعت لفظ التقريظ لما يقابل المؤاخذة من المديح والاطراء اخذا من قول العرب قرظت الجلد اذا دبغ بالقرظ محسن وزين وجمل وقد شاع معنى التقريظ اليوم شيوعا ظاهرا ، اذ نرى نفرا من الناس يحرصون على كتابة مقدمات لمؤلفاتهم تتضمن المديح الخالص دون ان تتعرض - الا في القليل - لمخالفة صريحة في الرأي والاتجاه ، ونحن لا نرفض التقريظ اذا صدر عن رأي وامتداد ووافق موضعه من البحث الرائع والمعمل الممتاز ، فهناك من الآثار الادبية ما هو جدير بالتقريظ الجميل ، ولكن المشاهد المؤلم ان اكثر من يتجهون الى التقريظ لا يضمونه الموضع الصحيح لربما رجح عندهم البهرج وشال الصحيح .

اذن تمييز الجيد من الرديء ، والمعيب المنتقص كلاهما من مدلول المعنى اللغوي لكلمة النقد فاذا اتجهنا الى المعنى الادبي للنقد عند العرب وجدناه يستعمل في التقديم بمعنى التحليل والشرح والتمييز والحكم فالنقد لا يخرج لديهم عن دراسة الآثار الادبية وتفسيرها وتحليلها ثم بيان مداها من الاصابة والخطأ مقدرين درجتها الفنية شارحين اسباب الاستحسان

يطيلون الحديث من معنى النقد في اللغة فيلمون بكل ما قالت المعاجم في مادة نقد ومشتقاتها ثم يحاولون ان يعقدوا صلة ما بين كل معنى وما تمورف عليه الآن من معنى النقد الادبي ، وذلك جهد ان ابان من حسن التصرف وبراعة الاحتيال فانه يكثر الحديث في غير طائل ، والافوق ان نختار من معاني الكلمة اللغوية ما يمت بالصلة القريبة الى المعنى الاصطلاحي بلا تزيد في التفسير لنصل الى الحقيقة دون تصميب .

واذا كان من اوضح معاني النقد في كتب اللغة انه تمييز الجيد من الرديء ، تقول نقدت الدراهم وانتقدتها بمعنى انك ابنت الزائف من الصحيح ، وميزت الجيد من الرديء ، فان هذا المعنى الواضح هو القريب من مدلول النقد في الاصطلاح الادبي لان الناقد لا يخرج عن كونه صيرليا ماهرا ، يعرف الزائف من الصحيح ويميز الجيد من الرديء ، غير ان مادته هي الاساليب الادبية بمختلف فنونها واجناسها ، فهو اذن جوهرى المعاني والالفاظ ، يزن الخواطر والمسامر والتعابير بميزانه الادبي ويبعث بفكره وراء كل كلمة وخاطره مبينا مكان ذلك من البناء الفني المتكامل للجنس الادبي فهو بعمله هذا من المدلول اللغوي قريب قريب واذا كان الناقد الادبي يعمد الى تصحيح الخطأ وتعويم المعوج وفي ذلك من توجيه اللوم فسنيا الى صاحب الاثر المنتقد ما قد يقع منه موقع الالم وعدم الارتياح فان من معاني النقد اللغوية ما يمت بصلة قريبة الى ذلك ، اذ ان العرب قد يستعملون النقد

والاستهجان وذلك ما يراه المحثون اذ يقولون من النقد انه التقدير الصحيح لاي اثر لمني مع بيان قيمته في ذاته ودرجته بالنسبة الى سواه. ، واذا كان النقد الادبي اليوم في جوهره هو دراسة الاسلوب مكسرة وتصويرا وتعبيرا واحسنا مع الحكم عليه فان ذلك ما يلتقي بمعنى النقد في كتب الادب القديمة من ايسر السبيل .

واذا كانت الكتب المؤلفة في النقد العربي القديم، هي الجامعة لمذاهب العلماء والادباء في الفن ، والحافلة بآراء شيوخ الادب في النثر والشعر ، فاننا لا نصل منها الى تحديد اول من اطلق كلمة النقد على مدلولها الادبي من هؤلاء ، واقدم نص وردت فيه هذه الكلمة يرتفع الى البحري حين تحدث عن ابي العباس ابن ثعلب مقال عنه : « ما رأيته ناقدا للشعر ولا مبيزا للالفاظ » ولكن رواية البحري جاءت على لسان مبد القاهر في «دلائل الامجاز» فلمه روى المعنى دون اللفظ، واطهر من نص على هذه الكلمة صراحة هو ابو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي من علماء القرن الرابع (337) هـ حين سمي كتابه نقد الشعر وصرح بانه يبحث في تخلص جيده من رديئه ، وقد سبقه الى هذا المضمار محمد بن سلام الجمحي (232) هـ في كتابه «طبقات الشعراء» والجاحظ (255) هـ في «البيان والتبيين» وابن قتيبة (276) هـ في «كتاب الشعر والشعراء»، الا ان هؤلاء الثلاثة لم يشيروا الى كلمة النقد اطلاقا حتى جعلها قدامة اسما لكتابه فتعوربت واشتهرت، وترددت بعد ذلك في ماكتبه الامدي والجرجاني والزمخشري وابو هلال وابن رشيقي حتى أصبحت علما على من ادبي طائر الصيت ، ويخيل الى ان خلف الاحمر (180) اول من اشار اليها من قريب دون ان ينص على لفظها الصريح وكأنه حوم ولم يقع ، فقد روى صاحب طبقات الشعراء (1) ان قائلا قال له : اذا سمعت انا بالشعر استحسنه لما ابالي ما قلت فيه انت واصحابك مقال له : « اذا اخذت انت درهما فاستحسنته مقال لك الصراف انه رديء هل ينفعك استحسانك له » والصيرفي في اللغة هو الناقد وقد قرنه خلف الاحمر بمن يخلص الشعر ويزنه بميزانه الصحيح ، ثم صار الفاحص ناقدا دون تفریق . هذا الناقد الذي يجلس من الاثر الادبي مجلس القاضي فوق منصة القضاء ، يحلل البواعث ويكتنه السرائر ويتعمق المعاني ما موقفه من النص المنقود ؟ يقتصر

في نقده على ايضاح مشاعره الذاتية ازاء النص لميجيء حكمه النقدي صدى لشعوره النفسي ومعبرا عن مدى استجابته الشخصية للنص المدروس أم يتعمد بقواعد علمية مرسومة تعارف عليها السابقون وجعلوها مناط الاحتذاء والترسم لقد طال النقاش حول الذاتية والموضوعية فانبرى الذاتيون ينادون بان الناقد ليس آلة في يد المقررات السابقة يسير في ضوئها ، ويمشوا الى نارها ويحرص على التزامها دون انحراف ، فان له من مشاعره الخاصة وثقافته النيرة ، وبصيرته الناقدة ما يستطيع به ان يفسح بعض المقررات الجديدة التي تفتح اتجاهات مغلفة ، وتشير الى طرق حديثة في مجال التعبير والتصوير ، وبذلك يتقدم الادب في شتى مجاله ويضيف اللاهق الى السابق ما يطرد به النمو الادبي نحو الكمال هذا بعض ما يقوله الذاتيون ، اما انصار النقد الموضوعي ، فيرون ان الاهواء الشخصية تتحكم ، والبيول النفسية تسيطر لماذا تجرد الناقد عن كل مصطلح مقرر يمكنه تحت هذه البيول المتحركة ان يمدح المخطيء ويذم المصيب ولن يعدم من اوجه التحمل والافتعال ما يظهر نقده مظهر المحايد المتجرد ، واذا استطاع بمسح الحصفاء ان يدركوا ماخذ الضعف في انحرافه فـان الكثرة من القراء سينخدعون بطرائه ، ويسيروا في تياره وربما احتذى الناشئة حذوه فاندمعوا الى محاكاة ادب هابط رلعه ناقد مفرض حاجة في نفسه فامتد ضرره السيء الى نطاق بعيد هذا بعض ما يقوله الموضوعيون ، وتلك قضية تلزمننا ان نقول ان الحدود ليست فاصلة بين النقد الذاتي والنقد الموضوعي ، اذ ان النقد الذاتي مهما استجاب لتأثيره النفسي وتجاوبه الشعوري ومهما عبر عن انفعاله الخاص نحو اثر يقرؤه ويتذوقه فانه يصدر في تجاوبه واستجابته عن حسيلة قراءات سابقة تتفق على استحسان الجيد واستهجان الرديء ، وهو بعد لم يستطع ان يشق طريقه في ميدان النقد بحيث يصبح ذا تأثير كبير على قرائه الا بعد رسوخ في النظر المستقيم وادمان على البحث الجيد ، ومواصلة للدراسة المنقبة عن مطاوي المعارف ومجاهل الآراء ، وهو بكل هذه الدراسة الموضوعية لا يستطيع ان يكون ذاتيا يتجرد من جميع ما قرره السابقون من احكام ، كما ان الناقد الموضوعي مهما التزم المقررات المعلومة وتقيد بالمعارف المرسومة ونهج منهج المحافظين على تضايها الفكر ومذاهب البحث فانه انسان يحس ويتأثر

ويستجيب ، وله ذاتيته التي تدموه الى التفاعل مع النص تفاعلا يسير به الى تحبيذه في ضوء ما يعلم من المقررات فتمصر الذاتية قريب منه قرب الموضوعية من صاحبه ؟ فليست هناك حدود ماصلة تجعل الناقد الموضوعي ينعزل انعزالا تاما عن الناقد الذاتي ، غير اننا نلاحظ السمة البارزة لدى الناقد فاذا غلبت الذاتية على احكامه عد من انصارها واذا غلبت الموضوعية عليه كان ناقدا موضوعيا ، ومن خير الادب ان يوجد الناقد الذاتي والناقد الموضوعي معا لبيتكسر الاول ويجدد ويدعو الى آفاق جديدة تفيض بالضياء فيطرد النمو الادبي وتتسلسل الحلقات الجديدة على تناسل الزمان ، أما الناقد الموضوعي فيقف حائلا دون الشطط الجامح ، وحاجزا دون التهور في الرأي والاسراف المفرق ، وسير الزمن في دورته لينشأ في الجيـل اللاحق من يزن آراء الذاتيين والموضوعيين معا ، فيرمي بالزبد ويبقى الصريح .

وإذا كنا نحب الادب ونحرص على الاستمتاع بصوره والامادة من افكاره والالتذاذ بموسيقاه فان حبنا للادب يدفعنا تلقائيا الى حب النقد ، إذ ان النقد يتولى شرح الاثر الادبي وتحليله فيسلط اشعته القوية على زواياه الخافية ، ويهدي القارئ الى مناح دقيقة قد تغيب عن ذهنه فيجيه عمله مكملا لعمل الاديب ، وقد يضيق كثير من المنشئين بهؤلاء النقاد ، ويترمون بما يبذون من ملاحظات وأذكر اني قرأت قصة غريبة تهدف الى السخرية من النقاد وتصنمهم بالفضل والجذب وتتحداهم ان يضموا اثرا من الآثار الفنية التي يعملون فيها معاولهم الهادمة ولعل كاتب القصة ممن تعرضوا الى نقد متتابع أزعهج وأقلق راحته ، فاندفع يثار لنفسه من قوم يحملون معاول الهدم وادوات البناء معا ، لان الناقد حين يهدم اثرا فنيا انما يدل على نواحي ضعفه ومواقع تهافته ليتجنبها من يزاول الإنتاج وهو في الوقت نفسه يدل على طريقة الإنشاء الجيد هادما بانبا في وقت واحد وكل ناقد يعتمد الى الهدم فقط دون أن يشير بالعلاج المسدد لا يؤدي رسالته كما يجب أن تكون ، والقارئ ظالم حين يقرأ النص ثم يطالع نقده لانه حين قرا النص قد خرج عنه لا محالة بفكرة ما دقيقة او مضافة ، فوزنه بميزانه الشخصي الذي تخلقه الطبيعة في نفس كل قارئ يقرأ ويحكم لماذا قرأ بعد ذلك نقدا جيدا لهذا الاثر ، فانه يوجهه الى ما فانه لدى قراءته الاولى من ملاحظات وربما دفعه الى نهج يلتزمه عند القراءة فتمتو في نفسه بذرة ناقد حقيقي

يشرب للنمو ، وقد يشق طريقه الى الميدان ، أو يكتب بما يتيح له من توة الملاحظة وسعة الافق حين درس وجهة النظر الجديدة فيما طالع ودرس ، وإذا كانت فائدة القارئ عظيمة فان فائدة صاحب الاثر الفني اعظم وادسم ، لان كل صاحب عمل نظري أو فني يجب أن يستطلع آراء المتخصصين فيه ، فهو يشعر في اطوائه برغبة ملحة الى الاستماع لكل ما يدور حوله. من وجهات النظر المختلفة ، فاذا صادف ناقد مخلصا لهدفه فانه يكمل نقصه بما يبدي من اعتراض أو مؤاخذة ، ولن يضيره في شيء ان يحصي الناقد اخطاه في دقة وتعميل لانه اذا آلمه من هذه الناحية فسيبصره حين يتعرض بالتحليل للكاشف الى مواطن الابداع في فنه وموضع النبوغ في نظرائه ، وقد يكون سفره الى القراء ، إذ يوثق صلاتهم به حين ينتج عيونهم على مناهج جديدة في انتاجه لم تكن لتتاح للكثرة القارئة دون ناقد نزيه ، وعلى أن من الخطر كل الخطر ان يصبح الاديب تلميذا لناقده يخضع لتوجيهه ويرضى بقبول توصياته ، إذ ان من الناقدين من تشخ نفوسهم الى الاستعلاء فيدعون انهم اساتذة الابداء مع انهم في حقيقة نفوسهم لا يعيشون على غير تراث هؤلاء التلاميذ المزهومين ملولا ان الشاعر أو الكاتب قد أبدع اثره الفني ما وجد الناقد مجالاً للحديث ؟ وفي الناس من يشترط في الناقد ان يكون ادبيا منشئا زاول الإنتاج الفني ليكون أبصر بفضائته، وأدري بمنهجاته وقد يكون ذلك ميسورا لدى بعض الموهوبين من النقاد، الا انه ليس امرا عاما لدى الجميع ، وقد كان الراقعي رحمه الله يشترط في ناقد الشعر ان يكون شاعرا ، وهو اشتراط عسير التحقيق من ناحية وغير ضروري من ناحية أخرى إذ ان أكثر نقدة الشعر المجيدين في القديم والحديث ليسوا بشعراء ولم ينمهم ذلك عن تأليف الكتب الناجمة والمقالات الحاسمة في فن الشعر ومآخذة على أن الناقد من الاديب تربيب غير بعيد إذ أن ميدان الفن الادبي هو الانسان والطبيعة فالاديب اما أن يتعرض للنفس الباطنية بما يموج بها من تيار العواطف والنوازع فيصدر عن الذات الداخلية ناظرا الى العلاقات البارزة في الصلات الاجتماعية والمتناقضات البشرية والمواقف الإنسانية ومتخذا من كل ذلك مادة جميلة يقرأ فيها الناس نفوسهم الخفية في غبطة وارتياح ، وأما أن يتعرض للطبيعة من حوله صابئة وناطقة فيتحدث عن الطير والحيوان وعن النبات والشجر والجماد وسائر ما يدهشنا به الكون من صور ومشاهد متخذا من كل ذلك مادة جميلة يقرأ فيها الناس نفوسهم